جاك دير ألكسانيان

السماء كانت سوداء فوق الفرات

من مآسي الأرمن

ترجمة

سيلفا عربش

السماء كانت سوداء
فوق الفرات

جاك دير الكسانيان

السماء كانت سوداء فوق الفرات

من مآسي الأرمن

ترجمة

سيلفا عربش

* السماء كانت سوداء فوق الفرات
* تأليف: جاك دير الكسانيان
* ترجمة: سيلفا عربش
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الناشر: مؤسسة سندباد للطباعة والفنون
* الطبعة الأولى ١٩٩٥

الإهداء

إلى كل مشرد ومهاجر عانى العذاب وتكبد مشقة الحياة
ليواصل وجوده وينقل لغته وتراثه إلى الأجيال المقبلة..

واهٍ أيها الانسان المقتول..
إيه أيها الانسان القاتل

بقلم: وليد مشوح(*)

بالفعل كانت السماء سوداء فوق الفرات، لا بل وتمطر غضباً واستنكاراً يترجمه الضمير، وتتمثله الشرائع والنواميس لتنه عن أمور كثيرة.

قبل أن أتعرض للرواية الشهادة، ـ وإن شئت قل ـ الشهادة الرواية، أود أن أعبر عن احساساتي الجسدية والنفسية، وأنا أقرؤها سطراً سطراً، إذ كنت لاأصدق عيني بما نقلت إلى عقلي، وأقول في داخلي: ربما هو كابوس، أو هو سبق للخيال الجانح نتيجة ارهاق، أو تهيؤات تحدث لحظات أحلام اليقظة، لكن السطور تقول ذلك، فتعتريني هزة، وتتقلص كل عضلة في جسدي، ويشوه بصري، وينتابني الغثيان، ويتصبب عرق الخجل، ويرتسم السؤال عريضاً على وجيب الروح قبل منطقية العقل: أصحيح ماجرى، ويأتي الصوت حنوناً، رزيناً، هادئاً، منطقياً؛ ومالغرابة فيما جرى، ومازال الفعل المنافي لانسانية الانسان يجري، تطلع غرباً حيث بيت لحم، وماتراه أشهد عليه كما فعل أخوك.

ولِمَ تنحط الإنسانية ـ جوهر هذا الكون الإلهي الرائع ـ إلى مثل هذا الدرك، وقد أنبأنا علماء طبائع الحيوان، بأن بعض الضواري، والدواب، والزواحف القاتلات، لاتتعرض للبسيط والمسالم والطيب.. ولكنها الوصمة على جبين الانسانية، والعار الأبدي الذي تجلبب فيه البعض.

وبعد الاحساس الذاتي الذي يفسره علم النفس؛ على أنه إدانة لفعل، لأن الاحساس بحد ذاته مقدمات لردة الفعل، أجدني أدخل أجواء الشهادة الرواية.

الرواية بعنوان «السماء كانت سوداء فوق الفرات» للكاتب الأرمني جاك دير

الكسانيان، وقد أهداها إلى أمه وأصدقائه وأبناء بلده، ولم ينس المكان حيث وقع الحدث، جبل آرارات العظيم الذي بقي شامخاً وشاهداً صادقاً وصامتاً منه يستمد التاريخ تسجيل وقائعه، وعليه أيضاً أن يعرض هذه الوقائع، ليردد الجبل مصادقاً: آمين.

نشرت الرواية في عام ١٩٣٥ . وتبدأ وقائعها منذ عام ١٩٠٠ أي عندما بدأ الطفل ـ الشاهد ـ يعي مايحدث حوله، ويتحسس المأساة في ذاته متفاعلاً معها ومنفعلاً بها، ولم لا وقد دارت رحاها لتطحن الروح والذات الأرمنية حيث ينتمي الكسانيان.

وهنا أستميح القارئ العربي عذراً لأنني وسمت العمل بالرواية؛ وكان الأجدى أن أقول: المذكرات، أو اليوميات المأساوية التي صيغت بأسلوب روائي هو أقرب إلى السرد الأمين لوقائع الموت والانتظار، والشاهد راوٍ، والشهادة رواية، بدأ الفتى الكسانيان يخزن في ذاكرته بداية المأساة، ومساراتها، ووقائعها، ويتمنى أن يظل على قيد الحياة، ليفرغ المخزون على الورق، ويضعه بين يدي الجيل القادم، وهكذا يروي جيل إلى جيل الملحمة السوداء التي عاشها الشعب الأرمني لاليبذر الحقد، بل ليصنع القوة من أجل السلام والطمأنينة للجيل الجديد الذي دفع أسلافه ثمناً غالياً كي ترفرف الحمائم البيضاء بأجنحتها، وتخفق راية المحبة والحرية.

هناك في إحدى القرى الأرمنية ولد الكاتب، وغادرها قهراً وقسراً؛ يتذكر طفولته، إذ كان البدء من تلك الهجرة المختارة قسراً حيث العاتيان، الموت والفقر، يهاجر بعض الأرمن وفيهم أقاربه إلى أمريكا، ويتلقفهم الشتات الأول، ولكنه من أجل هدف، القلة تهاجر محتملة الفراق والغربة لتستمر الكثرة في الحياة، ومن التحويلات يعيش الكثيرون ـ بالفعل ـ حياة دون خط الكفاف، ومع هذا فهي حياة بهيجة، سعيدة، بسيطة، ويكفي أنها صنعت للطفولة سعادة لها طعم ما، وبأسلوب شغيف، ينم عن أبعاد انسانية في ذات الكاتب، يصف لنا القريه، وعشياتها، والتآلف والتآخي، والتناظر مع الطبيعة، مبرزاً جمالياتها المادية والمعنوية محلقاً بنا على أجنحة الخيال إلى عوالم ساحرة حدوها السلام والسعادة المفترضان. ولم تكن ثورة الاتصالات بمعطياتها الحالية، إنما الرواية عن فلان عن فلان نقلت القلق الذي بدأ يقض مضجع

الفتى الذي لم تنبت شارباه بعد، إنهم يتحدثون همساً عن الغول الذي بدأ يبتلع خيرة شباب الأرمن، إنهم ينتزعون الفتوة من صدر أمها الأرض ويلقون بها وقوداً لآلة الحرب التي لا ناقة لهم فيها ولاجمل.

ولم تعد الحكاية مجرد روايات، قد تكون المبالغة ديدنها، ثم وصل الفعل إلى قريته والقرى المجاورة، إذن هي حقيقة، مسلحون يلبسون الخاكي، ومدنيون على رؤوسهم «الطرابيش» يقتحمون البيوت ويقتادون الشباب ويحملونهم حتف أنوفهم في شاحنات تقلهم إلى المجهول، وهنا يعملون في بناء أدوات الحرب لما عرف عنهم من مهارات صناعية وزراعية.

إذن فالهزة الأولى كانت التجنيد القسري، أما الآتي أشد مرارة وهولاً وفظاعة مع أن الأمهات بعن أقراطهن ومؤونة العائلة وثياب العيد ليدفعن الرشوة «للأفندي» عسى أن يغض الطرف عن انتزاع شباب الأسرة ومعيليها وشحنهم إلى المجهول وهكذا يجهزنا الكاتب نفسياً لاستقبال الآتي الأعظم، ويدفع بنا إلى جحيم عام ١٩١٥ حيث بدأ السبي، والدفع باتجاه الشتات، أجل بدأ التهجير الجماعي والقسري - بالطبع فالقرى التي هُجِّروا منها، والعراء الذي جُمِّعوا فيه، كان من الممكن بالارداة، وفهم الحياة، أن يبنى من جديد، لكن اللاحق كذب الظن السابق، ومالتجميع هذا نتيجة أخرى غير الابادة الجماعية الوحشية، وهذا ماحدث بالفعل.

ذاكرة حية، وشاهد أمين، وراوٍ لوقائع الفاجعة من قلبها، لم ينس شيئاً، وصف المأساة، بأشكالها، وشخوصها، وأماكنها، وتواريخها، محللاً نتائجها الانسانية وعليها. عيناه كانت آلة تصوير عرضت شريط المأساة: قتلى، جثث متناثرة، نساء مبقورات البطون، أحشاء تلتف على سيقان الجرمل، والشيح، والدفلي فتعطيها طعماً أشد مرارة مما هي عليه، أطفال يهيمون على وجوههم، وفي أعينهم شيئية تجافي انسانية الانسان، رجال يلحسون التراب، شيوخ معروقون يلحسون شفاههم الغرثى، فتيان وفتيات يمضغون جذور النبات أو يمتصون الحصى، الكل حفاة عراة فقد أكلوا أحذيتهم، و كفنوا بألبستهم بقايا أشلاء الأهل والأحبة.

والصدفة أو القدر خدماه، إذ يتبناه ضابط صف عثماني ويتستر عليه ويستره

ويعطيه من الحياة نصيبه، مقابل خدمته، المأجورة بطعامه وأسماله ومساحة رقوده، ويقدم مقابلها الاخلاص والتفاني بالعمل، متسترا تحت عِمةِ اسمه الجديد «محمد»، الرعب يطحنه في كل لحظة، والموت يتربص به في كل نأمة والتفاتة، ويموت الرجل الكبير، ويكاد أن يلبس التهمة بقتله، ويتآلف مع العائلة التي أحبها ويغدو من أفرادها، ليكتشف الحقيقة الأولى وهي أن الاسلام بريء مما فعلوا، أو ليست عائلته الجديدة مسلمة حدبت وعطفت عليه، وتمر السنون ليكتشف الحقيقة الثانية وهي ان القومية بريئة مما فعلوا ويفعلون، فشر كاؤه في الشقاء، كردي ثار على وضعه السيء فقمع بشراسة، وسُحِقَ بفظاعة، ومسلم ذكر اسم الله الواحد الأحد واقتسم اللقمة مع أخويه المعذبين في الأرض، فشاركهم دموعهم، وأعطاهم دفئاً وماءً ومحبة، وتركيٌ أصلاً ينتمي إلى أبناء الأرض ويتحد مع ملحها يقاسمه نفس العل، ويحمل معه نفس الثقل، وربما توحدا في المشاعر، عندها تطل الحقيقة الثالثة بائنة بيّنة، وهي أن الوحشية أو الخلل، والمهزلة تكمن في تركيبة النظام الحاكم آنذاك، وأن المسألة ليست صراعاً دينياً فالله - كما تبين له - هو للجميع، واحد أحد، وليس صراعاً قومياً فالانسانية جوهر في الكائن الأرقى، فالتركي أنقذه، والكردي تزوج أخته فأسعدها، والعربي استقبله بـ أهلاً وسهلاً والثلاثة مسلمون، والاسلام ليس عثمانياً ولاهو تركي، وليس هو بالطوراني، ولاكل من تزيا بزيه بمستطيع أن يصادر قيمه.

لقد حدثوه بالحقيقة وتلمسها، فالذين استلبوا أرضه، وجندوه قسراً ونفوه، وغيبوه، وقتلوا أهله، هو الأرمني المؤمن بالله؛ هم أنفسهم الذين فعلوا الشي نفسه بالكردي المسلم، وفعلوا الأفظع بالعربي المسلم، اذن لابد من تلمس الطريق إلى بر السلامة، لقد ثار العرب، ودفعوا ثمن ثورتهم، وتناوشت أعواد المشانق أولئك الفتية الذين رسموا درب الثورة، في دمشق وبيروت، وانتقم الأرمني المسيحي، للعربي المسلم، عندما قتل الباشا الظالم السفاح، لأن القاتل ليس مجرد من انسانيته فحسب، بل ومن انتمائه ودينه.

لقد قرر أن يجمع شمل ماتبقى من العائلة، عرف أمكنتهم وأنماط حياتهم الجديدة، ودأب على تنفيذ ماأراد، وظل يقترب شيئاً فشيئاً نحو بر السلامة حتى وقف على شاطئ الفرات. إيه أيها الفرات الهادر، أناشدك دم أهلي، وآهات الراحلين، وأنّات المعذبين من مسلمين ومسيحيين أن تحدثني عن

أجسادهم التي ضاق بها صدرك، عن دمائهم التي لوّنت أمواهك، عن صرخاتهم التي هيّجت موجك، عن شهقاتهم.. حدثني.. بل ناجني، لاضيف إلى بحار المرارة مرّارا.

ويعبر الفرات، ويجتمع إلى الكثيرين من القلة المتبقية من الشعب الأرمني، ليستقبلهم العرب محاولين إبراء جراحهم، ويتلقون لمسة حنان، وحفنة دفء، وفيض سكون وسكينة، وكأنهم قاموا من موتهم ليجدوا أنفسهم في نعيم الوجود بقدر ماهو موجود.

وتمضي الأحداث ليصل إلى الحقيقة الرابعة، وهي أن القلب العظيم يخفق بالحب العظيم رغم الألم العظيم، فالويلات والمصائب والنكبات، لم تنسه أعظم أقنوم من أقانيم الانسانية والكون الانساني؛ ألا وهو الحب، لقد سبقته نفارت رفيقة الطفولة والألم، شريكة الدم والمصير، وتذكر أنه يحمل لها في قلبه حباً عظيماً، إذن وباعتبار أن الترجمة الحقيقية للحب هو الزواج فقد اقترن بها، متوجاً ارادته للحياة وفي الحياة.

ويهاجر إلى فرنسا، ويكتب مذكراته الأدبية، حيث يفارق الحياة تاركاً حبا عظيماً، وامرأة حبيبة، وأولاداً يحملون اسمه، وشهادة هي هدية فرد من مئات الآلاف يقدمها للتاريخ طالباً تأطيرها بالحقيقة ووضعها بين يدي العالم.

وأخيراً ربما ألحّت علي الرغبة، وعصف بي التذكار، لأقارن بين معاناه الأرمن من العثمانيين وانتهى بصور الفرات وماعانينا نحن العرب من العثمانيين وامبراطوريات الأمم الكبرى من قبل، ومن الصهاينة اليوم، وليس لنا خط نعبره إلى شاطئ الأمان سوى وحدة الكلمة وتحصين الذات، والتمسك بذرّات الأرض العربية بجغرافيتها التي رسمت بدماء البررة من أبناء هذه الأمة، وإن رواية وضعها الأرمن بتصرف التاريخ، ستكون رواية قيّمة إذا ماانصطفت إلى جانب رواية العربي الفلسطيني لما لقيه ويلاقيه من أحفاد الدونمة الذي قتلوا الأرمني والكردي والعربي من قبل.

لقد ظننت أن الرواية ستقع في وهدة التشوش وعدم الوضوح تجاه المنطق المتجني على جوهر الإسلام لكنني مإن وصلت إلى النهاية حتى خاب فألي ووجدتها منصفة وتسيساً وتأسيساً - وكعربي - أجنح إلى العفوية لما فيها من

صدق، حتى ولو جاءت على حساب التقنيات المحددة للفن الروائي سواء أكان ملتزماً أو غير ملتزم، سواء أكان على مذهب أصحاب الفن للفن، أو أصحاب الواقعية المحايدة أو الواقعية الاشتراكية.

(*) ـ كاتب وأديب وشاعر وصحفي عربي سوري، له مؤلفات شعرية ونقدية وتاريخية، حاصل على إجازة الماجستير في الآداب.

تقديم

استقر غازاروس في فرنسا منذ أكثر من عشرة أعوام، وجد فيها حياة أخرى بعد أن تزوج وأنجب ثلاثة أولاد يحملون الجنسية الفرنسية واسم (لاجئ). لقد فقد غازاروس كل شيء ولم يبق له من ماضيه سوى أخ وأختين استقروا منذ زمن طويل في الولايات المتحدة.

هو أيضاً كان يفكر بالذهاب إلى أمريكا كالعديد من أفراد عائلته وشعبه بغية التخلص من الفقر والحصول على الحرية ولكن الأغلبية كانت تعود بعد سنين طويلة دون أن تنسى هويتها ووطنها أرمينيا.

لكن بعد المأساة الأليمة التي أصابتهم وأرغمتهم على مغادرة بيوتهم توجه غازاروس وبعض الناجين من أهل بلده إلى فرنسا التي وفرت لهم فرص العمل وإمكانية الحصول على هويتهم الإنسانية.

سُحِرَ غازاروس بهذه الدولة التي كانت تربطها مع وطنه أواصر الصداقة المتبادلة منذ عصور قديمة. وبعد أن اطمأن على كيانه وكيان عائلته بدأ يطرح على نفسه أسئلة تتعلق بالمستقبل ولكن قبل كل شيء كان يتساءل أعليه أن يمحي من ذاكرته كل الأحداث التي عاشها قبل مجيئه إلى هنا؟ أعليه أن ينسى كل العادات والتقاليد التي نشأ عليها؟ أعليه أن ينسى طفولته، عائلته، قريته، جذوره، ذلك البلد البعيد والعزيز بلد الآرارات الحاضر دائماً في قلبه؟

رغم أن هذا الأمر لم يعد يهم أحداً وأن التاريخ يسعى لمحو فصوله المظلمة أليس من واجب الناجين من هذه الملاحم أن يتجمعوا من جديد للحفاظ على بعض مابقي مثل آبائهم الذين تعرضوا هم أيضاً للإبادة لكنهم استطاعوا تأمين استمرارية هويتهم.

وعلى الرغم من رغبة غازاروس في البقاء غريباً كتوماً في فرنسا إلا أنه كان متشرباً من ماضيه الغني وكان هذا الاحساس يعطيه ثقة بالنفس ومظهراً لايخلو من المهابة.

كان غازاروس عاملاً متواضعاً ذو وجه قاسي المعالم إلا أن نظرته الثاقبة كانت تحمل نوعاً من الفضول والرغبة في الاتصال مع الآخرين كان يفكر أنه يجب عليه البقاء كما هو والتأقلم مع عادات بلده الجديد ليصبح واحداً من مواطنيه، عندما كان يتنزه مع عائلته في المدينة لم يكن أحد يتصور أنهم لاجئون لأنهم بالرغم من فقرهم كانوا يلبسون ثياب العصر الأنيقة وأما أطفالهم فكانوا يجارون أبناء جيلهم من الفرنسيين بحيث لم يعد هناك فرق بينهم.

وهكذا اقتنع غازاروس بهويته المزدوجة الأولى الفرنسية ومايحمله من عرفان لهذه البلاد التي آوته والثانية الأرمنية تلك الهوية الأصلية التي لايزال يحفظها في قلبه وذاكرته.

ولكي يريح ضميره وعقله من ذلك الحمل الثقيل كان عليه تنفيذ مهمة ألا وهي العودة إلى الماضي ومضت أسابيع وهو يكتب كل مايتذكر ولدهشته وجد بأن الأحداث تسيل تحت ريشته دون صعوبة فكانت الكلمات تأتي من تلقاء نفسها وكأنها تشهد لصاحبها حقيقة ماعاش.

وأما الكلمة الأخيرة فكانت الإهداء التالي:

في الذكرى العشرين للظلم والوحشية التي هاجمتنا أفكر قبل

كل شيء بكِ ياأمي، لن أنساك أبداً، لن أنساكم جميعاً ياأهلي، ياأصدقائي وأبناء بلدي الذين لقيتم حتفكم واختفيتم في غبار الزمن أنتم الذين قتلتم بوحشية دون قبر يواري عظامكم لكي لايبقى أي أثر من شعبنا.

ولكن أينما كنا في هذا العالم، نحن الناجون سنظل أرمناً وعيوننا ملتفتة أبداً إلى جبل أرارات ولابد للحق أن يظهر ويكتب في صفحات التاريخ لننتشل بلادنا من الظلمات.

لم يبق لغازاروس سوى التوقيع وكأنه يشهد على وصيته خوفاً من أن محتوياتها لاتهم أحداً. أخيراً ارتاح غازاروس من آلامه فرح لأنه أنجز شيئاً ما ولأنه أعطى لحياته اتجاهاً حقيقياً وكان بوسعه كلما أراد أن يفتح الصفحة الأولى ويعيش مغامراته من جديد يجد قريته وطفولته وناسه الذين أعطاهم حياةً في كتابه هذا.

غازاروس دير اليكسانيان
فالنس. فرنسا
٢٤/نيسان/١٩٣٥

أرمينيا ـ أمريكا

١٩٠٠

زرقة السماء فوق مورينيغ كانت كثيفة وجامدة، وكانت سلاسل الجبال تحيط الطبيعة من كل ناحية، وكنت كعادتي كلما ذهبت إلى الحقول للقاء أخي هوفانيس حيث يعمل، أجول ببصري في الأشكال البيضاء التي كانت تؤلفها الغيوم ورغماً عني كنت أجد نفسي أبطئ الخطى لأتأملها بإعجاب وكخيال أي طفل كنت أتصور وراء الحدود وجود شطآن بعيدة، وبلاد مثيرة وأناس مختلفين.

كم كان الفرح يغمرني كلما ابتعدت عن الواقع، فقد كنت أردد في رأسي أولاً ثم بصوت عال كلمات مثيرة كالبحر المتوسط، أوروبا، مرسيليا، فرنسا... أو تلك التي كان يرددها إخوتي الكبار (أمريكا ـ أمريكا ـ !) وظهرت فجأة غيمة رمادية بددت هذا التناسق الجميل. كانت تصعد ساحبة معها ذيلاً من الدخان مما جعلني أتسمر في مكاني فقد كان الدخان آتياً من المكان الذي يعمل فيه أخي ولم أمنع نفسي من الصراخ (النار!) وأنا أهرع إلى هناك وكم كان خوفي كبيراً أمام الكارثة التي تجلت أمام عيني ولكن الحمد لله كان هو فانيس بخير فقد رأيته ينبعث من بين ألسنة اللهب ويرمي بنفسه على الأرض ثم التفت نحو النار كاتماً غضباً عنيفاً لضياع جهد وقت طويل خلال لحظات معدودة.

هرع لنجدتنا القرويون ولكن بعد فوات الأوان فقد ضاع موسم كامل من المحصول وبينما كانت فتاة تروي ماحدث كان هوفانيس منكسراً، صامتاً:

كنت في حقلي عندما رأيت فجأة ألسنة لهب تنطلق من عدة أمكنة وأيقنت بأن هوفانيس سيفاجأ بالنار لانهماكه في العمل فركضت نحوه صارخة بأعلى صوتي وسمعني أخيراً واستطاع انقاذ نفسه قبل أن تحاصره النيران، الحمد لله. فقد كان من الممكن أن يشوى حياً.

بدأ القريون يتهامسون فيما بينهم وكأنهم يريدون إيهام أنفسهم بأن حادثة كهذه لن تصيبهم:

ربما نسي هوفانيس إطفاء النار بشكل جيد بعد شويه البطاطا، كان يجب عليه أن يكون أكثر حذراً...

وصرخ العم سركيس بهم قائلاً:

أتظنوننا مهملين إلى هذه الدرجة؟ أو نسيتم ماحدث لنا الشهر الماضي عندما سرق قمحنا بأكمله؟ أم تراكم نسيتم أيضاً كيف قضى هوفانيس الليل بطوله يحرس حقل البطيخ عندما حاول رجال مسلحون مهاجمته؟ وفي هذه الأثناء اجتمع كل أفراد العائلة، ستة عشر كباراً وصغاراً كانوا حول رماد آمالهم التي ضاعت. وكان الجميع يفكر الشيء نفسه أمحكوم علينا العيش في الخوف، وترقب الحوادث والسرقات، كانت هذه المحنة القشة التي قصمت ظهر البعير فقد كنا فقراء والآن أصبح البؤس يترقبنا.

لن أنسى أبداً هذه اللحظة فقد وعدت نفسي أن أغير مجرى حياتنا ولكن هل أنجح حيث فشل قبلي الكثيرون؟

ووقفت أراقب تعابير وجوه إخوتي حاولت أن أتخيل نفسي مكان هوفانيس الذي كان يعتبر رجلاً بعد أن بلغ التاسعة عشر من عمره.

أما مريم البالغة سبعة عشر فقد كانت متزوجة وتنتظر أول فرصة للحاق بزوجها في أميركا وأخيراً ـ آنا ـ وكانت الأقرب لي فقد بلغت الرابعة عشرة وأنا أتممت للتو سنواتي العشر.

توفي أبي عندما كنت صغيراً وأصبح العم سركيس المسؤول الأول عن العائلة فقد كان في أميريكا ووجب عليه العودة إلينا للاهتمام بشؤوننا وبقي

أعمامي كيراكوس وبيدروس هناك وأما عائلاتهم فكانت تعيش هنا في القرية.

كان الجميع يعمل في الحقل عدا أمي التي كانت مدبرة المنزل الرئيسية وكانت مهامها ثقيلة إذ عليها تحضير وجبات الطعام لكل أفراد العائلة والاهتمام ليس فقط بأطفالها بل بأطفال أسلافها ايضاً ورغم تعبها فقد كانت مصدر راحة للجميع وكنا نعتبرها قلب المنزل النابض وغالباً ماكنت أغرق في تأمل وجهها المشرق أبداً بابتسامة عذبة وطيبة. كنت أشعر أمامها بموجات حنان تجتاحني وكم كنت أود أن أعبر لها عما يختلج في قلبي من عواطف إلاّ أنني كنت أضبط نفسي متذكراً بأنني بلغت العاشرة وعليّ أن أدع هذه اللحظات لأولاد أعمامي الصغار وظل شعور الكبت هذا يلاحقني لسنين طويلة.

كان علي التوفيق بين مدرستي والعمل مع أخي في الحقل وكنت أحياناً أغيب أسابيع عديدة عن دروسي أثناء فصول المواسم المرهقة.

كنت متعلقاً جداً بمنزلنا رغم بساطته كالكثير من منازل القرية فقد كان مصنوعاً من الطين ومؤلفاً من صالة كبيرة تجمع العائلة وحظيرة للحيوانات وغرفة لحفظ العلف.

لم يكن بوسعك مقارنة منزلنا بمنزل النجار زاكار ناجاريان الذي كان يعتبر من أجمل بيوت مورينيغ ببنائه الحجري المؤلف من طابقين والذي كان يضم في الطابق الأول المحل الوحيد في كل القرية ألا وهو محل لبيع الحلويات اللذيذة.

كانت ابنته الصغرى ـ نفارت ـ لاتخرج من البيت دون المرور بالمحل وملء جيوبها بقطع الحلوى التي كانت توزعها بكرم على الأطفال بابتسامة مشرقة تحت أنظار أمها المتسامحة.

لاأستطيع القول منذ متى كنت أشعر بانجذاب نحو هذه الفتاة الصغيرة التي كانت تسحرني بنظراتها الثاقبة، كنت أعتبر أخاها البالغ من العمر ثلاثين عاماً مثالي الأعلى فقد كان يرتدي ثياباً على الطريقة الغربية متأثراً بالسنين الطويلة التي عاشها مع والده في أمريكا ولكنهم عادوا إلى القرية بعد أن يئسوا من إقناع والدتهم الذهاب إلى هناك.

كانت المنازل المتشابهة في البناء والمظهر تعطي (مورينيغ) شكلاً موحداً ورغم الحقول الشاسعة الممتدة إلى حدود القرى الأخرى لم يكن سكان القرية يملكون إلا القسم الضئيل منها وأما النصيب الأكبر فكان يعود للباشاوات الأتراك وماكان الأرمن سوى عمال مأجورين في هذه الأراضي.

كانت حقول القمح، الذرة، الشعير والقطن تختلط مع بساتين الكرز، المشمش، الدراق، الإجاص واللوز ودواليات العنب تحيط الحقول من كل جهة مما جعل الطبيعة متعة للنظر وبهجة للنفس ورغم وفرة المحاصيل كان القرويون يعيشون في فقر دائم إذ كانت حصة الأسد من الأرباح تذهب إلى بطون الباشوات بينما يكتفي المزارعون بقسم ضئيل يكاد لايكفي الرمق.

كان الحل الأمثل لمعظمنا هو الذهاب لبضعة سنوات إلى الولايات المتحدة والعمل هناك بغية توفير المال وتحسين الأحوال وهذا ماحدا بأعمامي والكثير من أهل القرية إلى السفر.

كان عرس هوفانيس الحدث الأهم في حياتي فقد كانت مناسبة يجتمع فيها كل أهل القرية ليرقصوا ويشربوا ويغنوا مدة طويلة وكانت هذه المدة تطول أو تقصر حسب غنى العائلتين.

نحن للأسف كنا قد خرجنا للتو من مأساة الحريق لذا لم يكن باستطاعتنا تخصيص المال للعرس سوى ماأرسله أعمامي من الولايات المتحدة وكانت أحوال عائلة ـ فارتانوش ـ خطيبة أخي ليست بالأفضل منا وهذا مايفسر سبب تفاهم العائلتين بالإضافة إلى كون الخطيبين متحابين مما ضاعف من أهمية المناسبة.

ورغم ضيق الأحوال فقد استطاع أهلي إقامة عرس لائق ومآدب شهية للمدعوين وكانت أطباق الطعام مكونة أولاً من المقبلات كالبسطرمة والسجق ومخلل الباذنجان ذي النكهة التي تنشط أكسل المعدات ثم تأتي الأطباق الساخنة كاليبرق وشطائر اللحم والجبن والبرغل مع الشعيرية وأخيراً الأطباق الرئيسية كمحشي الباذنجان والبندورة والكوسا ثم أطباق الكبة المحشية باللحم ذات النكهة الطيبة وكان المدعوون يأكلون هذه الطيبات خلال فترات النهار التي يتخللها الرقص والغناء وفي المساء يأتي دور الحلويات التي تعدّها فتيات

المنزل وآهم طبق هو صينية البقلاوة وصينية القطايف وكان يُقدم معها شاي آو قهوة.

كان عدد أفراد العائلتين حول الطاولة أربعين شخصاً يمضون النهار في شرب الأنخاب وتبادل الأمنيات وفي اليوم التالي تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي.

وكالعادة لاتمر فترة من الزمن دون أن تنبثق مشكلة جديدة وهذه المرة كانت من نصيب ـ هوفانيس ـ إذ استدعي إلى الخدمة العسكرية التي كان جميع الشباب يهابونها لقساوة ظروفها ويأملون دوماً أن يكونوا في عداد المنسيين، كان الفقراء مجبرين على الالتحاق أما الميسورون فكانوا يعفون منها بدفع البدل المحدد والرشاوي الكثيرة من أصغر موظف لأكبره وتمكننا نحن من تدبير أمر ـ هوفانيس ـ بواسطة ـ ميسروب راينكيان ـ المفاوض الأول بين الأرمن والمؤسسات الحكومية وهكذا حصل ـ هوفانيس ـ بعد دفع مبالغ طائلة على وثيقة إعفاء بدون تاريخ محدد لذا وخوفاً من أن يتم استدعاؤه مرة أخرى بعد فترة الزمن قرر الهرب إلى أمريكا لعدة سنوات على الأقل مجبراً على ترك عروسه التي كانت تنتظر مولودها البكر.

لكن أخي لم يسافر وحده فقد اصطحب معه مريم أختي الكبرى وبنات عمي فلور وزارتير وفي الحقيقة لم تكن هذه الرحلة سهلة أبداً إذ كانت تتم على مراحل طويلة أولاً حلب ثم بيروت وأخيراً مرسيليا وهناك أيضاً لايكون السفر أكيداً إذ كانت السفارة الأمريكية تشدد الإجراءات الأمنية والطبية على المسافرين وهكذا تمكنت مريم من السفر أولاً لأن السفارة رفضت طلبات ابنتي عمي فاضطرتا إلى العودة إلى القرية بينما سافر هوفانيس وحده ولم يريا هو وأختي قريتنا بعد ذلك أبداً.

مر عامان وأصبحت أنا رسمياً بعدما بلغت الخامسة عشر الرجل الوحيد في العائلة بعد عمي سركيس وكان علي انجاز مهمات كثيرة حتى زوجة أخي التي أنجبت صبياً وخالتي اللتين لم تعملا أبداً في الحقول اضطررنا إلى المساعدة والعمل معنا وهكذا ازداد دخلنا خاصة بعد أن بدأ ـ هوفاينس ـ بإرسال بعض المال لنا فتحسنت أحوالنا واعتقدنا بأن المستقبل يخبئ لنا أياماً أسعد.

● صفحة من الرواية ـ المخطوط . باللغة الأرمينية .

الجنة المفقودة

في هذه البقعة الشرقية من الأناضول بلاد (شروق الشمس) وجبل أرارات كان الطقس حاداً وظروف الحياة متماشية مع الفصول حر في الصيف وصقيع في الشتاء وكان معدل الحياة ستين أو خمسة وستين صيفاً بعد أن يكون الفلاح قد أعطى كل ماعنده من جهد ونشاط وخدمة لأرضه ولأهله كان يموت لأنه استهلك طاقة جسمه تماماً وليس بسبب مرض ما.

كل صباح كان الرعاة يجمعون قطعانهم ويتوجهون نحو الجبال بحثاً عن العشب الأخضر لكن الحيوانات كان تعود في المساء أكثر جوعاً مما كانت عليه صباحاً فتضطر للهجوم على حظيرة الأعلاف.

كان العمل يتوقف في الشتاء ولم يكن أهالي القرية يعملون سوى داخل المنازل وكنا نجتمع معظم الوقت حول النار هرباً من البرد الجليدي وكانت المدفأة تدعى (التنور) وهي حفرة كبيرة في الأرض كافية لاستقبال أعواد الحطب الضخمة وكان الفن يكمن في إصدار أقل دخان ممكن ورغم ذلك كانت الجدران تصبح سوداء وكنا في لحظات البرد الشديدة نتناول الطعام حول التنور حيث نضع الطاولة المستديرة والمنخفضة فوقه ونغطيها بشرشف سميك وطويل ونمدد أرجلنا تحتها مما كان يبعث الدفء في أرجاء جسمنا.

كانت النسوة يخبزن الخبز في التنور وكانت هذه العملية تجري مرة في الشهر بمراسم مهيبة ربما لما يحتله الخبز من مكانة مقدسة في حياتنا كونه الغذاء الرئيسي وكان شكله مستديراً ورقيقاً لدرجة أنه يحتفظ بطعمه وعناصره طوال شهر كامل. كنا نستقبل أصدقاءنا أو أقرباءنا والجميع يتحادث ويتسامر والجميل بالأمر أن أحداً لايقطع حديث الآخر بل كل واحد يسمع الثاني حتى ينتهي من حديثه وجرت العادة بأن تطرح المواضيع الأكثر خطورة وجدية الخاصة بوطننا أو بالبلاد الغريبة ثم تنتهي بالسؤال عن أحوال الأصدقاء والأقرباء المقيمين في أمريكا وفي النهاية عندما تنضب كل المواضيع يأتي دور الأحداث اليومية في القرية وهكذا كنت أكتشف من خلال الأحاديث بأن بلادنا تحكمها حكومة فاسدة وكاذبة بينما أجد ضمن عائلتي النقاء والبساطة وعندما تطول السهرات كنا نجد بيننا حتماً شخصاً يروي لنا حكاية قديمة أو أسطورة من تاريخنا القديم وكانت أمي وأختي تعدان لهذه الليالي السامرة أنواع الكعك والغريبة والفواكه المجففة وتزين الأطباق بالجوز واللوز والعنب المجفف والقضامة وقطع البستيل وكانت كل هذه الحلويات توضع كنوع من الاحتفال بالضيف مما كان يعطي لسهراتنا جواً حميمياً وشعوراً رائعاً بالألفة والكرم.

وفي ساعة متأخرة من الليل كان المدعوون يغادروننا ونبدأ الاستعداد للنوم كنا جميعاً ننام في هذه الغرفة الواسعة ونفرش الأرض إذ لم يكن أحداً في القرية يملك سريراً وكانت ملاءاتنا زاهية الألوان كالأزرق والأحمر وفي حال كنا نستضيف ضيفاً كان يقاسمنا الغرفة والملاءات أما الخدم فكانوا ينامون في الاسطبل.

اقترب الشتاء من نهايته وبدأت القرية تصحو من نومها العميق وأخذ كل منا يعمل بحماس مع بداية الربيع ولم أكن أتعب من العمل أبداً رغم قساوته بل كنت أعود في المساء مليئاً بالحيوية لاكتشافي جمال الطبيعة وكرمها وخاصة اتصالها الوثيق مع الانسان. وأثناء عملي في الحقل كنت أسمع أصوات الفتيات وهن يغنين الأغاني الفولكلورية الجميلة في الكروم وكن أحياناً يتوقفن عن العمل قليلاً ليرقصن وسط ضحكات زميلاتهن.

كانت عناقيد العنب الثقيلة المتدلية بألوانها الزاهية دليل جهد الانسان وعنايته بها كذلك الأمر بالنسبة لجميع الأشجار المثمرة.

هذا العام بدأ شكلي بالتغير صحيح بأنني لم أصبح طويلاً إذ أن جميع رجال قريتنا متوسطو القامة إلا أنني بدأت أشعر بقوة إضافية في جميع عضلاتي وبدأ خطا شاربي يثخنان وكفت أمي عن قرصي في قفاي كما اعتادت أن تفعل وأصبح بإمكاني التوجه بحديثي مباشرة إلى الرجال نظراً لما أحمل من مسؤوليات على عاتقي تجاه العائلة.

يوم السبت كنت أعود شاباً طائشاً وأذهب لملاقاة أصدقائي لمشاركتهم في تسلياتهم فقد كان هذا اليوم مخصصاً للاهتمام بأنفسنا فكنا نستحم ونلبس ثياباً نظيفة إذ كان يوجد في الساحة الخلفية من كل بيت مغطس من القصدير خاص للاستحمام. كان الرجال يرتدون (الشروال) بلون أزرق أو بني، وقميصاً من الكتان فوقه صديرية أو سترة وكانوا يضعون دوماً على رؤوسهم الطربوش الأحمر وكانت النساء أيضاً يرتدين الشراويل الواسعة وأحياناً الفساتين الطويلة وكن يغطين رؤوسهن بشال كبير، أما الفتيات فكن يلبسن الثياب الزاهية ويزين شعورهن بمناديل ملونة.

كانت الطريق الرئيسة في البلدة المؤدية إلى ميزيريه (القرية المجاورة) تعج دائماً بالناس يوم الراحة وكعادتي أثناء ذهابي لملاقاة رفاقي كنت أتوقف أمام محل ناجاريان حيث تتوقف مجموعة من الشبان والشابات ومن ضمنهم نفارت ومرة أطلت النظر فيها وكأنني أكتشفها للمرة الأولى وأحسست بنظراتي المطولة فأخفضت عينيها خجلاً كما ارتبكت أنا أيضاً وسألت فجأة: من يذهب إلى ميزيريه غداً؟ وأجاب أسادور: أنا ذاهب غداً مع دافيد تعال معنا. فقلت حسناً سأمر حالاً عند دافيد لأخبره.

وعندما وصلت إلى هناك استقبلتني أمه بدهشة:

غازاروس ماشاء الله كم كبرت؟ تفضل دافيد في الداخل. وبعد فترة عدت إلى منزلي ماراً بالينبوع الرئيسي كان في قريتنا ينبوعان لتلبية حاجات

جميع السكان وكانت المياه دائماً غزيرة طوال العام وهنا تكمن الأعجوبة إذ أن هذه البلاد القاحلة والجافة تحولت إلى جنة خضراء بفضل هذين الينبوعين هبة السماء مما كان يدفعنا دوماً إلى شكر الله لما أنعم علينا من خيرات رغم فقرنا وشروط حياتنا القاسية التي كانت تعطينا صبراً وقوة انتظاراً للمصائب المقبلة.

لدى شعبنا كان الايمان بالله ومحبة المسيح يحتلان المكانة الأولى في أفكارنا إذ أن إيماننا لم يكن يضعف أبداً وكانت الممارسة الدينية تشكل جزءاً أساسياً في حياتنا اليومية فلم نكن ننسى وبافتخار بأن بلادنا كانت من أول البلدان التي اعتنقت المسيحية عام ٣٠١ أي حتى قبل روما رغم عداوة البلاد المجاورة وهجماتها المتتالية علينا.

عند مروري قرب كنيسة قريتنا حاولت تخيل جميع الكنائس المنتشرة في بلادي وخاصة إيتشميازين المقدسة أول كاتدرائية للمسيحية بنيت عام ٣٠٣ قرب يريفان.

أما كنيستنا فقد كانت صغيرة ومتواضعة تشبه منازلنا إلا أنه في الطابق العلوي يوجد جرس وبالقرب منها كانت توجد الكنيسة الانجيلية دليل انفتاح شعبنا على الحضارات الغربية وخصوصاً هؤلاء الذين سافروا إلى الولايات المتحدة أوالذين ذهبوا إلى مدارس ألمانية أو سويسرية فقد كانوا يتأثرون بهذه الطائفة ولم يكن هناك أي مانع من ممارسة طقوسهم إذ في النهاية كان الأرمن يريدون إثبات أنه رغم عراقة تقاليدنا وتأصل جذورها فإنهم لم يرفضوا التقدم الحضاري والانفتاح الغربي وعندما عدت إلى المنزل وجدت أمي وأختي منهمكتين في العمل فسألت أمي:

ـ مايريك، بما أن لدينا ضيوف غداً هل تريدين أن أساعد آنا؟

ـ غازاروس أنت نور عيوني! أحسنت! أحسنت ياولدي وبعد أن أطرقت قليلاً في العجينة التي بيدها قالت

ـ لا لا شكراً، اذهب وتنزه.

في هذا الطقس الربيعي الجميل كان الجميع يضع الكراسي أمام مصطبة الباب يتسامرون ويتحادثون ناسين تعب الأسبوع وكانوا يدعونني لمشاركتهم

الحديث إلا أنني لم أكن ثرثاراً بطبعي كبقية أفراد عائلتي وهكذا كنت أتابع طريقي رامياً السلام على جميع المعارف.

كان يوم الأحد بحق يوم الله إذ كانت جميع الأعمال تتوقف تماماً حتى النساء كن يجهزن الطعام مساء يوم السبت وكان الرجال يرتدون قمصاناً بيضاء والنساء يهتممن أكثر بمظهرهن إذ كن يتزين بالحلي الذهبية والملابس الملونة وكان الجميع يتوجه نحو الكنيسة ملتقى سكان القرية.

بعد طعام الغداء توجهنا أنا ورفاقي نحو «مزيريه» كما اتفقنا وكانت الطرق مليئة بالعائلات التي تتنزه وعندما دخلناها كانت دهشتنا كبيرة أمام هذه العدد الكبير من المحلات التجارية والبيوت الحجرية وكانت المؤسسات الكبيرة تؤكد أهمية المدينة إذ كان يوجد فيها ثلاث مستشفيات اثنان منها أميركي وألماني، جامع كبير، كنيسة انجيلية ألمانية وثلاثة كنائس للطوائف الثلاث الكاثوليكية، الأرثوذكسية والانجيلية.

وكانت مدينة خاربيرت تطل على مزيريه من الأعلى وقد سميت خاربيرت لما فيها من أسوار وقلاع حجرية وكانت أهمية مدينة خاربيرت لاتقل عن سابقتها إذ كان فيها «المبنى اللاتيني» حيث كان يجمع كنيسة ومدرسة ومستشفى في آن واحد وكان يدرس فيها أساتذة أرمن تحت إشراف الكهنة الفرنسيس، كما كانت توجد المدرسة الألمانية والتي تستقبل الأيتام دون تمييز بين أصلهم أو دينهم ولكن المنشأة الأكثر أهمية هي «الثانوية الأميريكية» التي كانت تمولها الولايات المتحدة ويديرها أرمن وكان يؤمها كل الطلاب من القرى المجاورة الذين أنهوا دراستهم الابتدائية ويودون متابعة تحصيلهم العلمي وكانت شهرتها كبيرة لدرجة أنه كان يأتيها طلاب من بلاد مجاورة. وكان للأتراك أيضاً منشآتهم في هاتين المدينتين إلا أن المحلات المهيمنة والتجارية كانت كلها للأرمن ورغم ذلك فالحكم الأعلى للأتراك.

كان يمكنك التمييز في الشوارع بين التركي والأرمني من النظرة الأولى أي من ثيابهم. فالأتراك رجالاً ونساءً يلبسون ثياباً فاقعة الألوان وكانت بناتهن

يرتدين الحجاب لدى بلوغهن الخامسة عشرة وهكذا كانت الاختلافات كبيرة، دينياً، تربوياً واجتماعياً.

كان عدد الأتراك كبيراً في مزيريه وخاربيرت ولكن في القرى لم يكن الحال كذلك إذ في قريتنا كان يوجد ثلاث عائلات تركية بين مئة وخمسين عائلة أرمنية، وهذه العائلات لم تكن تشكل جزءاً من القرية سوى عائلتي خليل أفندي، وهو رجل مثقف وخلوق وكرد علي أفندي وهو كردي أكثر من تركي، متواضع وذو علاقات طيبة مع جميع الأهالي.

أما محمود آغا فكان شيئاً مختلفاً إذ كان يسكن بعيداً عنا مع ابني أخيه أحمد ومأمون وكانت تصرفاتهم مريبة بعض الشيء إذ لم يكونوا يترددون على القرية إلا لبيع اللبن الذي لايحتاجه أحد والسؤال دون خجل عن بعض الخبز أو البيض إلا أنه كان لمحمود آغا علاقات وثيقة مع الحكومة والشرطة فقد كان يدعي أنه هنا لحماية السكان من اللصوص وقطاع الطرق ولكن وجوده في القرية كان موضع ريبة وشك ولم يكن أحداً يرتاح إليه أو حتى التحدث معه لهذا كان يخبئ في قلبه حقداً تجاهنا وغيرة وحسداً تجاه أغنياء القرية فكان لايتردد في إغاظة واحتقار كل من ليس تركياً ومع أنه التركي الوحيد العدائي لنا كنا نشعر جميعاً بأننا لسنا أحراراً بل محكومين على أرض أجدادنا الكائنة منذ قرون طويلة أي قبل أن يخلق ظل تركي ومع ذلك وجدنا أنفسنا تحت نير احتلال ظالم الذي كان يطلق اسم (كيافور) أي كافر على كل أرمني. والذي حاول محو حضارة بأكملها من العراقة لشعب حر وكريم لم يكن يود سوى العيش بسلام.

بدأت الأحداث من خلال عدد من أعضاء الحكومة الحسودين والمملوئين حقداً وكراهية نحو الأرمن وكان ذلك عام ١٨٩٥ و ١٨٩٦ حيث ارتكبت المذابح بأمر من السلطان الأحمر عبد الحميد والتي طبعت في قلب وذاكرة كل ارمني مرارة والماً ثم جاءت مذبحة كيليكيا مما أثار الرعب في نفوس الأرمن وأتذكر جيداً عندما وصل النبأ إلى قريتنا أرسلتني أمي بسرعة لإبلاغ هوفانيس بأن يختبئ لأن الأتراك كانوا يترصدون الرجال والشباب أولاً.

وقرر العم سركيس الذي عاد منذ فترة قليلة من أمريكا أن يلتحق بالفدائيين في الجبال الذين قرروا الموت دفاعاً بدلاً من الذبح كالخراف ولكن سرعان مالوحقوا من الأتراك فاضطروا للانسحاب إلى ـ فان ـ ثم ـ كارين ـ وهناك تم القبض على عمي مع مجموعته وزعيمهم ـ آرام آراميان ـ الذي أعدم وبعد فترة ونظراً لعدم وجود أسباب كافية لحجز الباقين أخلي سبيلهم وعادوا إلى عائلاتهم لمتابعة أعمالهم وعادت الأمور إلى مجاريها ووجب علينا السكوت والنسيان ولكن إلى متى؟

نيسان

١٩١٥

كانت أوروبا تخوض الحرب التي وصلت أصداء مدافعها حتى مورينيغ في نهاية صيف ١٩١٤ وأصبحت سبباً لمناقشات حادة وقلق بالنسبة للكبار الذين كانوا يتخوفون من نتائجها على البلدان الأخرى ونحن أيضاً الشباب لم نكن أقل قلقاً من الكبار واغتنمنا فرصة وجود معلمنا القديم في القرية وأمطرناه بالأسئلة:

«ياأولادي، ليس فقط بلاد أوروبا معنية بهذه الحرب ولكن حتى البلدان الأقل أهمية كبلدنا، لاتعتمدوا على الحدود لتتصوروا بأن نتائجها لن تعكس علينا فقد أثبت التاريخ بأن الأقليات والبلدان الصغيرة هي التي تدفع تكاليف الحرب وعلينا نحن الأرمن أن نبقى حذرين نتجنب كل خطوة خاطئة وأي فخ قد ينصب لنا»

ولم يمر وقت طويل حتى صحت توقعات معلمنا فقد أصبحنا نحن أيضاً معنيين بالحرب وعلى كافة الطرق كنا نرى جنوداً مسلحين كان يزداد عددهم شيئاً فشيئاً وفي نهاية أيلول عسكر الجنود في المنطقة وبعد فترة صدر قرار من القسطنطينية بالتعبئة العامة.

كان يتم تجميع الجنود في سهل (أورلابارلار) بين مورينيغ ومزيريه وهم غير

مزودين بلباس عسكري ولابأية معلومات عسكرية فقط كانوا يعلمون بأنهم ذاهبون إلى جبهة كارين لمواجهة العدو الروسي.

وانتهى الصيف مثقلاً بهذه الأحداث وكانت المعلومات التي جمعناها متناقضة ومبهمة ولكن انتهينا إلى نتيجة واحدة، ألا وهي أننا في حرب بجانب الألمان ليس ضد روسيا فقط ولكن ضد فرنسا وانكلترة أيضاً مما زاد من ضيقنا وقلقنا فقد كنا نعتمد على مساندة هاتين الدولتين لقضيتنا كوننا أقلية ولكن بسبب هذه الحرب ضاعت آمالنا أدراج الرياح.

جاء الخريف وبدأت بالحصاد في حقلنا القريب من الطريق العام وقد أثار انتباهي مجموعة من الرجال بقيادة ضابط شاب يستريحون على حافة الطريق وهم يتناقشون. وحينها شاهدت لحام المدينة السيد إيريام مرتدياً ثياباً جديدة ولفت انتباهي بأنه لم يكن يحمل أي شيء معه لازوادة ولاسلاح فذهبت إليه وسألته:

سيد ـ إيريام ـ هل صحيح بأنكم تذهبون إلى كارين هكذا فارغي اليدين؟

فتطلع إلي بعد أن عرفني ولم يجبني بل ابتسم ابتسامة واثقة وأدار رأسه.

وفي المساء نفسه عندما عدت إلى المنزل لم أفاجأ كثيراً عندما وجدت السيد ـ إيريام ـ يزور عائلتنا ولم أستطع منع نفسي من سؤاله بلهفة صبيانية: كيف جرى وأخلوا سبيلك؟ فأجابني: «بكل بساطة وعدني الضابط بإخلاء سبيلي حين وصولي إلى مورينيغ لقاء قطعة ذهبية وهذا مايفعله كثيرون على أية حال».

فقد كان كثيرون يشترون حريتهم مقابل قطعة ذهبية والضباط لم يكونوا يرفضون هذا المورد الإضافي نظراً لضآلة رواتبهم ولكن ذلك لم يمنع موجة الهاربين الذين كانوا بالآلاف.

اقترب الشتاء من نهايته في هذا العام ١٩١٥ ـ وجاءنا من مزيريه السيد ـ أرداشيس مانوكيان ـ كاتب عدل القرية وأعلمنا بأن فرقة من الجنود سيعبرون قريتنا وعلينا إطعامهم بعض الخبز وذلك قرب الينبوع الرئيسي وتجمع أهل القرية لرؤية هؤلاء الجنود الذين كانوا بلباس مدني يحيط بهم جنود أتراك من كافة الجهات وكان الإعياء باد على وجوههم وقد استقبلوا قطع الخبز

والفواكه بلهفة كبيرة وكان من بينهم أربعة أرمن من قرية ـ سيباردا ـ وبعد لحظات سمع صوت إطلاق النار ورأينا الجنود الأتراك يجرون ثلاثة رجال حاولوا الهرب مستفيدين من فرصة الفوضى وحالاً أمر الجنود الجيمع بالتحرك فرثونا لحال هؤلاء البائسين متمنين لهم التوفيق بالعودة السريعة.

عند عودتنا أنا وأختي إلى المنزل أحسسنا لحظة دخولنا بوجود غريب وفعلاً قفز من أحد الأركان رجل وركع عند أرجلنا وبدأ يتوسل وينوح بلغة تركية سيئة ففهمنا أنه كردي وأنه قد فر من مجموعته وظل يتوسل على طريقة الأتراك والأكراد المعهودة حتى سمحنا له بقضاء ليلته في المنزل وفي الصباح الباكر غادرنا حتى دون أن يشكرنا وبعد أيام جاءنا أرمني وطلب منا أن نستضيفه ليلة حتى يتمكن من العودة إلى أهله في اليوم التالي.

جاء الربيع حاملاً معه أنباءً مفجعة إذ وصلنا خبر مذبحة ٢٤ نيسان التي ارتكبت بحق نخبة المثقفين والمفكرين الأرمن وبدأ الخوف العام ينتشر في جميع القرى والمدن ولم تعد الحرب تخيفنا بل هذا الغضب الكتوم والكره الأعمى النابع من صميم الأتراك الذي أوصلنا لأحداث لم يُسمع بها من قبل.

جُمع من المنطقة ثلاثة آلاف شاب أرمني كجنود وذلك للعمل في بناء طريق بين برشان وحابوصي وبعد فترة اقتيدوا باتجاه مدينة ديار بكر واختفوا جميعهم دون أي أثر حتى قريتنا أخليت من رجالها وأصبحت خاوية ولم تمض فترة طويلة حتى جاء إلينا أتراك المدن الأخرى وكأنهم كانوا ينتظرون رحيل الرجال ليأتوا ويستقروا هنا وأصبح محمود آغا يكشف علناً عن شعوره الصريح نحونا وأصبحت القرية المحصورة الآن على النساء والشيوخ تحت رحمته تماماً وهذا ماكان يبتغيه منذ البداية.

وهكذا أرسل في طلب ضباط شرطة وذلك لتفتيش منازل القرية وجاء هؤلاء متذرعين بطلب رسمي من الجهات المسؤولة يأمرهم بمصادرة جميع الأسلحة التي بحوزة المدنيين وهكذا امتثل أهل قريتي للأمر دون أية مناقشة حتى أعمامي سلموا بنادقهم ودافعهم إلى ذلك، رغبتهم العميقة بالسلام معتقدين بأنهم بإطاعتهم للأوامر يجنبون أنفسهم المتاعب والمصائب على أية حال ماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك؟ ولكن الضباط ادعوا بأن عدد

الأسلحة غير كافٍ وأن الأهالي يخبئون بالتأكيد بعض البنادق في بيوتهم وهكذا بدأوا بتفتيش المنازل ولكن تفتيشهم كان بعيداً تماماً عن هدفهم الأساسي ألا وهو العثور على الأسلحة إذا سرعان ماشنوا حملة تخريب معبرين بذلك عن حقدهم على الأرمن، حملة تجاوزت كل الحدود إذ لم يكفيهم كل الخراب الذي أعاثوه في القرية فقد كانوا يسقطون خراطيش بنادق في الحقول ويستعملونها كدليل على وجود أسلحة وهكذا يبدأون من جديد أعمالهم العدوانية ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يخفون سلاحاً في حديقة منزل ما ثم يعدمون أصحابه مدعين أنهم أخفوا الحقيقة عن الحكومة ولم يكن لوحشيتهم أي حد إذ كانوا يجمعون أولاً رب العائلة ثم زوجته ويقتلوهما أمام أعين أطفالهما بطريقة وحشية كحرق الأجساد بحديد حار ثم اقتلاع الأسنان والأظافر وكأنهم يروون غليلهم وتعطشهم للدماء.

ولم يعد هناك مجال للشك كنا أمام مجازر جديدة ولم يكن يوقفهم أي شيء ولكن لماذا ياربي؟ ماهي حجتهم هذه المرة؟

ووردت الأنباء مؤكدة بأن هذه الحال منتشرة في جميع القرى وفي مورينيغ غادرنا الضباط أخيراً بعد أن اقتادوا جميع رجال القرية وذلك لزجهم في السجن وكان أعمامي بالتأكيد ضمن هذا الفريق ولحسن الحظ لم يعيرني الضباط اهتماماً نظراً لقدي الصغير ولوجهي الطفولي خاصة بعد أن حلقت شاربي بناء على نصيحة أمي.

وبالقرب من ـ كيري ـ جمع الأهالي بأكملهم رجالاً، نساءً وأطفالاً وطردوا من منازلهم ورحلوا إلى مصير مجهول وكان الجنود الأتراك يهاجمون البيوت كجوارح جائعة لتجمع كل ماتبقى من أطفال وشيوخ يساعدهم بذلك أتراك مدنيون.

استغلت أمي فرصة الفوضى العامة وهربت مع أختي ـ آنا ـ إلى قرية ـ هوسينيغ ـ لتخبئها عند أحد الأتراك الذي كانت تربطنا معه صداقة قديمة وذلك ليطمئن قلبها على مصير أختي وأثناء غيابهن هاجم منزلنا مجموعة من الجنود وأخذوني إلى الساحة العامة حيث جمع شيوخ وشباب القرية المتبقين وتملكني خوف شديد خاصة عندما فكرت بأنني لن أرى أمي واختي مرة

أخرى إذ سيأخذونني أنا أيضاً مع الجميع ثم أعدم كغيري وأخيراً حان دوري وأحسست بأني فقدت حواسي وفجأة برز من الجمع آغا ـ هوسنيغ ـ وتمتم ببضع كلمات للضابط الذي توقفت نظرته علي لحظات طويلة ثم بعد تردد قال لي: أنت اخرج من الدور»

سمعت هذه الكلمات وكأنني في حلم وهكذا أُنقذت حياتي للمرة الأولى.

الجحيم

بينما كنت أعود إلى منزلي كانت تعد جريمة بشعة، فقد اقتيد جميع رجال ـ مورينيغ ـ إلى ـ مزيريه ـ وسجنوا مع غيرهم من المعتقلين وكانت النساء تأخذن بعض الخبز وعندما ذهبن لزيارتهن في اليوم التالي وجدن السجن فارغاً وقيل لهم بأنهم أخذوا إلى مناطق متفرقة للقيام بأعمال للبناء.

ورأيت أمي تعود مع خالتي ـ تورفاندا ـ زوجة عمي سركيس وكانت الاثنتان تبكيان بمرارة إذ لم يعد لنا حول ولاقوة وأصبحنا تحت رحمة طاغية لايوقفه أي شيء فقد أصبح الانسان يعامل كحيوان وفتحت أبواب العنف الدامية.

وقد استطاع العجوز ـ موشيغ دونا بيديان ـ الذي نجا بأعجوبة أن ينقل لنا مارأته عيناه من جرائم وحشية فقد جمع الجنود أثناء الليل جميع المساجين ثم أخرجوهم وهم يضربونهم بأعقاب البنادق إلى خارج المدينة باتجاه الغرب وجعلوهم يسيرون طوال الليل عبر الجبال حتى وصلوا منطقة تدعي (هار أورلي) وهناك بدأوا بإبادتهم حسب خطة مدروسة أولاً أطلقوا النار على المجموعة بأكملها ثم أجهزوا عليهم فرداً فرداً طعناً بالسيوف والفؤوس وأمام هذا الرعب أراد الأرمن فك وثاقهم ولكن بقيت أسنانهم مسمرة ولم يسع

لشفاههم سوى تلاوة «أبانا الذي في السموات...» وهم يقعون واحداً تلو الآخر وبقيت أيديهم مفتوحة نحو السماء.

استطاع ـ موشيغ دونابيديان وابن أخيه ـ أنترانيك ـ فك رباطهم أثناء إطلاق النار وهرب ـ موشيغ ـ بينما لم يقوَ أنترانيك على اللحاق به لإصابته برصاصة وتمدد بلا حراك بين أكوام الجثث وعند طلوع النهار كان الموت مخيماً على الوادي الذي لم يعطَ سوى مشهد الوحشية القصوى أمام عيني ـ أنترانيك ـ والله. واختفى هكذا عمي بيدروس وعمي سركيس الذي رباني وكان بمثابة والدي وأما صديقي أنترانيك فقد عثر عليه في الجبل مقتولاً تحت شجرة حيث استطاع جر نفسه إليها لكن قطاع الطرق عثروا عليه وبدل أن يساعدوه جردوه من ثيابه وعذبوه مرة أخرى. وخيم صمت جنائزي على مورينيغ واستمر الأحياء في انتظار كئيب متوقعين الانفجار في أية لحظة.

أصبحت أنا رجل العائلة الوحيد أحمي أمي، خالتي، زوجة أخي والأطفال الصغار وبقيت أختي ـ آنا ـ في ـ هوسينيغ ـ عند الآغا دون أن نعلم أي مصير ينتظرها وخوفاً من تبعثر أفراد العائلة أخذت أفتش على أية وسيلة لحمايتها ولكنني كنت بأعوامي السبعة عشر الأكثر عرضة للخطر.

وفعلاً هاجمتنا ذات ليلة فرقة من الجنود الأتراك، هذه المرة هربت نحو هوسينيغ عالماً بأنهم لو قبضوا علي لن تكون لي أية فرصة للنجاة ولكنهم قبضوا علي إذ كانت القرية محاصرة من جميع أطرافها واقتادوني نحو رئيسهم: «كان هذا الصبي يحاول الهرب» فحاولت الدفاع عن نفسي «أفندي، كنت أطعم حيوانات الآغا التي بقيت دون غذاء».

ولكنهم لم يستمعوا إلي بل جروني مع الآخرين مع بقية المجموعة ووجدت نفسي مع العجوز ـ دونابيد ـ في مدرسة القرية التي تحولت إلى سجن ونظر إلي عم ـ دونا بيد ـ وابتسم ابتسامة شاحبة:

«أترى يابني أنت شاب جداً وأنا عجوز جداً وكلانا في نفس الموقف لانستطيع أن نفعل أي شيء سوى تسليم أمرنا لله».

وكان يلوح لي في الظلمة وجه أمي وأختي مما كان يزيد ألمي وعذابي.

وفي الصباح الباكر دخل غرفتنا جنديان وأحاطا بالعم دونيغ وبدأا باستجوابه بطريقة ماكرة محاولين بذلك معرفة من مِن الرجال بقي في القرية وأعجبت بشجاعة العم ـ دونيغ ـ الذي دخل لعبتهم ولم يبح بأي شيء في النهاية وبعد أن يئسوا منه أخذوه معهم لمصير معلوم مسبقاً وبقيت وحدي أفكر فيما قالوه إذ أوضحوا بأن مورينيغ ستحتل بأكملها وسترسل البقية من سكانها الأرمن إلى مناطق متفرقة.

وعاد الجنديين لأخذي فقلت لهم: بما أنكم سترحلون جميع سكان القرية دعوني التحق بأمي وأختي».

لم يجيباني بل رمياني بقوة خارج السجن. بادىء الأمر مشيت بخطى مترددة ثم مالبثت أن ركضت نحو منزلنا وارتمت أمي بين ذراعي ولم تستطع حبس دموعها بعد أن اعتقدت بأنها خسرتني للمرة الثانية ولم تكف عن عناقي وتقبيلي وكم كان عذابي كبيراً لرؤيتها هكذا ولم يكن بإمكاننا البقاء على هذه الحال إذ كان علينا التجمع في ساحة القرية تأهباً للرحيل وكان من الصعب علي التصديق بأننا سنخطوا عتبة منزلنا الغالية للمرة الأخيرة.

رأيت جيداً ماحل بالمنزل المجاور منزل النجار زاكاريان الذي بعدما تلقى أمر لإخلاء جميع أفراد عائلته وانتظر الجنود الذين هاجموا منزله بعد فترة قصيرة وفتشوه غرفة غرفة ولم يعثروا سوى على جثة العم ناجار الذي اختار الموت طواعية وشنق نفسه في سقف الغرفة بعد أن ارتدى أجمل ثيابه وفتح الكتاب المقدس أمام عينيه المطفأتين وبدأ الجنود حملة النهب وعثروا على الذهب بسهولة ولكنهم أخفقوا بالعثور على المخبأ السري لكنزهم واقترح محمود آغا أخذ بناته الثلاثة وزوجة ابنه كخادمات ورهائن عنده تاركين السيدة ـ فارتير ـ زوجته بمفردها بعد أن وعدوها بالعودة قريباً والاهتمام بأمرها.

كان من الصعب علي التصديق بأن التاريخ العريق، تاريخ آبائي، أجدادي وكل أسلافي قد توقف فجأة. فقد عاشوا هنا على هذا الأرض واستقروا فيها منذ دهور سحيقة، بنوا عليها حياتهم وبيوتهم وشهدوا

تفتح سعادة قاسية، عميقة كصورة صخورها كل شيء كان صعباً بالنسبة لهم ولكن ألا نتعلق بالأشياء الصعبة والتي استنفذت منا جهداً وزمناً طويلين، إن تعلق أجدادنا بالأرض يرتبط بشدة بالصعوبات والمتاعب التي لاقوها فقد كانت لحظات السعادة من القلة بحيث اعتادوا على الصبر الطويل.

اليوم وفي هذه اللحظة بالذات علينا الرحيل إلى الأبد وأن نترك كل شيء وراءنا دون أمل، دون أن ننتظر شيئاً إذاً ماذا يبقى لنا؟ ماقيمة الأشياء الباقية أو بالأحرى ماقيمة الحياة نفسها؟ كانت هذه الأفكار تدور في رأسي مفقدة صوابي واجتاحني الياس والقنوط، أردت المقاومة، لم أكن أود الرحيل بل العثور على أية وسيلة تغير مجرى كل هذه الأحداث. لماذا أنتظر ولاأقاوم مراهناً بحياتي التي على أية حال لم يعد لها قيمة؟ لم لاأضحي بها بثمن غال؟ إن صورة الموت حاضرة ولكن هل ساقوى على مجابهتها؟ لم أعدأملك بندقية، إن شحذت فأسي أستطيع الخروج بها وأقتل أول تركي تقع عيني عليه في وضح النهار وسيطلق بدوره النار علي وهكذا أتحرر وأعيد الدماء إلى الأرض التي وهبتني إياها.

تعلقت أمي وخالتي بي وأحست بدموعهما تغسل وجهي، شدتاني إلى داخل الغرفة حيث أوقعت نفسي على الأرض شاعراً بالهزيمة وبضعف سني.

أعادتني أمي إلى الواقع وهي تهزني قائلة:

غازاروس، غازاروس أرجوك عد إلى وعيك وقم، علينا أن نزور الحج ـ ريلان آغا ـ فهو يرغب بأن تقود ابقاره إلى ـ هوسينغ ـ وقال بألا تخشى شيئاً وأنت بصحبته، إن العناية الإلهية هي التي أرسلته، عندما تجد نفسك في ـ هوسينغ ـ تستطيع الذهاب إلى الآغا حسين.

نهضت وتركت أمي، خالتي وزوجة أخي وأولادها، افترقت عنهم دون أن أدري إذا ماكنت سأراهن مرة أخرى. ولكنني أطعت أمي التي أقنعتني بأن الفرصة مواتية وعلي أن أستغلها وأما اللقاء ثانية فهذا مايجب أن ندعه في يد الله. وذهبت مع هذا الآغا العجوز الذي طالما حضر

لنجدتنا جاراً أبقاره امامي. لم يوقفنا أي دركي وهكذا وصلنا دون صعوبة إلى هوسينغ منهياً مهمتي، توجهت بسرعة نحو منزل حسين آغا الذي كنت أعرفه تمام المعرفة لما عملت عنده غالباً.

وهناك استقبلت بنفس الحفاوة التي كنت استقبل بها في السابق ووعدوني بتوظيفي بأسرع وقت ممكن ووفى صاحب المنزل بوعده وأرسل في طلبي كان رجلاً ثرثاراً ذو وجه طروب وشارب رمادي طويل هابط:

خاطبني قائلاً: غازاروس لاتقلق أبداً في هذا المنزل وعلى أية حال لست الأول الذي استقبله وعدد لي جميع أفعاله الصالحة وأردف قائلاً أنت لاتعلم بالتأكيد أنني اهتممت بأمر ابنة من بنات عمك كيراكوس وأما بالنسبة لأختك لاتشغل بالك مطلقاً فقد أودعتها بيد عائلة أمينة. كما أنني استقبلت ـ أنا هيد ـ ابنة سربوهي دير ديريان ـ ولكن هذا طبيعي نتيجة العلاقة الحميمة التي تربط عائلتينا وأني لمؤمن بأنها ستكون زوجة ممتازة لابني حسان الذي سيتم قريباً أعوامه التسعة عشر. وحتى الأثاث الذي تراه هنا يعود للمسكين ـ سيروب فارتابيديان ـ الذي مات، وضعوه كأمانة عندي لحين عودة أفراد عائلته.

كنت أستمع مرتبكاً هذه الاقتراحات أوقفت نظري مطولاً على كرسي هزاز جميل من صنع يد السيد ـ سيروب ـ نفسه ولم أدهش كثيراً من أقوال حسين أغا لأن هذا الأخير لطالما استخدم عمالاً أرمن فكان من الطبيعي أن تربطه بهم علاقات ودية ولكم كان الفرق شاسعاً بين واقع الحقائق والتصرف المنفرد لهذا الرجل الذي كان يستحق عرفانا بالجميل ولو كان رجل واحد بين عشرة أتراك مثل حسين آغا ما كانت الأحداث تأخذ منحى آخر.

كانت المهام التي أوكلت إلي متعلقة بالأعمال الداخلية في المنزل مما حجب عني أي اتصال وكنت في قلق دائم عما يجري خارج هذه الجدران وخصوصاً عما آلت إليه أحوال عائلتي.

وكم كان انفعالي كبيراً عندما اقتادوا نحوي آخر أطفال عمي سركيس، الصغير آسادور الذي حالما رآني ركض مرتمياً بين ذراعي محاولاً أن يروي لي

بطريقته الصبيانية وبعبرات مخنوقة كيف أتى إلى هنا، بعد مغادرتي مورينيغ جُمع كل أبناء القرية مجبرين على ترك كل شيء دون أمل بالعودة سامحين لهم فقط بحمل «بقجة» واقتيدوا تحت الحراسة إلى ـ كاسيريغ ـ وهناك اختلطوا مع أبناء القرى الأخرى مؤلفين بذلك مجموعة ترحيل كبيرة إلى مصدر مجهول.

كثير من الأمهات اللواتي أيقنّ النهاية المحتومة أهدين أطفالهن لنساء أتراك على أمل إعطائهم فرصة حياة، واقترحت عائلة تركية على الخالة ـ تورفاندا ـ الاحتفاظ بالصغير ـ اسادور ـ وكان على الأم والطفل أن يفترقا بألم كبير ولكن في حينها لم يتوقف. أسادور ـ عن البكاء مطالباً بأمه وبعد أن عيل صبر هذه العائلة منه اقتادته نحوي لأتحمل مسؤولية إرجاعه من حيث أتى.

ماذا كان بوسعي أن أفعل وأنا في وضعي الحرج سوى أن أصحب أسادور إلى الطريق المؤدية نحو كاسيريغ وبعد أن ضممته مطولاً وحملته مئات التوصيات والإرشادات رأيت ظله الصغير يبتعد ويختفي؟ كانت هذه اللوحة بمثابة رمز ألم شعبنا، كيف كان بوسعي أن أتخيل أني وبين كل هذه الأعداد من الأعزاء الذين ابتلعتهم الصحراء أن ألتقي مجدداً بأحبائي ومن بينهم أسادور.

في اليوم التالي جاء أحد أبناء الآغا حسين المدعو حسان وتسمر أمامي قائلاً: لقد منعت الحكومة التركية المواطنين الأتراك من استقبال أو حماية أي أرمني تحت أسقف منازلها. إن وجودك هنا يعرضنا لخطر عقوبة شديدة، إن أبي أنقذك من الورطة مرتين أما الآن عليك الرحيل. فأبناء قريتك موجودون في كاسيريغ اذهب وانحشر بينهم. وبهذا ضاع أملي بإيجاد ملجأ ولم يكن لدي أي احتمال آخر بعد طردي من البيت ووقفت متردداً أي طريق أسلك ودفعتني رغبة بالعودة إلى قريتي مورينيغ قبل تحديد وجهتي نهائياً وفي الطريق قابلت صديقي باركيف إزميريان الذي انضم إليّ قائلاً بأن الآغا طرده هو أيضاً وليس لديه أي مخرج سوى الانضمام إلى فرقة الترحيل في كاسيريغ.

وسألت باركيف عن مورينيغ فقال بأنه كان موجوداً وقت الترحيل عندما جمع الأهالي وليس بيدهم سوى زوادة صغيرة لاتكفي عناء الطريق الطويل الذي كان مترصداً لهم.

ـ باركيف ألديك أخبار عن عائلتي وماحل بها؟

ـ نعم رأيتهم جميعاً وعندما علمت أمك بأنني ذاهب إلى هوسينيغ أخبرتني عن وجودك هناك. كم أظهرت شجاعة وأمل فائقين في هذا الموقف المؤلم فقد كانت تحاول رفع معنويات الجميع كما كانت تسأل كل قادم من هوسينيغ عن أخبارك وأخبار أختك.

وبينما قرر باركيف الذهاب إلى كاسيريغ توجهت نحو مورينيغ وافترقنا خوفاً من اي لقاء مع الدرك وأخذت طريق الحقول مبتعداً عن الطرقات العامة وتوقفت مذعوراً بعد لحظة أمام مشهد الحقول الممتدة أمامي فقد كانت جرداء تماماً ولم يبق شيئاً من الزراعات أو أي شيء يقطف ويؤكل وكان الجراد منتشراً بالآلاف في كل مكان جاعلاً الطبيعة مقفرة ـ لم يكن يكفي إذاً في بلد الظلم والوحشية بأن يخضع الشعب لمصائب متكررة وها الآن كارثة طبيعية تحل به.

ولكن أليس هذا إشارة من الله، عقاب مثلاً؟ هذه الأرض التي كانت تثمرها أيادي شعبي أتكون عقيمة في أيدي المعتدي الذي طرد أهلها منها؟

عند دخولي مورينيغ وقفت مشدوهاً عند أول بيت شاهدته كانت أبواب جميع البيوت مفتوحة ولم يكن هناك أي أثر لكائن حي وكانت الكلاب الضالة تملأ المنطقة، جائعة منهكة، نائمة أمام أبواب أسيادها، كان بعضها يعوي عواءً ممزقاً بينما البقية التعبة لم تكن تقو سوى على اصدار أنات باكية. ونزلت إلى النبع السفلي وهناك تراءى لي مشهد آخر، فقد اصطحب الأتراك جميع الحيوانات تاركين فقط صغار الحمير التي شكلت صفاً واحداً لتدور ببطء حول النبع مصدرة آناتها الشاكية لفقدانها أمهاتها وأسيادها وكان الموت يحصدهم واحداً تلو الآخر. لم يعد أحداً يعيش هنا، قريتي، منزلي، أرضي، بدت ميتة دون روح وأنا لم

أكن سوى شاب صغير مع وقف التنفيذ كشبح هائم في المنطقة.

كنت غارقاً في أفكاري عندما فاجأني صوت خطوات واختبأت بسرعة لم أكن وحيداً إذاً بين هذه البيوت؟ ورأيت خليل أفندي تركي قريتنا مصطحباً زوجته وشابة أرمنية خارجين جميعاً من منزل الأخيرة حاملين معهم ثياباً وأشياء عديدة. كانوا يودون دون شك إخفاء كل هذا قبل أن يستولي عليها الدرك أو قطاع الطرق الذين يمرون من هنا. ونادتني المرأة التي شاهدتني قبل أن أختفي:

ـ ماذا تفعل هنا وحيداً أيها الشاب؟

لم يحمل صوتها أية نبرة تهديد ولهذا تشجعت على القول.

ـ لقد أجبرت على ترك منزل الآغا أرجوك هل بإمكانك أن تستخدميني عندك سوف أكون متكتماً جداً.

ـ هذا غير ممكن أجابني التركي، أنصحك بمغادرة هذه القرية بالسرعة الممكنة، حاول أن تجد فرصتك في مكان آخر. وبينما كنا نتكلم لاحظت خلف محدثي امرأة على سقف أحد البيوت مختفية بسرعة وكأنها تريد إعلامي بوجودها وعندما رحل الأتراك توجهت نحو المنزل الموصد وطرقت الباب بهدوء وبعد فترة فتحت إحدى الدرفتين سامحة بدخولي. لم أستطع التوغل كثيراً فقد كانت الحجرة مليئة بالناس والحيوانات وهم جالسين في العتمة وكان من الصعب القول من كان الأكثر اندهاشاً أنا الذي اكتشفت هنا العديد من المعارف أم هن اللواتي صدمن عند رؤيتي أتنزه بحرية في القرية المهجورة.

سألني صاحب المنزل «حجي ستيبان» والعم «أوسديغ» كيف وصلت إلى هنا وعما يجري خارجاً ظناً منهم بأني أعلم شيئاً لأنهم منذ لحظة اختبائهم بين هذه الجدران لايعلمون تماماً ماذا ينتظرهم غداً.

وبينما كنا نتحدث أحسست فجأة بأن أحداً يتمسك بقدمي، أخفضت عيني ورأيت ـ طرقوم ـ ابن أخي البالغ ثلاث سنوات والذي كان يحاول ضمي بكلتي ذراعيه ضممته بشدة وزممت شفتي لأخفي عواطفي الجياشة وتوجهت نحو أمه الجالسة بين النسوة:

ـ كم أنا سعيدة لرؤيتك ياغازاروس ولكنني اعتقدتك بأمان عند الحج حسين ماذا جرى حتى أتيت إلى هنا من جديد؟

ـ لقد طردني ابنه هذا الصباح وأردت رؤية مورينيغ ولكن قولي لي بسرعة يافارتانوش لماذا لست مع مايريك؟ هل حصل لها شيء؟

ـ آه، لاتقلق ياغازاروس، إنها مع خالتك والباقين في كاسيريغ، كم كنت أود البقاء معهن ولكن أثناء التجميع وجب علينا أن نفترق ثم وجدت نفسي أنساق إلى هنا لأختبئ، أتعلم اننا أحياء مع وقف التنفيذ فهذا المخبأ ليس أضمن من الترحيل حالما يكتشفون مكاننا الأسوأ ينتظرنا أما أنت فلديك الفرصة، لاتبقى هنا أية لحظة عد إلى آغا هوسينيغ وحاول إقناعه بكل الوسائل، ليس هناك حل آخر، قبلت كيس المؤونة الذي أعدوه لي واستأذنت سيد المنزل بالرحيل، حاولت تبادل عبارات التشجيع مع فارتانوش التي كانت تخفي ألمها الكبير تحت ابتسامة شجاعة، ضممت الصغير ـ طرقوم ـ بشدة إلى صدري وغادرت المنزل وأنا اشعر بأني خلفت ورائي محكومين بالموت. ألدي الحظ لرؤية ابن أخي الحبيب وزوجته مرة أخرى؟ أأرى مجدداً أمي أختي خالتي وأولاد أعمامي؟ وأنا؟ أنا بعودي الطري ماذا سيحل بي غداً؟ هل سأبقى حياً؟

وسلكت مجدداً طريق هوسينيغ ووقفت أمام الحج لاحول لي ولاقوة

ـ أيها الأغا، لامأوى لي أذهب إليه، سأطيعك دون مناقشة، لقد أحضرت معي بعض المؤن أتقبلني مجدداً؟ لم يعلق الآغا وبصمت أشار إلي أن أستعيد مكاني وقضيت الليل في زاويتي المعتادة.

ولكن في الصباح جاء ابنه مهدداً:

ـ ألم أقل لك بأننا لانستطيع إبقاءك، عليك مغادرة المنزل حالاً وإلا سأضطر لإخطار الشرطة وتسليمك إياها، إن أختك موجودة عند عائلة في موريه إذهب إليها لعلك تجد مكاناً لديهم.

كنت مسروراً لمعرفة مكان أختي ـ آنا ـ وأنها مبدئياً محمية ولكن لم أشأ الذهاب إليها لأنه بالنسبة لعائلة تركية قبول فتاة أو امرأة أرمنية شئ أما الشباب فشئ آخر.

وإذا كان التهديد بشأن تبليغ الجهات الرسمية صحيحاً فهو يمحي أي أثر لفرصة النجاة ومما زاد الطين بلة أنه لم يكن بوسعي عبور طريق الجبل الخطر، الذي يسكنه قطاع طرق فقد كانت هذه الطريق (المسماة الصخرة السوداء) في الأحوال العادية تخيف المسافرين لأنها محفوفة بالأخطار.

خرجت من المنزل بعد أن طردت منه مرتين وسلكت آلياً طريق مورينيغ ولكن بخطى مترددة وأخيراً توقفت منهكاً على قارعة الطريق. لم أعد أدري ماأفعل وتحول الغم إلى يأس اجتاح عقلي وجسدي، حاولت النضال بكل قواي ولكنها لم تكن سوى محاولات مراهق ضعيف ورغم جهودي لأبقي تفكيري نيراً لم أكن أقوى على تجميع أفكاري.

ـ ماذا أفعل؟ ماذا أفعل ياربي؟ ماهذا العذاب؟ هل سيدوم طويلا؟ هاأنا أعيش هذا الكابوس منذ سبعة أيام. آباؤنا وأمهاتنا رووا لنا بأن مذابح عام ١٨٩٦ دامت سبعة أيام.

وبعد أن أفرغت شحنة الحقد عاد السلام إلى المنطقة كإيعاز من الله الذي اصبح للحظةرب الجميع، ولكن ها أنا أهرب منذ سبعة أيام هنا وهناك ولاأعلم أين أضع رأسي هذه الليلة لقد تشتت شمل عائلتي وربما لن أراهم مرة أخرى، من مات منهم ومن بقي حياً؟ حتى تضحية هؤلاء الأبرار لم تكن كافية لشفاء غليلهم. أيوجد حل لكل هذا مهما كان نوعه؟ وتضاربت أحداث الأيام الماضية في رأسي ولم أتخيل بأن حتى سبعة أعوام لن تكفي لإنهاء المصيبة التي حلت بنا ـ تابعت طريقي متمزقاً بين فكرة أن أتقدم أو أن أختبئ وفي المنطقة المسماة (الطرق الأربعة) التقيت بشابين من مورينيغ (هايفاز كريكوريان) و (هايريك سيفاديان) وكانا هما أيضاً في حيرة من أمرهما وبينما كنا نتبادل المعلومات برز أمامنا صديق آخر من القرية (غازار إيزميريان) وكنا الأربعة في نفس الموقف: استقبلنا أحد الأغاوات ثم طردنا بحجة عدم استطاعته إيوائنا نظراً للتدابير المشددة تجاه الأتراك الذي يحمون أرمناً.

كنا قد وصلنا حتى مدخل القرية ولم نجرؤ الدخول خوفاً من افتضاح أمرنا، أخيراً استطعنا الانزلاق ضمن أحد المنازل المهجورة وأحسسنا بشيء من الأمان ولكن الحيرة لم تكن تفارقنا، كنا فقط متأكدين بأنه علينا أن نفعل شيئاً ما؟ ماذا نفعل؟ هذا ماكنا نجهله: كنت أكبر رفاقي سناً وكانوا ينتظرون مني إشارة أو علاقة لتقود خطاهم التي خرجت لتوها من الطفولة لتدخل المراهقة فقد كانوا معتادين على تلقي أوامر الأهل أكثر من أن يتخذوا القرارات بأنفسهم.

ومن أجل كسر الصمت المثقل علينا اقترحت عليهم فكرة خطرت لبالي:

«لو استطعنا ملاقاة من هو أكبر منا سناً لكنا التجأنا إليه، كأن يمنحنا القوة والشجاعة اللازمتين ويبث فينا روح التماسك وبمساعدة رفاقه لن نكون حملاناً خاضعين بل جدياً ينطح وإن كان لابد من الموت فلنمت ونحن نقاتل».

انخرطنا بحماس في هذه الفكرة التي لم تكن مجهولة لأحد فقد كنا نعلم بأن خمسة عشر شاباً أرمنياً في مورينيغ بينهم أخو هايريك قد هربوا من الجيش منذ البداية واختبأوا في الجبل كانوا مصممين على رد الصاع صاعين والموت حاملين السلاح رافعين بذلك مع باقي الفدائيين راية الشرف، شرف شعبنا هذا ماكانت تقوله لنا عائلاتنا والفكرة التي طرحتها وجدت مكاناً حسناً في قلوب الشباب خصوصاً في هذه المرحلة البائسة وسأل غازار:

«هايريك، أنت تعلم مكان هؤلاء الشجعان وكيفية الوصول إليهم لم لاتقودنا إليهم؟»

ولكن هايريك هز رأسه بشدة رافضاً الفكرة.

«لا، الغوا الفكرة تماماً، يجب ألا نفعل شيئاً كهذا»، ولم يشرح لنا لماذا ولكننا فهمنا عدم سلامة هذه الخطوة والخطورة التي يمكن أن تلحقها بنا أولاً وبرفاقنا الفدائيين ثانياً.

وأجبته قائلاً: لانستطيع البقاء هنا فسوف يعثرون علينا عاجلاً أم آجلاً».

ورد صديقي: بما أننا لانجد حلاً فننضم إلى قافلة المهجرين، فان

مصيرنا هنا لن يكون أفضل من وجودنا معهم على الأقل سوف نرى مجدداً عائلاتنا».

لكنني لم أؤيد هذه الفكرة، فقط غازار تحمس لها أما هايكاز وهايريك فقد رفضا مغادرة المخبأ أرشدتهم إلى منزل فارتانوش معتبراً بأنها لاتزال هناك وبينما نحن نطل على مدينة كاسبريغ برز لنا تركي من طرف الشارع ودون أن أدع له مجالاً للسؤال بادرته قائلاً:

«لقد طردنا أسيادنا ونود الالتحاق بقافلة المهجرين فهل تعرف مكان تجمعهم؟»

واطمأن التركي لسؤالنا ثم أطرق مفكراً وبدا متردداً. وأخيراً قال:

«لم تريدون اللحاق بهم؟ ماذا تعتقدون؟ إن الموت ينتظرهم من الأفضل أن تذهبوا إلى خاربيرت وأن تجدوا أسياداً جدد فهناك يوجد بعض الأتراك الطيبين وسيقبلون بكم بالتأكيد» وحاولنا أنا وغازار إقناعه أن يكون صاحب هذه المبادرة الكريمة «لن نستطيع لوحدنا الوصول إلى خاربيرت دون مساعدة، حتى وإن لم تحتفظ بنا دعنا على الأقل نتبعك حتى القرية»

«حظكم سيء ياأولاد! في ظرف آخر كنت ساعدتكم بالتأكيد ولكن اليوم لدي مهمة في كاسيريغ»

وعند رؤية الكيس الفارغ الذي يحمله عرفنا ماهي المهمة التي تنتظره فمثل الكثيرين وقبل أن يفوت الأوان يريد أن يزور البيوت الأرمنية المهجورة ويحظى بما تطاله يديه. وتركنا دون أن نلح عليه أكثر وهكذا وُجدنا مرة أخرى في حيرة من أمرنا.

بدءاً من هذه اللحظة أحسست بعدم الراحة وخاصة مشاطرة مصيري مع رفيق وفهمت حالاً بأنه خلال أسابيع سأودع سنين المراهقة وأدخل عالم الرجال ولهذا يجب علي أن أعتمد على نفسي منذ الآن فصاعداً وألتفت إلى غازار وقلت له:

«ـ غازار ـ أعتقد بأن هذا التركي على حق، يجب علينا أن نفترق ويجرب كل منا حظه على حدة».

لم أكن أود أن أفاجئه أو أخيب ظنه خاصة وأنا متأكد بأنه لن يقو على التصرف بمفرده لكنه لم يناقشني بل قال بأنه سيذهب لملاقاة هايكاز وهايريك.

بقيت وحيداً في كرمة عنب وسلكت الطريق المؤدي إلى خورتيغ حيث أود الذهاب وكنت أعلم بأنها منطقة محفوفة بالمخاطر ولكن لحسن الحظ وصلت إلى الشارع الرئيسي بين خاربيرت وديار بكر دون أن ألتقي بأحد.

وبعد أن رويت عطشي من نبع (نوح أفندي) شممت رائحة كريهة قوية وتقدمت قليلاً نحو السهل السفلي واكتشفت منظراً مرعباً عشرات وعشرات من الجثث المرمية والمتعفنة نتيجة حرارة الصيف وقد خضع العديد منها لتشويهات فظيعة، لم أستطع أن أحول بصري عن هذا المنظر الرهيب أردت الهروب ولكني لم أستطع التحرك فقد تسمرت في مكاني مجمداً.

كيف يستطيع الإنسان أن يتصرف بهذا الشكل الوحشي؟ كالحيوان، كيف ينسى أبسط قواعد التحضير ويحط من شرفه ويهجم على أعضاء ضحاياه الجنسية أو يقر بطون النساء آه، لا.. لم أستطع رؤية المزيد.

أردت الهروب ولكنني صدمت بمنظر مؤلم لامرأة تضم طفلها وكان الصغير يحيط أمه بذراعيه وبريق ينبعث من عينيه المفتوحتين وكأنه لايزال حياً واجتاحتني فكرة مجنونة، ربما لايزال الطفل حياً؟

ولكني سمعت أصوات خطوات قريبة ولم أستطع أن أميز سوى لون زي عسكري فاندسست بسرعة بين جثتين ومرَّ من قربي جنديين كان بصري مايزال معلقاً على الطفل الذي لم يمح الموت تعبير عينيه المؤلم.

وبعد أن ابتعدت الخطوات لم أستطع منع نفسي من الإقياء مطولاً، متألماً، وبصعوبة سحبت جسدي من بين الجثث متسائلاً إذا كنت أنا نفسي لاأزال حياً. وخطرت ببالي صورة أمي ربما تكون هي أيضاً في نفس الموقف مختلطة مع أجساد أخرى، مرمية في طرف مجهول دون قبر يأويها.

إذاً هنا كانت تنتهي قوافل الأهالي؟ هذه هي نهاية الترحيل؟ وتذكرت ذلك التركي الطيب الذي صادفناه في بداية الطريق، كان يعرف ماذا ينتظر أسرى (خاربيرت) وغيرها من المدن، نعم كانوا كلهم يعرفون كل الأتراك كانوا يعلمون مسبقاً مصير الأرمن. وحتى لو لم يكونوا متآمرين، أو مؤيدين كانوا يدعون الأمور تسير كما هي مخططة دون أن يعترضوا، دون أن يستنكروا.

جمعت كل مابقي في من قوة وابتعدت بسرعة من هذا المكان. ووصلت (كورينغ) سالكاً ممرات صغيرة بحيث لاأعرض نفسي لخطر محتمل.

لم آت لهذه القرية سوى مرة واحدة ولحسن الحظ وصلت أمام المنزل الذي كنت أقصده وهو منزل حسين آغا فقد خطرت لي فكرة المجيء هنا لأني كنت أعلم بأنه يربي أغناماً في هذه المنطقة كما أن زوجته تعرفني ولن يكون يكون البقاء عندهم صعباً.

استقبلتني الزوجة وحاولت أن أسرد لها قصة مقنعة فقلت لها:

لقد أرسلني المعلم إلى هنا لأبقى بعيداً عن الحوادث بما أنه لاأحد يعرفني في (كورينغ) وسوف أعود بعد أن تهدأ الأمور لأنه علي العودة إلى (هورسينيغ) لأبدأ الحصاد.

وصدقت الزوجة قصتي دون تعليق وقالت بأنها ستعهد إلي بالعمل صباح الغد.

في اليوم التالي كلفتني برعاية الأغنام مع صبي صغير وأصابني الشؤم منذ اليوم الأول فقدنا خاروفان وأحسست بأنني جلبت النحس لهم رغم أنهم لم يعلقوا بشيء.

مرت أيام ثلاثة دون حادث يذكر وفي اليوم الرابع أخذت الأغنام إلى حقل آخر دون أن أعلم بأنني تجاوزت حدود أرض معلمي وهذه المرة هاجمنا رجل بيده عصا غليظة هرب رفيقي وكان بوسعي أن أفعل الشيء نفسه ولكني بقيت لأشرح الخطأ وكان ثمن بقائي ضرباً مبرحاً وتهالك جسدي على الأرض نتيجة الضربات القوية التي لم أتلق أعنف منها في حياتي. وتمنيت في تلك اللحظة أن يهوي بعصاه على جمجمتي

ويرديني قتيلاً على أن أعيش تلك المذلة بين أيديهم ولكنه كان يعلم جيداً مايفعل إذ لم يكن بنيته قتلي ولكن فقط ليبرهن بأنه السيد وأنا العبد فقد كنت في بلد يغلب عليه حكم القوي على الضعيف وأخيراً رحل عني بعد أن أمطرني بوابل من الشتائم المقززة.

حاولت النهوض رغم آلامي المبرحة وكانت أية حركة أقوم بها تؤلمني وكانت ثيابي الملطخة بالدماء ملتصقة بجسدي ورغم ذلك نجحت في تجميع القطيع وإعادته دون أن يراني أحد وانسحبت كحيوان مجروح إلى ملجئي محاولاً أن أداوي جروحي.

في صباح اليوم التالي اكتمل سوء حظي إذ طلبت جارتنا من سيدة المنزل أن تعيرني لها لأرعي قطيعها وهكذا ذهبت إلى العمل محاولاً أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان.

وعند الظهر أحضرت فتاة طعام الغداء وبينما كنت أهم بتناوله اقتربت مني وهمست في أذني «حضر جنود إلى القرية لإمساك الوحيد فيها واسمه خاتشادور، حاول أن تختبئ ولاتظهر أمام أي شخص كان» وولت مسرعة.

هذه الفتاة علمت بأنني أرمني كما أنها كانت هي الأخرى أرمنية فقد أثبتت لي ذلك عيناها.

في المساء وبينما كانت زوجة معلمي تعطيني التعليمات ليوم الغد قرع الباب ولعنت نفسي لعدم اختفائي طوال الليل وعندما فتحت الباب فوجئت بحسان ابن المعلم راكباً حصانه ودون أن يتفوه بكلمة أمرني قائلاً «اتبعني» وأحسست بأن كل شيء قد انهار بعد أن اطمأن قلبي بأنني ناج لحق بي هذا الملعون ليسلمني إلى الجنود وينفذ تهديده وتبعته دون أن أنبس ببنت شفة وعلى الطريق إلى (روزينجي) سلمني إلى جندي كان ينتظره، إلى اليوم كنت حياً مع وقف التنفيذ أما الآن فقد بدأ مصيري يتحدد.

لم يتحدث الجندي معي لكنه أمرني بأن أتبعه وكان يرافقه أسيرين أرمنيين تبدو عليهما الأناقة والغنى فعرفت بأنهما من المدينة وحاول الجندي أن يستبدل حذاءه بحذاء أحدهما فقد كانا يرتديان حذاءين أنيقين وأكيد أنهما مثقفان ويحتلان مركزاً هاماً ورفض الثاني استبدال حذائه كان يجيب الجندي

برفعة وتأنف والتفت الجندي إلى حذائي وعلم من مظهري بأنني لاشيء يذكر خاصة وأنني استبدلت بنطالي الأزرق بشروال تركي رخيص كي لاألفت الأنظار. ولم يستغرق سيرنا وقتاً طويلاً إذ سرعان ماوصلنا إلى قرية (روزينجي) وأدخلنا الجندي إلى المدرسة الأرمنية بعد أن حولوها إلى سجن.

الهروب

أوصلنا الدركي إلى الطابق الأول وأدخلنا إلى غرفة حيث كان يجلس رجل بثياب مدنية على بساط ممدود على الأرض ولم يرفع هذا الأخير رأسه إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن وكأنه يود أن يخجلنا وعندما وقع بصره على رفيقي ابتسم ابتسامة عريضة وكانت تشع من عينيه علامات الرضا وفهمت للتو بأن هذين السجينين موظفين أرمنيين مهمين في مدينة خاربيرت.

وبقيت خلفهما غير ظاهر للعيان لصغر سني وحجمي وبعد أن انتهى المحقق استجوابه طلب إرسالهما إلى الضابط الأعلى، عندها اكتشف وجودي فسألهما مستغرباً.

ـ من هذا الصبي؟

وأجابه الدركي: ـ أيها الشاويش لقد التقطته في حقول خورتيغ وكان يحاول الهرب

وقفزت من مكاني لهذه الكذبة ودافعت بحدة:

ـ هذا هراء، كنت في خدمة الآغا ولكن ابنه طردني وسلمني مباشرة لهذا الدركي.

وللحظة شعرت بالخوف لتهوري بالإجابة بلهجة كهذه وتأملني الشاويش برهة من الزمن وخاطب نفسه قائلاً:

ـ كل هذا لايهمني، هاهنا صبي ينفعني.

ثم التفت إلي وقال:

هل تستطيع العمل في الأرض

وعندما أكدت له ذلك طلب من الدركي أن يصحب السجينين ثم تقدم نحوي وكأنه يفحصني:

ـ هذا الصبي لايزال يافعاً وهو ابن فلاح، سأرسله إلى أهلي ليساعدهم في أعمال الحقل ولاداعي لإخبار الضابط بوجوده.

وخلال هذه الفترة تفحصت وجه الشاويش، كان شاباً ذو نظرة لامعة وكان على وجهه تعبير محتال بشكل دائم والتفت نحوي وقال:

ـ عليك أن تصبح تركيا أتفهم! وإلاّ فلن تنفذ بجلدك أبداً ومنذ هذه اللحظة سيصبح اسمك أحمد. والآن هاقد نجوت اذهب إلى طرف الغرفة وابدأ بتحضير القهوة.

شكرته بكلمات لاأعرف كيف خرجت من فمي لكني افهمته باعترافي بجميله ولم أصدق نفسي بأنني نجوت بهذه السهولة ثم انسحبت إلى الزاوية لأحضر القهوة وحاولت جهدي أن أجعلها مقبولة وقبل أن يتسنى لي تقديمها دخل الدركي إلى الغرفة وقال بأن الضابط يود مقابلة السجين الصغير أي أنا.

وجن جنون الشاويش لكنه وجد نفسه مجبراً على إطاعة الأمر وقال للدركي بأنه سيصحبني بنفسه إلى الضابط وعندما دخلنا غرفته تفحصني لحظة ثم قال: هل تريد أن تصبح تركياً؟

أجبت: نعم أيها الأفندي

وهنا تدخل الشاويش وقال: اسمه أحمد وحق الله.

ـ هل تعد بأن تصبح خادماً مطيعاً للشاويش فائق؟

ـ نعم أعد بذلك.

ـ إذن اذهب واعلم بأن حياتك منذ الآن أصبحت بيد معلمك الجديد وعليك أن تصلي من أجله.

شكرته بجمل التبجيل التي أعرفها وتبعت الشاويش فائق الذي بدا منشغلاً بأمور أخرى، وفي باحة المدرسة امتطى حصانه ومشيت إلى جانبه وفي القرية التقى برجل كان منهمكاً بترتيب أغراض على بساط كبير وكان ينتقي الأشياء الثمينة ويضعها في طرف واحد وعرفت مباشرة بأنها مسروقة من منازل الأرمن المهجورة وكان هذا الرجل يعمل لحساب الشاويش الذي بدا مسروراً بهذه الحصيلة ونزل عن حصانه وبدأنا نسير في أطراف القرية وفي كل مكان كان الأتراك من جميع الفئات مدنيين، موظفين، عساكر منهمكين بإفراغ المنازل وكان الشاويش يسألهم بين الفترة والأخرى عن الحيوانات وماحل بها ودله أحدهم على مكان وجودها وهناك في طرف أحد الشوارع كانت مجتمعة وانتقى الشاويش بعضها وأخذني إلى محل نجارة وطلب من صاحب المحل أن يأويني أنا والحيوانات وقال له: سوف أمر في المساء وآخذ الصبي ليبق عندك حتى عودتي وأطعمه إذا كان جائعاً.

كان الرجل أرمنياً وأعلمني بأنه وحيد في المنزل بعد أن قتل والده ورحل أهله أي أمه وأختاه وبأنه نجار كما أنه يعمل بالحدادة وهذا ماأنقذه وبقي تحت حراسة الأتراك.

ـ إنهم بحاجة إلي لأعمال التصليح التي لايستطيع أحد منهم القيام بها ولهذا أنا مجبر من أجل إنقاذ حياتي أن أعمل لهم بينما رحل تقريباً كل أهالينا ولاأدري إذا كنت سأرى مجدداً أمي أو إخوتي. وفي المساء عاد الشاويش برفقة دركي ورفاقه وسلكنا طريق (إربنيغ).

كان حال هذه القرية كغيرها منهوبة ومنبوشة وكالعادة جمع أهلها في قافلة للترحيل إلى ديار بكر وحال وصولنا تركني الشاويش عند أناس أرمن رحبوا بي وفي السهرة روى لي صاحب المنزل قصتهم:

لقد أعطينا كل مانملك للدرك، خمسة عشر قطعة ذهب وفي المقابل تعهدوا بالإبقاء على حياتنا، حالياً هم يحفظون وعدهم ولكن بعد فترة إن عادوا هم أنفسهم أو حتى غيرهم لن يبق سوى حياتنا لنعطيهم إياها.

أثناء المساء شهدت القرية كل المآسي التي كنا نتخيلها ونراها بأم أعيننا داخل المنزل وكنت أتخيل حال مواطنينا وهم يحاولون بكل قواهم التمسك بديارهم ثم يرغمون تحت تهديد السلاح على مغادرتها وهم يلقون النظرة الأخيرة على منازلهم قبل أن يلقى بهم بوحشية خارجها دون أية رحمة إنسانية ودون أن يرأفوا بالمريض، بالعجوز أو حتى بالطفل.

كنت أرى الأمهات وهن يعطين أطفالهن لنساء تركيات لانقاذ حياتهم ولو أصبحوا أتراكاً وفكرت بأنني صحيح لاأجهل جميع المآسي فإن منقذي قد أعفاني من رؤيتها بأم عيني وفي الصباح وبعد انتهاء العملية كانت القرية قد نظفت من سكانها الأرمن ولم يبق سوى الجنود يتقاسمون الكنوز.

اصطحبني الشاويش فائق إلى (روزينجي) حيث كانت تتابع نفس العمليات (نهب، سرقة، قتل وترحيل) وبينما فهمت بأنه سيأخذ بنفسه الأغراض إلى منزله وجدت أنه ينوي البقاء مع فرق الترحيل وسألت نفسي قلقاً ماذا سيحل بي وقال لي الشاويش وكأنه قرأ أفكاري:

حالياً ستبقى معي لكن بعد ذلك سأعهد بك لأبي كما وعدتك.

وتساءلت متشككاً أأنا مهم لهذه الدرجة حتى يهتم بي هكذا؟ ألن يهجرني في أول فرصة سانحة ويرميني في قافلة الترحيل على أية حال البقاء معهم أفضل من رؤية العذاب الذي يلقاه شعبي على طرقات التهجير.

بينما كنت أتخبط في أفكاري جاءت فرقة من قرية (بيرتاغ) وبينهم (حسين) ابن عم الشاويش ومعه شاب اسمه محمد بصحبة قطيع حيوانات فقرر الشاويش أن يرسلني مع محمد إلى منزل والده لنرعى معاً هذه الماشية.

وبعد مسيرة بطيئة ومضنية نتيجة حمل الحيوانات الثقيل وصلنا ضفاف الفرات وكان علينا اجتيازه لنصل إلى (برتاغ) لم يكن النهر واسعاً لكنه كان هادراً وبدا الجسر الذي لم يكن سوى عبارة عن خشبة طويلة تصل بين الضفة والقارب ضعيفاً وتساءلت هل سيتحمل وزن أحمالنا الثقيلة وتوقفت قافلتنا للاستراحة استغل حسين هذه الفرصة ليتوضأ فسأل الناس الواقفين على الضفة.

- هل المياه نظيفة في تلك المنطقة؟

فأجابه أحدهم وهو يشير بيديه إلى منتصف النهر

ـ تعال وانظر بنفسك.

واقتربت لأنظر أنا أيضاً ورأيت مياهاً رمادية، قذرة ومحملة نعم محملة بأجساد بشرية متكتلة كان بعضها تعلق بطرف الصخور الحادة ثم جرفها التيار ولم يكن هناك داع لأسأل عن هويتهم، وإلى أين سيذهبون فالبحر لايزال بعيداً ترى هل ستقبلهم أرض وتكون مقبرتهم؟ شعرت بضيق عظيم وبدأت أرجف وفجأة تجمدت وكأنني أخرج من هذه المياه وبدأت بالاقياء عند رؤيتي بعض الأجسام العارية والمشوهة وبدا لي هذا المكان فظيعاً، كل شيء كان قاتماً المياه، الأرض، الأشجار والناس حتى الهواء الذي استنشقه بدا لي محملاً بالموت واختفت الشمس فجأة وكأن ليلاً غزا منتصف النهار ورفعت عيناي، كانت السماء سوداء والمياه مليئة بالجثث.

عدل التركي عن صلاته ووصل القارب إلى الضفة وأنزل حمولته من البشر، الحيوانات والبضاعة وحان دورنا للصعود وماإن وطئت قدمي الخشبة حتى سألني المسؤول عن المرور: هل معك وثيقة؟

فأجبته بتأكيدٍ طبعاً أنا أحملها معي

فسمح لي بالمرور وهكذا اجتزت الفرات لأول مرة وفي المساء وفي وقت متأخر وصلنا إلى برتاغ.

صباح اليوم التالي تعرفت على أعضاء عائلة الشاويش فائق والتي أملت أن أجد عندها ملاذاً أميناً. عند قدومنا استقبلنا أحمد آغا زعيم العائلة مع زوجته غاينيس هانم، كان الاثنان مسنين ولكن ذلك لم يمنع أحمد آغا من السيطرة الكاملة على العائلة وكان لديه ولدان فائق والطبيب أمين وكان الاثنان يعيشان مع زوجتيهما وأولادهما في نفس المنزل اثنتان من بناته الأربع كانتا متزوجتين والأخريين في المنزل. عند قدومي إلى (بيرتاغ) من بعيد رأيت أبنية مرتفعة على هضبة كقبة كنيسة ومئذنة جامع وأبنية وحمامات واسعة وكانت البيوت منتشرة تحت هذه الهضبة ومنها جاءت تسمية المدينة (تحت القلاع).

كان الشارع الرئيسي للمدينة مركزاً للسوق إذ كانت الحوانيت منتشرة على طرفيه وفي كل يوم جمعة يحضر فلاحون وتجار من مدن أخرى ليتبادلوا

السلع مع أهل المدينة أما الآن وبعد عمليات الترحيل لم يبق فيها سوى بضعة محلات يشغلها أرمن وفي الحقيقة أصبحوا موضع جدل كبير من قبل الأتراك فمنهم من يريد ترحيلهم دون مناقشة وضعهم ومنهم من يرى أن فيهم فائدة لأهل المدينة حيث بينهم النجار والحداد ـ أو الحذاء، وأثناء اجتماع عقدوه لتقرير مصير هؤلاء اقترح صانع النجار الأرمني بأن يطردوا قائلاً:

نستطيع أن نستغني عن الأرمن فأنا بوسعي لوحدي أن أنجز جميع أعمال النجارة.

وقفز آخر مقترحاً بينما الكل يعلم بأنه لم يستعمل أداة قط

ـ نعم لنتخلص من الحذاء وسوف آخذ مكانه. وتغلبت الأقلية على الأكثرية بعد أن استطاعت استغلال نقطة الدين والتمييز العرقي وهكذا بعد ستة أيام جمع من بقي من الأرمن في القرية ثم اقتيدوا إلى رأس الهضبة ورمي بهم في الفرات.

بعد هذا الحل الجذري شعرت بوطأة الكره وأصبحت أتساءل هل سأبقى الأرمني الوحيد في كل البلاد؟ وطمأنني أحمد آغا قائلاً:

ـ لاتقلق حتى ولو قضوا على كل الأرمن فأنت بحمايتي ووضع يده على طربوشه كعلامة تأكيد.

ورغم ثقتي بكلام معلمي كان العالم الخارجي لايزال مليئاً بالعداء والكراهية صحيح بأنني وعدت بأن أصبح تركياً لكني أعتبر أرمنياً.

بعد عدة أيام جاءت مجموعة من المهجرين وعددها ألف وتجمع الأتراك وكأنهم في مزاد ليختاروا من هذه البضاعة البشرية وكان بعضهم يتفحص الأفراد وكأنهم حيوانات وعندما عدت في المساء وجدت بأن معلمي أيضاً قد تبضع من المزاد فقد أحضر معه صبية اسمها (زاريغ) وأخوها (قره بيت) ولكن النسوة عارضن وجودهما قائلين:

ـ أصبح عددنا كبيراً في المنزل ماذا سنفعل بهذين الجديدين ونحن عندنا أصلاً ثلاثة خدم.

وبلهجة آمرة أسكتهم الآغا مجيباً.

ـ هناك مكان لكل واحد منهم وسوف أملي عليهم واجباتهم سوف تستبدل الخادمة السوداء بزاريغ أما الصغير قره بيت والذي سندعوه نجيب سيحرس الحيوانات وأما محمد فسوف يقوم تقريباً بجميع أعمال الفلاحة.

أنا غازاروس ـ محمد فقد بدأت منذ حين بالقيام بأعمال الخادم الكردي الذي بدأ رويداً رويداً يفقد عقله ولم يعد يصلح للعمل.

وهكذا وقعت أعباء المنزل كله على أكتافنا نحن الأرمن الثلاثة ووجب علينا خدمتهم فداء لحياتنا. وكان أحمد آغا يعطيني تعليمات العمل وينفذ قسماً منها بنفسه أما النساء فكن لايظهرن إلا نادراً والفتيات يقمن بالأعمال التي لاتجعلهن على اتصال بالغرباء وأما زوجات الآغا (الهوانم) فكان لديهن الامتياز بعدم العمل.

بعد عدة أيام مرّ الشاويش فائق بالقرية وجاء لرؤيتي قائلاً: إياك وأن تقول بأنك من مورينيغ فهناك يتجمع الفدائيون وقتلوا حتى الآن عدة جنود والويل لمن يقول بأنه من مورينيغ، إذا سئلت قل بأنك من (إرزنفا) وبأنك تحت حمايتنا ومقابل هذا عليك أن تعمل بإخلاص وتطيع أبي طاعة عمياء كما عليك اتباع قوانين الاسلام. ألديك أسئلة؟ هل أنت راض عما قلت؟

ـ لاأملك سوى أن أبدي اعترافي بجميلك وأعدك بأنك لن تشكو مني أبداً لامن عملي ولامن سلوكي.

كان والدا الشاويش فائق يعاملانني بلطافة ولم يكونا يبديان أية خشونة إلا فيما يتعلق بنساء المنزل إذ أن القوانين كانت تحتم على المرأة المسلمة ألا تظهر مكشوفة لأي كان إلا لزوجها أو أخوها حتى أسلافها لم يكن مسموحاً لهم برؤية وجهها ولحسن الحظ لم أجابه أي موقف كهذا لأن عملي كان معظم الوقت خارج المنزل وعندما يصدف وأقابل أية واحدة في حرمة المنزل كنت أحاول أن أكون مؤدباً قدر الإمكان حتى لاأحرجهن.

وذات صباح توفيت أخت أحمد آغا وطلب مني أن أذهب إلى منزل أخيه لأحضر طعام الغداء وان أجلب ضيفاً اسمه عرفات أفندي شاب في العشرين من عمره وفي الطريق تفحصت هذا الشاب التركي وقلت لنفسي ماالفرق بيني وبينه؟ إن مستقبله مفروش بالورد ويعرف مسبقاً

ماسيفعله، لايزال في مقتبل العمر والجميع يحترمه لأنه موظف حكومي وربما بعد فترة سيبدأ هو أيضاً بقيادة مذابح الأرمن أما أنا غازاروس أو بالأحرى محمد ماذا ينتظرني؟ هل سأساق مرة أخرى إلى السجن وأعدم ربما على يد هذا الشاب؟

يارب لماذا خلقت أرمناً وأتراكاً وجعلتهم مختلفين تماماً على نفس الأرض؟ وللمرة الأولى وجهت كلامي مباشرة إلى الله لألومه:

على من تلقى عبء كل هذا الحمل ياربي؟

ألا ترى من يطيعك ومن يتبع تعليمك؟ ألا تستطيع أن ترد النظام إلى الدنيا؟ ألن تأتي النهاية لكل هذه الأحداث؟ العالم ينتظر منك أن تتحرك فلِمَ تتأخر في إسماع صوتك؟

وبعد يومين وبينما أن أقطف البطيخ في الحقل جاء عرفات أفندي ومعه شاب آخر اسمه (غالي) قدم لي كعديل علي أفندي وعلى طريق العودة اقترب مني غالي قائلاً:

أنت أرمني أليس كذلك؟

وعقدت الدهشة لساني ولكن بعد لحظات أجبته بنعم

وأجابني هذه المرة بالأرمنية

ـ أنا أيضاً أرمني واسمي هايكاز ولكن عرفات لايعرف ذلك فقلت له متسائلاً:

ولكن كيف يحدث بأن تكون أنيقاً إلى هذه الدرجة؟ وكيف استطعت المرور على الحدود؟

ـ بفضل فائق أفندي فقد استحصل لي على إجازة مزورة وقدمني على أساس عديل ابن عمه علي. ومنذ اختفاء أبي وأخي الطبيب أصبح مصيرنا بيد علي أفندي الذي كانت تربطه أواصر متينة مع أبي وبعد هذه الأحداث أقسم بأن يتكفل بكل ثروتنا كما أنه أرسل أمي وأختي إلى منزل أمين في خاربيرت. ماذا نفعل؟ حالياً أهم شيء هو أن نكون أحياء أليس كذلك؟

وتعرفت أخيراً على نجل معلمي الأكبر، الطبيب أمين أفندي الذي تبدو

على ملامحه الحكمة والهدوء رغم أنه لم يبلغ الثلاثين بعد وشعرت للتو بالاعجاب بشخصه وبتصرفاته.

واقترب مني قائلاً:

ـ إذاً أنت محمد، أهلاً بك، كلمني أخي عنك، وأتمنى أن تقضي وقتاً طيباً معنا وإذا صادفتك أية مشكلة أرجو أن تعلمنا بها.

ـ أشكرك أمين أفندي، إن وضعي ممتاز وأنا سعيد بخدمتك وخدمة عائلتك.

وتناقش بعد ذلك مع أبيه حولي وحول عملي وأبدى فخره بعائلته التي لاتزال تحتفظ ببعض مبادئ الانسانية خصوصاً في هذه المرحلة القاسية التي يمر بها الأرمن.

أصبحنا أنا وهايكاز أصدقاء فقد كان يأتي لزيارتي وكنا نتناقش في جميع الأمور، معه كنت أصبح ثرثاراً ولكن في الوقت نفسه كان يعلمني الكثير وكنت أشعر بالفخر لحديثي لأنه تابع دراسته الثانوية في المعهد الأمريكي في خاربيرت لكنه اضطر للرحيل بسبب المذابح التي في الواقع حطمت مسيرة حياة الآلاف من الأرمن.

وبدأت أتأقلم مع وضعي الجديد ومع مستخدمي وكنت أبتهج لصداقتي مع هايكاز وللثقة التي منحني إياها أمين أفندي ولكن للأسف كان رحيلهما قريبا إذ بعد عدة أسابيع عاد هايكاز إلى مزيريه وبرحيله شعرت بأنني قطعت خيطاً أتعلق به مع الخارج وعدت من جديد إلى عالمي المنسي.

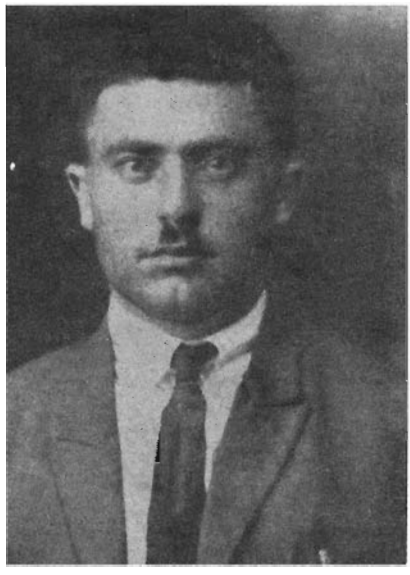

● مؤلف الرواية ـ غازاروس ـ لدى وصوله مدينة حلب ـ ١٩٢٢

● ـ نفارت ـ رفيقة الطفولة .. وزوجة المستقبل .

● ـ هوفانيس ـ الأخ الأكبر لِ غازاروسُ الذي بعث بصورته من ـ ديترويت ـ أمريكا ـ عام ١٩٢٥

● ـ زاكار نجاريان ـ الجار الوفي ووالد ـ نفارت ـ ـ مورينيغ ١٨٨٠ ـ

شجعان مورينيغ

جاء الخريف ليمسح آثار أحداث الأشهر الماضية، عاد الطبيب أمين إلى كارين مصطحباً معه الخادمة (زاريغ) الشجاعة بعد أن رجته رجاءً حاراً علها تعثر هناك على أثر مما بقي من أهلها وأقربائها وبقيت الأرمني الوحيد لإنجاز الأعمال الملقاة على عاتقي بمساعدة بعض الأكراد الذين كانوا يتميزون باستمرار.

استقبلت القرية مدير منطقة جديد بدأ مهامه بزيارة البيوت التي ألجأت شباناً أرمن وبعد أن جمعنا كلنا في مكان واحد خاطبنا قائلاً: ـ اعلموا ياأبناء الكفار بأن الأغوات الذين أنقذوكم ويحمونكم يملكون حياتكم ولهذا عليكم السهر على راحتهم وبما أنكم اخترتم الإسلام ديناً لكم عليكم أن تصلوا حسب طقوسه واعلموا جيداً بأن أعيننا ساهرة ولاشيء يخفى عنّا!

ثم وجه كلامه إلى أسيادنا:

ـ لنتبع ياسادة نظام القسوة والقوة فلا يزال أمامنا الكثير حتى نجعل هؤلاء الكفار في قبضتنا تماماً، من حسن حظنا أننا جمعنا أسلحتهم في الوقت المناسب ورغم ذلك فهم يخبئون دوماً لنا مفاجآت، إذ بينما كنا في إحدى القرى نطبق نظام التهجير حسب الأوامر كنا نعلم جيداً بأن

هناك شباباً مختبئين في بعض الزوايا ولكن لم نتوقع أبداً أن ينقض واحد منهم على أحد جنودنا ويخطف سلاحه ويشهره في وجوهنا، نحن بالطبع كنا أسياد الموقف وعاقبناه العقاب الذي يستحق بإرساله إلى العالم الآخر. هل ترون أيها الكفار بأن الله معنا وبأنكم إذا أسلمتم سيعتبركم أبناءه وسيسكنكم جناته المخصصة فقط للمسلمين؟ لهذا أنتم الآن لاشيء وعليكم أن تتبعوا قوانينا حتى لاتهلكوا.

هل ترون ياسادة بأن متاعبنا لم تنته بعد؟ هؤلاء الأرمن كلما ذبحناهم كلما ازداد عددهم هاقد مرت أشهر ونحن نحاول أن ننهي قضيتهم وإذ تبرز لنا مجموعة من الفدائيين يريدون تنظيم حركة مقاومة ضدنا وعلى رأسهم (آفيد باشا) الذي يجب أن نقبض عليه بأي طريقة. وعند سماعي هذا الاسم اهتز كياني فقد تذكرت بأن رجلاً اسمه (أفيدوني) كان يأتي أحياناً إلى القرية على صهوة حصانه يرافقه بعض الأرمن المحترمين وقد قالوا عنه بإعجاب بأنه شخصية مهمة رغم أنه يأتي من خلفية متواضعة لكنه بذكائه وطموحه استطاع الوصول إلى مناصب عالية. وكان الكل يحترمه حتى الأتراك لقبوه (بالباشا) ولكن هذا لم يمنعه من الالتحاق بصفوف الفدائيين عند بداية المذابح.

إن هدفنا كليّ ياسادة، لن نتوقف إلا عندما يأمرنا بذلك طلعت باشا وعلى وجهه رسم ابتسامة راضية وقال:

«ياأتباعي أنا مسرور منكم فقد قمتم بعمل رائع.

كان عدد محاصري قرية مورينيغ خمسة عشر وجميعهم شبان يافعون. لم أكن أعرفهم شخصياً ولكنني سمعت بأسمائهم ومنهم (قره بيت توماجيان، دافيد بارسميان، كريكور روديان، همايك كريكوريان، نيشان شاهبازيان، هاكوب ناجاريان جاري وأخ نفارث الأكبر وابراهام أسادوريان). كانوا جميعاً قد فروا جميعاً إلى الجبال في بداية المذابح ماعدا ابراهام الذي لم يقلق الأتراك بادئ الأمر لأنه فقد رجله أثناء الحرب لكن ذلك لم يمنعه من الوصول إلى الجبال والالتحاق برفاقه وبعد فترة أحس بأنه سيصبح ثقلاً عليهم لأنهم كانوا على تنقل دائم هرباً من الجنود الأتراك

ولذلك قرر العودة إلى القرية المهجورة والاختباء في إحدى زواياها ومد رفاقه بمعلومات مفيدة عن تحركات الأتراك من مخبئه وبعد أيام جاءوا جميعاً يطرقون بابه واندسوا بسرعة إلى الداخل قائلين بأنهم ملاحقين فقد اشتبكوا في معركة وقتلوا عدة جنود أتراك لكن قلة عددهم ونقص مؤونتهم جعلتهم ينسحبون وقرروا العودة إلى القرية ففي النهاية خطر الموت كان دائماً أمامهم أفليس من الأفضل الموت بشرف وهم يدافعون على أن يقتلوا كالكلاب في الجبال وتصبح جثثهم طعاماً للجوارح.

وقرروا أن يختبئ كل واحد في منزله وجعل منزل ابراهام مقراً للاجتماع. كانوا جميعاً ستة عشر شاباً ينظرون إلى المكان الذي عرفوه فيما مضى مليئاً بالبشر والحياة واليوم أصبح مقبرة لاينتظرها سوى المزيد من المتاعب، كانوا الوحيدين الباقين على قيد الحياة يشغلون منازلاً كانت بيوتهم وكانوا أسيادها واليوم أصبحوا سجناءها.

وصباح يوم باكر أطلق ابراهام من برج مراقبته اشارة الانذار وبسرعة اجتمع الكل وأحكموا إغلاق المداخل والنوافذ وبينما هم يراقبون عقدت الدهشة ألسنتهم عندما وجدوا الجنود يتجهون مباشرة نحوهم وحاصروا المنزل وبينما هم يتساءلون جاءهم الجواب السريع فقد رأوا محمود آغا يؤشر نحو المنزل ويتمتم بكلمات غير مفهومة فقد استعبد محمود آغا عدة نساء من مورينيغ واستطاع تحت التهديد أن يستخلص منهن معلومات عن هؤلاء الشبان وبالتحديد منزل ابراهام.

حاصر الجنود المكان من جميع الجهات وأمروا الشباب بالخروج من مخبئهم ورد عليهم الفدائيون بطلقات نارية مما ارغم الجنود على الاحتماء بزوايا آمنة.

وغربت الشمس ولايزال كل في مواقعه، وحده محمود آغا كان يفكر بخطط شيطانية ليرغمهم على الخروج من مخبئهم فقد أحضر الخالة فارتير أم هاكوب أحد المحاصرين وأخبرها تحت السلاح أن تحمل شعلة نارية وترميها بيدها على منزل ابراهام واتجهت الأم بخطى وئيدة نحو المنزل محاولة كسب بعض الوقت بانتظار معجزة، أية معجزة وكلما اقتربت من المنزل كانت تفكر

بالموت معهم فكرة رائعة وخاصة عندما تضم ابنها للحظات أخيرة بين يديها ولكن أن تصبح أداة لقتلهم؟ مستحيل.

كان الشباب ينتظرونها بأنفاس مقطوعة فقد اتخذوا قراراً سريعاً إذ ماإن أصبحت الأم على بعد خطوتين منهم حتى فتح الباب بسرعة وسحبها أحدهم إلى الداخل تحت وابل من الرصاص. أغلق الباب بسرعة، في الخارج خمدت نار الشعلة، وفي الداخل كانت الأم سليمة، اثنان أصيبا بجروح ولكن الأهم من ذلك أن خطة محمود أغا فشلت. وحل الصمت من جديد وعند الغسق قرر الجنود استحضار فرق أقوى لتحطيم نواة المقاومة بينما كانت الفرحة لاتسع أم هاكوب للقاء ابنها بعد فراق يائس ودام شهورا وبدأت تتلو صلواتها طالبة لهم مغفرة خطاياهم عندما أبدى جميعهم استعدادهم للموت.

في فجر اليوم التالي جاءت عناصر أخرى ومعها مدفع كبير وقبل أن تطلق الطلقة الأولى هجم هاكوب في حركة مقاومة أخيرة على مطلقها وأرداه قتيلاً وفي نفس اللحظة ـ وقع شهيداً في منتصف الساحة. وبدأ المدفع يرسل طلقاته المتتالية وبدأت جدران المنزل تتحطم على ساكنيها لتصبح مقبرة لهم ولكن القدر أنقذ بأعجوبة الأم فارتير لتسقط مرة أخرى في أيدي الأتراك ورغم ضخامة الهجوم استطاع ثلاثة شبان النجاة وهم (دافيد، همايك، ونشان) واستغلوا ستار الغبار ليهربوا من أعين الجنود وأطلقوا سيقانهم للريح متجهين نحو برزان وعندما أيقنوا بأنهم على مسافة آمنة دخلوا كروم العنب واختبأوا بين أعراشها.

بقوا على تلك الحال أياماً يقتاتون العنب لكن سرعان ماأنهكهم الجوع وضغط الأشهر العصيبة التي مروا بها وأخيراً وضعوا نصب أعينهم هدفاً واحداً:

تلقين محمود آغا درساً قاسياً لكل المتاعب التي سببها للقرية وتطوع نيشان للذهاب إلى مزيريه متخذاً كل الاحتياطات اللازمة واستطاع الاتصال بسيرنيار ناجاريان زوجة هاكوب التي أبدت استعدادها التام للمساعدة بعد أن أسرت هي وحماتها وأخوات زوجها في بيت محمود آغا مع بعض النساء الأخريات وقالت بأن محمود آغا حذر جداً ولضمان عدم إيذائه هدد بعض

النسوة بقتلهن إن لم تخبرنه عن أية حركات مريبة في المنزل وكن يطعنه لأنه كان بالنسبة لهن الخلاص الأخير.

عاد نيشان بعد يأسه من أخذ معلومات أكثر إفادة وخبأ في قميصه عدة قطع خبز أعطته له سيرنيار وكانت الكوفية المحيطة برأسه تعطيه هيئة تركية مما جعله يسلك الطريق الرئيسية بقليل من الأمان وانضم إليه أثناء مشيته رجلاً تركياً ووجب عليه احتمال ثرثرة هذا الأخير طوال المسافة حتى وصوله إلى كروم العنب ليلتقي برفاقه. وشك التركي بتصرف نيشان وعاد أدراجه وبدأ يتابع خطواته إذ بدا له من الغريب أن يترك الطريق الرئيسية ويندس في حقول لاتؤدي إلى أي مكان واقتنع بان نيشان لم يكن سوى أرمنياً وعاد مسرعاً إلى مزيريه ليخبر الشرطة.

جاءت مع الشرطة مجموعة هائلة للتفرج على منظر إلقاء القبض عليهم وأصبح الثلاثة كفرائس مسكينة محاطة بالخطر من جميع الجهات، هذه المرة لم يكن لهم أي أمل بالنجاة وعلموا بأنهم هالكين لامحالة وتخيلوا فظاعة العذاب الذي سيلاقونه إن وقعوا في أيدي الأتراك ولهذا قرروا إنهاء حياتهم بأيديهم بتصويب بنادقهم نحو رؤوسهم.

لم يشأ القدر أن يساعد فدائيي مورينيغ ولكن غيرهم في مناطق عديدة أسمعوا أصواتهم وأثبتوا بأنه يمكن للضعيف أن يقاوم القوي، بالنسبة لي فإن هذا الدفاع البائس لمجموعة من الشبان من قريتي الذين رفضوا الخضوع للوحشية كان بمثابة قدوة ومثالاً عظيماً حيث من الممكن المقاومة مع الإرادة واكتشاف القوة بعدم الخنوع أمام الشر مهما كان قوياً.

تركي أم أرمني؟

بقيت تحت تأثير خطاب مدير المنطقة المخيف ومازاد من هلعي النهاية الماساوية لفدائيي مورينيغ وخبر إعدام راعي كنيستنا إذ قتل برصاصة في العنق بعد أن قيدوا يديه ورجليه ثم رموه في الفرات وجعلت هذه الأحداث حياتي جحيماً لايطاق.

فالموت أصبح إشارة معلقة على رأس كل أرمني ولم تكن هناك أية بوادر سلم أو حتى هدنة مؤقتة حتى تصل خطة الإبادة نهايتها. وكان وضعنا حرجاً حتى تحت وصاية عائلة تركية رغم قسمنا العلني بأن نكون خدماً أوفياء ومسلمين صالحين. لو افترضنا بأنهم يريدون أن ينسوا بأنني ولدت أرمنياً أدركت لماذا لاأستطيع أن أصبح تركياً، ولكن هل كان لدي خيار آخر؟ هل كان بوسعي التعلق بأي أمل؟ لم أكن سوى فرد وحيد لاينتمي إلى عائلة أو مجتمع وهذا هو الموت بعينه. ثم إذا أصبحت تركياً مسلماً سيكون لذي ربما بعض الحقوق، بوسعي التصرف بحرية والتخلص من حالة العبودية وممارسة مهنة شريفة وبذا أبني مستقبلاً أفضل. وبعد كل هذا يزوجونني إحدى بناتهم طالما يعتبرونني شاباً مجتهداً ورصيناً؟ وهكذا أنشئ عائلة وتمضي أيامي في سلام وحياتي تأخذ مجراها الطبيعي دون أن أقلق بالنسبة ليوم غد.

أي ثقل احتمله أجدادنا طوال خمسمائة عام؟ اضطهدوا لكونهم أرمن

مسيحيين وليسوا أتراكاً عاشوا في خوف دائم متأملين أياماً أفضل ولكن ألم تجعلهم هذه الأشهر الخمسة الماضية يندمون على صبرهم طوال خمسة قرون؟ الصبر الذي أوصلهم إلى ماذا؟ إلى المذابح. قُتل الرجال دون تمييز، أبعد الأطفال عن أمهاتهم، بيعت الفتيات ثم اغتصبن ورمي بالأطفال دون رحمة على الحجارة لتكسير أعضائهم الهشة، عُذبت النساء باخراج الأجنة من بطونهن وعلقن أحياء على السيوف وسط ضحكات بربرية ألهذا الحد يوجد بشر دون قلب ولارحمة!

ارتجفت لهذه الأفكار إذ كيف لي أن أعيش بسلام بينما جثث ناسي تتفسخ في الشمس، من المستحيل أن أكون لامبالياً إزاء هؤلاء الأموات، من المستحيل أن أنسى، كيف أمارس ديناً باسمه قتلوا بهذه السهولة وبهذه الوحشية دون سماع صوت الضمير وإذا كان الأتراك يترجمون هذا الدين بسوء ويستخدمونه كوسيلة للإبادة كيف بوسعي أن أصبح تركياً؟

سأذكر دائماً بأنني تغذيت حليب أم نقية علمتني مبادئ الحياة الصالحة أين هي أمي؟ ماذا فعلوا بها؟ ربما لن أراها أبداً ولكنها تراني بعينيها الهادئتين رغم الصعاب، ترعاني وهي محاطة بإخوتي، بأقربائي، بأجدادي، من أجل فتات الخبز أأنكر انتمائي، جذوري، وأقبل أن أصبح رجلاً دون ماضٍ، دون ذاكرة؟

آه لا وألف لا، إن حياتي ليست أغلى من حياة اخوتي الذين قتلوا. والآن أدركت بأنني مستعد أن أتخلى عنها ولاأعيش في ذل على مرأى من عيني أهلي. وبما أن خطاب مدير الناحية لم يحز على موافقة الأغلبية فقد بقينا أنا وبعض رفاقي في وضعنا الراهن رغم قسمنا بأن نصبح أتراكاً ولم يبد على أسيادنا أية علائم اعتراض وكأنهم لايبالون إن أصبحنا أتراكاً أم لا.

كما أن جولة المدير لم تترك بصمات إيجابية على باقي القرى ففي مزيريه مثلاً كان الأهالي معجبين ببعض الحرفيين الأرمن ولهذا تعهدوا بحمايتهم ولكن المدير أصر أن يوقفوا ثم يعدموا كالباقي مما أثار جدلاً بين صفوفهم.

ذهبت إلى مزيريه للمرة الأولى منذ بداية الأحداث واصطحبني معلمي إلى نجار اسمه (حسان) وللحال أدركت بأنه أرمني لكنه وحتى بعد عدة زيارات لم يخاطبني إلا بالتركية ولم يكن يتحدث سوى عن أعماله اليومية متخذاً

جانب الحيطة القصوى وبعد أن عصرت ذاكرتي تذكرت بأنه النجار هاروتيون من أمهر حرفيي الأرمن ولكن احتراماً لصمته لم أذكر له أي شيء وبعد فترة وبعد أن أنهى الأعمال الموكلة إليه اصطحبه شرطي ليريه معمل النجارة الذي أتم بناءه ومنذ ذلك اليوم اختفى ولم يراه أحد وبعد فترة قيل ببساطة بأنه مات.

وبسبب تنقلي الدائم بين القريتين التقيت وأنا على طريقي إلى مزيريه ابن خليل أفندي من مورينيغ بينما كنت أجر حماري المحمل بالخشب التقينا وجهاً لوجه وصاح ببهجة: «أهذا أنت غازاروس؟ ماذا حل بك وكيف حالك الآن؟

لم أشأ أن أحادثه فمضيت بسرعة متذرعاً بثقل أحمالي وأجبته بكلمات مبهمة دون أن أتوقف وشاءت الصدفة أن ألتقيه ثانية بعد أسبوع. هذه المرة استوقفني قائلاً: هل أنت بخير؟ وأمام إلحاحه بالسؤال وجهلي إن كان مخلصاً أم لا لم أخفِ عليه الحقيقة وأجبته كمن يرمي نفسه في الماء:

ـ نعم أنا بخير وبخدمة فايق شاويش في برتاغ.

تابعت طريقي وأنا أتخيل بأنه سيذهب إلى مورينيغ وسينشر بين أهاليها بأنه رآني وأني بخير وبأني أتنقل بحرية بين القرى وبالتأكيد لاأحد سيصدقه.

اقترب الخريف من نهايته واكتسبت ثقة أسيادي ولهذا نقلوني إلى العيش معهم في مسكن واحد وجعلوني فرداً منهم ولحظتها فكرت بأن الله لايزال يتذكرني ويحميني صحيح بأننا مررنا بأحلك الليالي إلاّ أنه لايزال يوجد بين الأشرار أناس صالحين كعائلة أحمد آغا..

لم يجبروني أن أصبح تركياً ولكن أما زلت أرمنياً؟ هل البقاء أرمنياً في هذه البلاد ضرب من الخيال؟ وفي منفاي دون أية أخبار عن عائلتي من أناس قريتي ولاحتى مايدور من أحداث خارج أسوار القرية فكرت بأنني الآن محمد (غازاروس سابقاً)

أدركت بأن الخطر يكمن هنا في التقوقع على نفسي والذي سيجعلني أنسى ولكن إلى متى؟

الحرب.. دائماً

ـ ١٩١٦ ـ

في الربيع انتشر نبأ وقوع مدينة كارين بأيدي الروس وشاهدت ولأول مرة ارتسام علامات الهزيمة على وجوه الأتراك الذين لم يتوقعوا حادثة كهذه وقلّت المؤونة في برتاغ وارتبكت عائلات الضباط والجنود أمام هذه المشكلة بعد أن اعتادوا منذ سنة على الوفرة نتيجة نهب منازل الأرمن.

أما في منزل أحمد آغا كان الغذاء متوفراً بما أنه كان يملك عدة اراضي مزروعة ولكن العائلة كانت كثيرة الأفراد بما فيها ابنتيه المتزوجتين من شابين فقيرين لذا كان علي أن أعمل حمالاً ينقل المؤونة من منزل لآخر واعتدت أن أرى غالباً ابني معلمي ويوماً اصطحبني الطبيب أمين لزيارة أخيه الشاويش فائق في دار الشرطة في مزيريه وهناك دخل محل صانع أحذية ليوصي زوجاً فيها وكان ابن أخته (صدقي) يعمل تحت يد حرفي أرمني. وبينما كنت أنتظر في الخارج ألقيت نظرة على المحل وفجأة لمحت ابن عمي كريكور صبي في الثانية عشرة من عمره، رآني هو أيضاً واستطاع التسلل من المحل والانضمام إلي وبقينا جامدين للحظات لانستطيع أن نتعانق خوفاً من أن نثير الاهتمام وقلت له بصوت لاهث: جئت مع الدكتور أمين وأعيش في منزل أهله في بيرتاغ وأنت وأهلك؟

أنا أعرف سيدك، أنا أيضاً هنا مع معلمي، نحن حالفنا الحظ فأمي وأختي

على قيد الحياة وأستطيع رؤيتهما أحياناً ولمعلوماتك أختك آنا في موريه وتعيش عند عائلة كردية أمي قالت بأنه لايزال بعض أقربائنا في هوسينيغ أما الباقي فلا خبر عنهم.

وكم أحسست ببهجة عارمة تجتاحني عندما سمعت أخبار عائلتي من صوت مألوف بلغتنا الأم وابتلعت ريقي بصعوبة وقلت بلهفة:

قل لهم بأنني أفكر دوماً بهم وبأنني بخير وألا يقلقوا من أجلي أتمنى أن نلتقي من جديد ياكريكور وإلى اللقاء.

لم نستطع أن نضيف كلمة أخرى إذ خرج معلمه من الدكان وتبعه ابن عمي وفي عينيه لمعة فرح وأمل بأن هناك البعض على قيد الحياة. ومرت الأيام المقبلة والسعادة تغمر قلبي للقاء كريكور ومجرد التفكير بأن هناك أحياء من عائلتي امتلأت أيامي حرارة ومع هذا وجب علي ألاّ أفكر كثيراً فيمن مات منا وخاصة أمي رغم يقيني أنه حسب اعتقادها أنجزت مهمتها في الحياة ولكن غيابها كان يثقل قلبي غماً وكرباً عظيمين.

فكرت هنينهة بأنه على الأقل هناك أختي التي أستطيع أن أراها ونستذكر معاً أيامنا وأعادتني هذه الذكريات إلى قريتي وحاولت أن أتخيل وللمرة الأولى ماقد حل بها ولكن حتى لو سنحت لي الفرصة فلا أعتقد بأنني أستطيع العودة إلى هناك ومجابهة المنظر الذي سأراه لأن الخطر كامن دوماً خاصة بعدما سمعت بأن صديقنا ليفون الذي كان يقيم في مدرسة داخلية ألمانية في خاربيرت لم يستطع مقاومة رغبته في العودة إلى مورينيغ ورؤية منزله وهناك فاجأه جواسيس محمود آغا واعتقلوه في الحال ومنذ ذلك الوقت اختفى دون أن يترك أثراً.

الآن وبعد أن علمت بأن قسماً من أهلي نجا من المذابح أحسست بنوع من الراحة بعد أن تخيلت أسوأ الأشياء ولاح لي بارق أمل بالنسبة للمستقبل ولم يعد منفاي يثقلني ولكن الحرب وإن كانت منسية بعض الشيء كانت دائماً هنا وقريبة جداً منا حيث أدت حالة الغليان التي وجدت فيها المنطقة إلى تخلخل أعمال الحقول وبث القلق في النفوس فقد قيل بأن الروس يتقدمون وأصبحوا قريباً من (إرزنفا) حتى أن أصوات المدافع تسمع حتى كوزات وحل

الذعر في قلوب مواطني برتاغ حتى بلغ بهم العزم على مغادرة القرية. واستغل الأرمن الذين كانوا مختبئين في الجبال فرصة الفوضى العارمة للخروج من مخابئهم والعبور إلى الجهة الأخرى ولكن حتى هذه المهمة لم تكن سهلة لوجوبهم اجتياز منطقة (درزيم) الكردية وكان عليهم معرفة كافة المعابر والطرقات وإيجاد الحلفاء اللازمين. وكانت تكلفة الرحلة (١٥ ليرة ذهبية) والتي كانت ثمن شراء سكوت جندي تركي أو مساعدته للعبور ومن كان يقاوم هذا المبلغ من أجل رحلة يومين رغم أخطارها؟

على أية حال قلة من الأرمن كانوا يملكون المال الكافي لرشوة الأتراك لذا حاول بعضهم الدخول إلى المنطقة الروسية حيث الحرية وأخفق العديد منهم بعدما هاجمهم قطاع الطرق الطامعين في أتفه الأشياء التي كان الناجون يحملونها معهم أو كان يوشى بهم ويسلمون إلى القيادة التركية حيث الموت ينتظرهم في كل الأحوال وكان البعض يجد في القرى الكردية حماية مؤقتة بانتظار الأحداث المقبلة وازدادت موجة الهجرة إلى درزيم حيث الأكراد الذين طالما ساعدوا الأتراك في القبض على الأرمن غيّروا سياستهم وبدأوا يلجئون الفارين والسبب طبعاً في هذا التغيير هو المال والذهب الذي كان يدفعه المساكين طلباً للنجاة.

وليلة أيقظني صوت الدكتور أمين منادياً: محمد، محمد!

- نعم ياأفندي ماالأمر؟

أدركت بأن رغم مركزي المتميز فإن الخوف الدائم كان حاضراً مهدداً بشيء من خطر إلاّ أن طلب الطبيب طمأنني: اذهب إلى المسجد وتقصى مايجري هناك فقد سمعت نفير البوق وأريد أن أعلم ماحدث.

ارتديت ثيابي بسرعة وجريت إلى المسجد رغم أخطار الليل ورأيت فرقة الجنود مجتمعة توزع الأسلحة على أفرادها سألت جندياً كنت قد رأيته في المنزل فأعلمني بأن مجموعة من الأرمن تحاول الهرب إلى الضفة الثانية من نهر الفرات وسنذهب في أثرهم.

في عصر اليوم التالي عادت الفرقة خائبة الأمل دون أن تعثر على أي أثر للأرمن الذين ربما اختبأوا في الجبال الكردية.

عند رؤيتي هؤلاء الجنود فكرت بأنهم هم أيضاً يحصلون على نصيبهم من الشقاء فقد بدوا منهكين، سيئي التغذية وبالطبع يُدفع لهم أجر بخس وحتى لباسهم الرسمي كان بحالة مزرية والآن فهمت لِمَ كان هؤلاء الجنود يبادلون أحمد آغا الخشب والألواح التي كانوا يفكونها من منازل الأرمن لقاء عنب مجفف، قمر الدين أو حتى الخبز.

واقتربت رائحة الحرب أكثر حتى أصبحت حقيقة واقعة كان الروس يتقدمون دوماً دون أن يردعهم رادع ولم يجد أتراك (برتاغ) الهلعين سوى الهرب كحل فوري أما الأكراد فقد بدأوا يتخيلون أنهم ربما سيستفيدون من هذا الوضع.

وأما الناجون الأرمن فقد كانوا يتصورون حلين لاثالث لهما إما أنهم بنهاية الحرب سيعودون إلى منازلهم أو سيصطفون في موكب المنفى الطويل إما سيسمعون أصواتهم أو سيلقون من جديد في عالم النسيان المهم. فقد اتجهت أنظارهم نحو الشرق... نحو القوافل الروسية.

ثورة الأكراد

١٩١٧

أصبح احتلال الروس ١٩١٧ لـ (ارزنفا) قريباً جداً وبدأ قاطنوها بالهرب آملين إيجاد ملجأ في جبال درزيم ولهذا كان عليهم اجتياز الفرات.

كان النهر صعب العبور في هذه المنطقة ولكن لاخيار آخر. وبنى الأكراد من أجل ذلك عوامات من جذوع الأشجار وكان الهاربون يتجمعون عليها مع مؤونتهم وعائلاتهم وأحياناً حيواناتهم في جو موحش ومخيف وكان النهر من الحدة حتى لكأنهم بين لحظة وأخرى سيقعون من فوق العوامات وينجرفون مع التيار ولكنهم كانوا في النهاية يصلون إلى نقطة آمنة.

وأمام جحافل الهرب هذه خطر للأكراد بأنه ربما آن الأوان للقيام بحركة ما على أمل أن يستلم الروس زمام الأمور فأعلنوا الثورة ضد الأتراك.

فقد كان الأكراد محتقرين دوماً من قبل الأتراك الذين يجعلونهم يقومون بالأعمال المهينة والحقيرة فانتصب هؤلاء أخيراً وبدأوا يديرون الطاس.

لكن الشباب الأتراك كانوا أكثر شراسة من كبارهم إذ حولوا حقدهم مرة أخرى نحو الأرمن زاعمين بأنهم سيستغلون الفرصة بالتأكيد للأخذ بثأرهم وسيتعاونون مع الأكراد لتعذيب الأتراك وسيبتهجون لرؤيتهم يضربون بالسوط واعترض الشباب الأرمن بحرارة على هذه المزاعم

مؤكدين إخلاصهم ووفاءهم لأسيادهم وبأنهم لن يخونوهم مهما حصل وبما أن الأتراك لم يكونوا يريدون مشاكل إضافية فقد اكتفوا بأن أعطوا الأرمن ثقتهم الكاملة.

اتخذت حركة الأكراد خطوة هامة فقد انقسموا إلى جماعات مسلحة وبدأوا يهاجمون القرى ويحرقونها وجاء الآن دور الأتراك للهروب ومغادرة منازلهم وحل الهلع في (برتاغ) وطلبت المساعدة من (خاربيرت) وأطلقت السلطات نداء المساعدة إلى الجميع طالبة منهم الانضمام إلى صفوف الدفاع وجاءت أولى فرق النازحين من قرى (هوري)، (هابوسي) و (ألاشاغيرد) بعد أن أخلوا منازلهم، وجاءوا إلى هذه القرية واحتلوا منازلاً كان قد أخلاها الأرمن قبلهم وجاءت أخيراً فرقة مؤلفة من مائة وخمسين خيالاً بقيادة (جان بولاد بيك) لإخماد ثورة الأكراد وعقابهم.

استقبل أهل القرية هذه الفرقة بالتهليل وأووهم في منازلهم محتفلين بقدومهم لحين ساعة الهجوم على الأكراد وفي الصباح الباكر ودعت الفرقة بالأهازيج والتعشم بالنصر الأكيد وعندما وصلت إلى هضبة (مازكيرد) توقفت تتأمل حطام المنازل التي هدمت وفجأة ودون إنذار مسبق تفجر الأكراد من كل حدب وصوب كسيل متدفق ولكثرة عددهم عجزت الفرقة عن القيام بأية حركة لصدمتها من هذا الهجوم المفاجئ وخلال دقائق أخلى الأكراد الساحة كما ملأوها تاركين وراءهم جثث الخيالة مع أحصنتهم وعاد من بقي منهم جريحاً إلى القرية بذل وهوان. كانت هذه المعركة واحدة من مجموعة معارك تمت بنفس الطريقة إذ كان الأكراد يستغلون عنصر المفاجأة للتغلب على خصمهم ناشرين في صفوفه الهلع والشلل وجعلوا من (مازكيرد) منطقة غير مسكونة بإحراقها وكذلك الأمر في (بيري) وكل القرى التي مروا بها مخلفين وراءهم حطام منازل كانت بالأمس مزدهرة.

جعلت قصص الناجين الذين نزحوا إلى (برتاغ) جعلت أهاليها يستعدون بدورهم للرحيل وهكذا بدأ سيدي بحزم المتاع وتقييم الأشياء الثمينة التي أراد أن يحملها معه بأي ثمن. ثم جهزنا المؤونة التي سنحتاج إليها أثناء الرحلة وحملنا الحصان والحمارين أمتعتنا وسلكنا الطريق المؤدية نحو الفرات. وسافر

الجميع باستثناء فائق شاويش والدكتور أمين لغيابهما عن المنزل والحاجة العجوز التي رفضت بعناد مغادرة منزلها. وترك سيدي لديها خادماً شاباً واعداً بأنه سيعود ويقنعها بالرحيل.

كان على النازحين اجتياز نهر الفرات في قوارب صغيرة ولكن ذوبان الثلج أدى إلى ارتفاع منسوب المياه بشكل كبير مما جعل الرحلة أكثر خطورة من قبل ولهذا كان عدد النقلات إثنتي عشر فقط وكان على الآلاف الانتظار على الضفة لحين وصول دورهم وأخيراً بدأنا الرحلة وتقدمنا نحو الجنوب كنت على رأس القافلة أقود الحيوانات وكان الجد ينتقل بين صفوف العائلة يشد من عزيمتها ولكن الأطفال خارت قواهم ولم يعودوا يقوون على المشي فوضعناهم على الأحمال فوق الحمير.

وجلست زوجة الشاويش فائق على الأرض معلنة عدم متابعتها فأخذت الطفل من يدها وتكلم معها أحمد آغا قائلاً: هيا ياأبنائي إنه لمن المهين أن تتعبوا بعد ثلاث ساعات فقط من المسير».

كنت قد لاحظت كسل النساء التركيات أثناء العمل والآن رأيتهن دون شجاعة أو إرادة رغم إن حياتهن في خطر وكأن كلمة (قوة) غريبة عنهن بعد أن اعتدن العيش الرغيد وأكل الحلويات. كيف لاأقارن بينهن وبين نساء قومي أو بالأحرى عائلتي اللواتي أراهن الآن أشجع من قبل ناذرين أنفسهن لعملهن واسرهن دون تذمر أو شكوى بل بروح التضحية؟ كيف لاأفكر بالأمهات اللواتي لم يمشين فقط ساعات بل أياماً وأسابيع ذقن خلالها أبشع أنواع العذاب، وهن منهكات من الجوع والعطش تحت أشعة الشمس الحارقة. هن أيضاً كن يحملن أطفالهن ولكن مع ازدياد عذابهن كن يضمونهم أكثر إلى صدورهن رافضات التخلي عنهم رغم كونهم جثثاً صغيرة بلا حياة أحياناً منتظرين الموت لوضع حد لهذه المعاناة.

قادنا أحمد آغا إلى قبيلة كردية تعيش قريباً من قرية (تشوملاغ) وكان شيخ القبيلة صديق قديم له فذهبنا نطلب الملجأ عندهم واستقبلنا الشيخ بحفاوة وأكد استضافته لنا إلا أن ابنه الكبير كان يراقبنا بطرف عينه باستنكار وكأنه

يرفض وجودنا ولكننا تجاهلنا هذه النظرة وقررنا المبيت عندهم لليلة أو لعدة أيام لحين عثورنا على حل مناسب.

في الصباح التالي وعندما أبلغنا أحمد آغا عن عودته إلى (برتاغ) لإحضار حاجيات أخرى واقناع أمه بالمجيء احتجت النساء بشدة قائلات بأنهن لن يبقين لوحدهن مع هذه العائلة الكردية تحت نظرات الابن المقلقة وهكذا أبقاني عندهن لحين مجيء ابنه فائق لاصطحابهن إلى المدينة.

لكن الأحوال كانت تسير من سيء إلى أسوأ في برتاغ أحضر أحمد آغا معه أكبر عدد ممكن من المؤونة من طحين وبرغل وخاصة الملح لكونه سلعة تجارية هامة وبدأنا من جديد طريقنا نحو النهر ولكن هذه المرة كانت الحاجة معنا وهجرت (برتاغ) آلاف العائلات حاملة معها متاعها ومؤونتها، منتظرة دورها لاجتياز الفرات وكان الطقس الكئيب ينعكس على الوجوه والنظرات الرمادية.

كان الأكراد يهاجمون قوافل الأتراك ويقتلون في صفوفهم دون رحمة وعلى أية حال الكثير ممن وصلوا إلى الضفة كانوا يأتون بحالة مذرية بعد أن يسرق كل متاعهم.

كان العبور صعباً جداً في هذا الوقت من العام بالإضافة إلى الجهد الكبير الذي كان يبذله العمال لإبقاء القوارب متوازنة تحت ثقل الأحمال ولهذا كان على المسافرين أن يخوضوا المياه حتى خواصرهم قبل الوصول إلى القارب محاولين إبقاء صررهم على رؤوسهم خشية وقوعها في الماء.

وصل دورنا أخيراً وبقي أحمد آغا على الضفة لمراقبة متاعنا وبدأنا أنا والشاويش فائق بتحميل الأغراض ووضع على كتفه كيسه الأثقل وتبعته حاملاً أنا الآخر أكياساً ثقيلة وكان المعاون ينتظرنا لأخذ الأغراض عن أكتافنا ولحظة وصول الشاويش فائق عنده جاء تيار قوي أفقده توازنه لكنه استطاع مع ذلك رمي الكيس على طرف القارب وخلال ثوان رأيته يغرق في الماء ومما زاد الأمر سوءاً اختلال طرف القارب واصطدامه برأس الشاويش ووقوع الكيس على رأسه وأدركت لحظتها بأن معلمي الذي أنقذني من الموت يغرق هاهنا أمام عيني واعين جميع من حوله ولاأحد يبالي أسقطت أحمالي بسرعة

وارتميت نحوه أزحت كيس الملح الذي كان يسحقه واستطعت إمساك يده وبيدي الأخرى تعلقت بطرف القارب لم أكن أعرف السباحة ونجحت في سحبه حتى خاصرته خارج الماء إلى أن جاء أحمد آغا وانتشلنا بيد قوية وارتمينا منهكين على الضفة.

عندما عاد إلى وعيه تحت تأثير أعمال والده الذي روى له بغضب ماحدث نهض الشاويش بسرعة واتجه نحو المجموعة رامياً عليهم أنواع الشتائم ثم التفت نحو المعاون قائلاً بأنه لايستحق هذا المنصب وهدده بأنه سيستعمل قواه لطرده من عمله وعندها عاد إلينا ربت على كتفي وأعلن بابتسامة واسعة:

«هل ترى يامحمد كيف سارت الأمور؟ لانستطيع حتى الاعتماد على إخواننا بالدين. أما أنت، أنت الخادم الذي يعتبرونك (غير مخلص) أنقذت حياتي، منذ البداية علمت بأنك جاد ومخلص والآن استحوذت على إعجابي بكامله، أنقذت أنا حياتك وفعلت أنت المثل وأصبحنا الآن عادلين أليس كذلك؟ أصبحت برتاغ الآن خاوية من ساكنيها وكان هدف الأكراد ليس فقط إجلائهم بل نهب كل شيء يجدونه حتى الحيوانات المسكينة جمعت وأخذت إلى الجبال والويل لمن يقاوم من الأتراك فقد كان يذبح دون رحمة ويحرق منزله حتى يصبح رماداً.

أرسلت السلطات نداءات متواصلة للتعبئة العامة وجاء قسم من المجندين بقيادة بعض المدافع قرب خاربيرت لكنهم لم يكونوا يجرأون على الخروج من مواقعهم وكانوا يكتفون بإرسال عدة طلقات عشوائية لم تحصد أية ضحايا في صفوف الأكراد الذين كانوا يتابعون الاحتلال بخطى سريعة.

بقيت إلى جانب أحمد آغا وزوجته في تشولماغ بينما ذهبت النساء مع أطفالهن بصحبة فائق وأمين إلى مزيريه وكان أحمد آغا يتقبل بصعوبة واقع المنفى هذا إذ كان من العسير جداً أن يُطرد على يد الأكراد ويلجأ عند واحد منهم خاضعاً لأمره وبدت هذه الحالة متناقضة مع ماكان الأتراك يعتقدونه إذ كانوا يعتبرون بقية الأعراق دوناً عنهم ولكن هذه الإهانة لم تمنعهم من تحين الفرص. وبقينا على هذا المنوال أياماً غير محددة وكنت أقوم بدور الساعي بين أحمد آغا وأبنائه أجمع الأخبار وأطمئن كل فريق عن الآخر.

كان الأكراد لايستقرون في الأمكنة التي كانوا يحتلونها إذ كان هدفهم الأساسي الهدم فقط واحتلال الثروات فقد حطموا في برتاغ كل المنشآت العامة. كنت أحياناً أثناء انتقالي من مكان إلى آخر أصادف بعض الجنود الأتراك وحين كنت مرة في طريقي إلى الجبل أوقفني اثنان منهم:

«هيه أيها الشاب ألست أرمنيا؟»

أحسست بأن الزمن توقف من حولي لأن هذا الشك سيقودني حتماً إلى الموت ولكن أني لهم أن يعرفوا هويتي فأنا بمظهري وحديثي كنت أبدو تركياً محصناً ولهذا أجبتهم بثقة تامة:

ـ أنا تركي مثلكم، اسمي محمد من عائلة عبدالله أورلي ونحن من برتاغ وإذا لم تصدقونني هاكم وثيقتي.

وأخرجت الوثيقة ومددتها إليهما لكنهما لم يقتنعا وتابع أحدهما قائلاً:

ـ لانصدقك ربما تكون هذه الوثيقة مزيفة ولكن إن كنت تركياً حقيقياً أرنا علامة ختانك.

وأدركت لحظتها بأنني هالك لامحالة ولكنني كنت مستعداً أن ألعب حتى النهاية وهكذا بدأت بحل حزامي بكل هدوء قائلاً:

ـ اسمعوا يارفاق إنكم حذرون لأقصى درجة، لماذا تضعونني في هذا الموقف المحرج دون سبب ولكنني لن أدعكم تشكون بي ولو حتى قليلاً.

وتابعت حل سروالي فقال الأول للثاني: إنك تبالغ جداً ترى الكفار من حولك دائماً، بأي حق نشك في هذا التركي؟ اذهب ياصديقي تابع طريقك. وأدرت ظهري بهدوء وتابعت سيري بخطوات ثابتة وبعد أن أصبحت على مسافة آمنة توقفت وارتميت على الأرض ساحباً نفساً طويلاً ولكن ذلك لم يمنعني من لعن هذا الجندي الذي وضعني في هذا المأزق.

جاءت إلى برتاغ فرقة مدعومة بقيادة (شوكت بك) ولكن هذا الدعم كان متأخراً إذ بعد أن نهب الأكراد القرية وجعلوها حطاماً تركوها مفتشين عن قرية أخرى. وسرعان مابدأت قوافل النازحين بالعودة إليها إذ كانوا قلقين لمعرفة فداحة خسائرهم وحثثت بدوري أحمد أغا على العودة إلى القرية لكنه كان

حذراً ويخشى ردة فعل الأكراد ولهذا فضّل إرسال رسالة إلى ابنه فائق يطلب منه أن يأتي شخصياً لاصطحابهم عندما يرى الفرصة مواتية للعودة وبعد فترة جاء فائق معززاً بجندي أخذنا من جديد طريق الرجوع وكان الجنود يحتلون قسماً كبيراً من ضفة النهر وكانوا يستغلون القوارب لأعمالهم الشخصية واستطاع فائق بنفوذه وبقليل من الليرات الذهبية حجز قارب لنا وهكذا اجتزنا النهر براحة تامة واهتم الجنود شخصياً بحاجياتنا.

كنا قلقين حتى الموت لحظة دخولنا القرية إذ توقعنا رؤية حطام المنازل ولكن الأغلبية منها كانت على حالها باستثناء الفوضى العارمة بداخلها وعند وصولنا منزلنا تنفسنا الصعداء لأنه كان سليماً إلاّ أن الأثاث والأشياء الثمينة كانت قد سرقت ، وهكذا بدأ الأهالي بالعودة رويداً رويداً إلى مساكنهم لإصلاحها ومتابعة أعمالهم المعتادة، لأن موسم الحصاد كان قد آن.

واستعادت فرق (شوكت بيك) سلطتها وبدأت حملة المطاردة وعقاب كل من تجرأ بالتمرد على السلطة التركية وعززت القوات وبدت مستعدة لوضع اليد على المتمردين. وبدأت الحملة المعاكسة على الأكراد وهاجمت كل القرى الكردية وأحرقت منازلها ولكن القرى كانت خالية من ساكنيها إذ جمع الأكراد كل حاجياتهم الثمينة ومواشيهم والتجأوا إلى مناطق جبلية صعبة المنال.

وهكذا حولت الفرق اتجاهها نحو (مازكيرد) وفيها كان الأكراد أبرياء من كل أعمال العنف التي شهدتها المنطقة حتى أنهم عانوا من قساوة مواطنيهم كونهم موالين للسلطة التركية ولكن الفرق بحجة أنه لم يعد هناك أي تركي في المنطقة أحرقت القرية بعد أن جمعت الأهالي وأرسلتهم إلى المنفى.

أما الأكراد المختفين فقد كانوا دوماً غائبين عن الأنظار حتى عند سماعهم خبر إلقاء القبض على إخوانهم وإعدام بعضهم لم يتحرك فيهم ساكن وهكذا صب الأتراك جام غضبهم على الأبرياء ورّحلوهم عن قراهم وبدأ الجميع يشمت بموقفهم قائلين (لكل دوره) واستغل أحمد آغا الفرصة واستطاع شراء بقرتين وثور بمئة قرش «عشر القيمة الحقيقية) كما أنه أحضر معه طفلاً في العاشرة من عمره كخادم للمنزل. ولحظة رؤيتي الطفل أدركت أنه أرمني فقد

كانت بشرته أفتح من بشرة الأكراد وكانت قسماته دقيقة ونظرة عينيه تقول بأنه ليس كردياً لكنه لم يكن يعلم أو بالأحرى يجعلون أنفسهم لايعلمون ماأقسى أن يتجاهل فرد أصله ويصبح منسياً ومطوياً في صفحة الزمان؟.

وكالعادة تابعت تنقلي بين برتاغ ومزريه ورغم ذلك لم أكن أستطع رؤية منظر النهر كلما مررت في جانبه فالجثث المتجمعة حول ضفتيه شكلت هضاباً بشرية وتلالاً من النساء والأطفال والشيوخ الأكراد إذ بعد السير الطويل دون غذاء بالإضافة إلى المعاملة القاسية رموا بأنفسهم منهكين على ضفاف النهر دون أن يقووا على النهوض. ففي منتصف الطريق كان أنين امرأة يقطع الأوصال وعلى مقربة منها امرأة أخرى لاتزال واقفة تحاول أن تساعد رفيقتها ولكنها وقعت بمكانها جثة هامدة، وكانت صبية يافعة مستندة على جذع شجرة ممسكة يد أمها التي افترشت الأرض وهي تردد بصوت مثير للبكاء «يالهذا العالم الفظيع...».

على ضفة الماء شاهدت منظراً لايصدقه عقل فبين الجثث الهامدة كانت فتاة شبه عارية تحاول انتشال جسدها من الماء ولكن ماإن حاولت القيام بذلك حتى اكتشفت عريها وتذكرت كيف نال الجنود منها ورموها بوحشية في النهر، فعادت إلى النهر لتغرق.

كان الأتراك يمرون من جانب النهر دون أن يعيروا اهتماماً لهذه المأساة ولكنني لم أكن أقوى أن أرفع عيني عن هؤلاء الأموات وكان النهر يحمل معه أحياناً جثث الأرمن الذين انجرفوا مع التيار وكان جسدي يرتجف من هول المنظر وأحسست بالثورة تنطلق من داخلي ولكنني تمالكت أعصابي وتساءلت إذا ماكانت وحشية العالم كلها قد أفرغت في هذا النهر.

وأخذت مكاني على القارب وحاولت أن أبدو لامبالياً في حديثي مع الآخرين قائلاً:

«إنه لمثير للاشمئزاز أن ترى كل هذه الجثث تتجمع في هذا النهر دون حتى أن تتخلصوا منها أليس كذلك؟»

وأجاب المجدف:

بما أنه كان لديهم الفكرة أن يأتوا إلى النهر فالتيار سيتكفل بأن يجرفهم معه

على أية حال لم ينالوا إلا ماكانوا يستحقون ولانستطيع أن نفعل شيء إزاءهم خذ مثلاً هذه الفتاة كانت حية قبل خمس دقائق لكنها الآن لاتتحرك».

مدركاً خطر الاستمرار في الحديث استطردت قائلاً:

ـ «ولكن هذا التصرف لايليق بالجنس البشري إذا كان الأرمن كفاراً فالأكراد مسلمون كالأتراك»؟

ـ «صحيح بأن الأرمن غير مخلصين ولكنهم يصلحون لخدمتنا أما الأكراد لايستحقون حتى أن يكونوا خدام خدامنا لايعرفون أي قانون. دامت قوافل الترحيل هذه خمسة عشر يوماً ومات الكثير على الطريق كالحيوانات وكأن الشعب التركي أراد أن يلقنهم درساً لاينسى ولم يصل من الأكراد إلى هدفه سوى القلة القليلة ولم يكن هذا الهدف سوى سجن خاربيرت الذي يستوعبهم بالطبع جميعهم.

وهكذا بلغت الثورة الكردية نهايتها وبدأت من جديد موجة النسيان.

.... وتستمر الحياة

بقيت آثار الخراب الذي خلفه الأتراك ظاهرة في برتاغ وخاصة المنشآت العامة التي عانت من الغزو فالبناء الحكومي هدّم تماماً ونقلت دار الشرطة إلى حي آخر، أما المخازن فكانت في حالة يرثى لها مما جعل الباعة يحضرون بضائعهم معهم صباحاً ويرجعونها إلى منازلهم ليلاً.

وبدأت الحياة اليومية تأخذ مكانها شيئاً فشيئاً رغم ثقل المهام الملقاة على عاتق الجميع وخاصة بسبب تقدم معلمي بالسن من جهة واستقرار ابنه الدكتور أمين في مزيريه بعد أن عثر على عمل في المستشفى من جهة أخرى وأما الشاويش فائق فقد نال مرتبة أعلى وأصبح لديه مسؤولية وزارية خاصة ودخل مسابقة مع ثلاثين شرطياً آخرين ونجح فيها وكان من وقت لآخر يقص علينا مايجري في مقر عمله الجديد وكيف أنه أصبح مسؤولاً على مئة شرطي خاصة في هذا الوقت الصعب حيث كان يجمع مصاريف المجندين ومؤونتهم من الفلاحين الذين بدأوا يشتكون من ثقل الضرائب على أكتافهم مما جعلهم يخفون حقيقة ما يربحون من محصولاتهم أو يخبئون جزءاً من بضائعهم ليتهربوا من الدفع المستمر وهكذا كانت الشرطة تداهم بيوتهم ومخازنهم أحياناً للعثور على البضائع المخبأة تحت ستار (المصلحة العامة) وبسرعة وجد رئيس الشرطة لفة للتفاهم

مع الفلاحين وهي أن يتغاضى عن تهربهم شرط أن يدفعوا له ثمن سكوته وهنا أيضاً كان بعض الفقراء يجدون أنفسهم في مأزق لعدم توفر المال الكافي للرشوة وهكذا كانوا يساقون أمام القاضي الذي كان بطريقة مايحصل على نصيبه وهلمّ جراً... لذا كان من واجب المسؤولين الحفاظ على ميزانية معينة لتقاسم الرشاوي فائق نفسه مثل أمام القاضي يوماً بتهمة التباين الكبير بين مايقبض من بضائع ومايسلم منها وبرىء من هذه التهمة بعد أن دفع للقاضي كيسين كبيرين من التبغ ولمعاونه كيساً من اللوز الحلو واكتشفت من خلال مهنة معلمي الجديدة كم هذه الأمور منتشرة أكثر مما كنت أتخيل وكان الجميع يتغاضى عنها وكأنها شيء لايذكر.

«عند عودتي إلى برتاغ لم أعثر على أقربائي أو أصدقائي البعض منهم رحل بعيداً عن القرية والبعض الآخر لقي حتفه، هذا ماقاله لي (كابريل أسادوريان) وهو شاب مقيم في المدرسة الألمانية في خاربيرت تعرفت عليه أثناء تنقلاتي المستمرة إلى مزيريه، وينحدر من عائلة ثرية فقد كان أهله يتاجرون بالأقمشة في المدينة ويملكون بيتاً فخماً في مورينيغ، كابريل نفسه تابع المهنة واستفاد من الأرباح دون أن يتأثر بالأحداث الماضية وكان يلقب بالحج كابرييل لأنه زار الأراضي المقدسة رغم صغر سنه مع أهله واكتشفت بأننا متشابهان في نواح كثيرة مما ذكرني (بهايكاز بونابارتيان) الذي تعرفت عليه قبل سنتين والذي للأسف لم تدم صداقته طويلاً. وجدت في صداقتي مع كابريل عزاء فهو رغم ثرائه كان انساناً متواضعاً وكان دائماً يحيطني بالأخبار ويحاول أن يصوّر لي مستقبل الشبان الأرمن وماعليهم أن يفعلوا للحفاظ على هويتهم.

بقي في برتاغ الكثير من اليافعين الذين لاأعرفهم والأغلبية منهم كانوا لايزالون أطفالاً من بينهم طفلان بائسان اعتاد أهل القرية على رؤيتهما دوماً معاً يداً بيد منذ بداية الأحداث لم يكن أحد يعلم قصتهما ولا كيف أتيا إلى هنا فقط كانوا أحياناً يرمون لهما قطعة من الخبز أو بعض الفاكهة وكانا يعيشان في شبه كهف لايقيهما برد الشتاء ولاحر الصيف إلاّ أنهما بأعجوبة كانا ينجوان من جميع المخاطر وكأن يداً سحرية تحميهما وكنت أحياناً أدخلهما إلى غرفتي عندما يشتد البرد وأعطيهما مايقع تحت يدي من طعام. كان اسم الأكبر حسان وكان يدعي بأنه في

العاشرة من عمره إلاّ أنه كان يبدو أكبر من ذلك وعندما كنا نسأله عن اسمه الأرمني كان يصمت ويردد بأنه حسان فقط وأما الصغير فكان يدعى مهران، رغم أنهما لم يكونا أخوين إلاّ أنهما كانا متشبثين أحدهما بالآخر وعندما هاجم الأكراد برتاغ اختفى الصبيان ولكنهما عادا إلى الظهور عند عودة الأهالي إلى القرية وكأن الأحداث الماضية لم تؤثر بهما لا من بعيد ولامن قريب وكان أهل القرية يستخدمونهما أحياناً في القطاف ويعطونهما جزءاً من الفاكهة كأجرة.

وبينما كنت يوماً عائداً إلى القرية التقيت بفتاتين صغيرتين تبكيان على قارعة الطريق اقتربت منهما بهدوء حتى لاأخيفهما ثم سألتهما بالتركية فأجابتني الصغرى بتحشرج:

«كنا جائعتين ولم نأكل منذ يومين وقبل قليل أعطتنا امرأة قطعة خبز لكنها سقطت في النهر وجرفها التيار ولم أستطع التقاطها وهكذا أضعنا غذاءنا».

أحسست بموجة حنان تطغى على كياني فاقترحت عليهما قائلاً: اسمعا اتبعاني على مسافة قريبة وعندما أدخل ذلك المنزل انتظرا دقائق ثم اقرعا الباب فربما يحتاج معلمي إلى جليسة أطفال لتهتم بأحفاده، لاأعدكما بشيء ولكن ربما واحدة منكما تعثر على مكان لها في المنزل.

وكما اتفقنا طرقنا الباب بعد لحظات فتظاهرت بأنني أنهرهما قائلاً:

«بدلاً من البكاء تستطيعان أن تقولا ماذا تريدان من أهل هذا المنزل».

وشد صراخي انتباه معلمتي فاقتربت وبدأت بتفحص الصغيرتين ثم قالت لهما:

- «من أنتما وماذا تريدان؟»

- نحن يتيمتان من تشارزانجار إذا أردت نستطيع أن نعمل في منزلك.

لم تجبهما (الهانم) بل أدخلتهما ثم أحضرت طبقاً فيه بقايا طعام ووضعته أمامهما، بقيت الطفلتان ساكنتين أمام الطبق وكأنهما تخشيان الاقتراب وبعد لحظات تجاسرت الصغيرة ومدت يدها ووضعت لقمة في فمها وأتبعتها بأخرى.. أما الكبيرة فقد ظلت مترددة وكأنها تود أن تدع حصتها لشقيقتها

الصغرى وانتبهت (الهانم) لذلك وقالت لها: «عليك أن تقتاتي وتفكري بنفسك وعلى أية حال أستطيع أن أبقيك أما هي فعليها أن تجد مكاناً آخر»

فأجاباتها بتوسل «ياهانم أرجوك لاتفرقينا فنحن لاعائلة لنا وليس لأختي سواي، أرجوك أعطنا فرصة حتى أجد لها منزلاً آخر».

قطعت توسلاتها بجفاف قائلة:

«ماذا ألا يكفيك بأنني سآويك تريدين الاشتراط علي أن آوي أختك انظري مئات الأطفال دون مأوى كيف يدبرون أنفسهم، هناك صبيان يعيشان في كهف قريب تستطيعين أن تدعي أختك عندهما». ووجب علي التدخل حتى أقنع الكبرى بأن هذا هو الحل الأنسب لكليهما وأخيراً رافقت الصغيرة بنفسي حتى ملجأ الصبيين وأودعتها هناك واعداً إياها بأنها تستطيع الاعتماد علي وبأنني سأجد لها عائلة تحتضنها ولكنني شككت في ذلك إذ من يريد أن يحتفظ بفتاة لاتقو على حمل نفسها؟

بقيت الكبرى لدينا عدة أيام ثم طلبت الرحيل غير محتملة فراق أختها وكان منظر لقائهما لايوصف إذ كانت الصغيرة واقفة قرب السياج كعادتها منذ أن اشتغلت أختها في المنزل وخرجت هذه للقائها محتضنة إياها وهي تبكي ثم وضعتا يداً بيد وابتعدتا عنا وبقيت أرقبهما حتى اختفت ظلالهما على الطريق وأحسست بالذنب لأنني تركتهما ترحلان ولكن أنا الآخر كنت يتيماً وأحتاج إلى من يرعاني وأدركت لحظتها بأنه هذا هو مصير شعب بأكمله (التشتت في غبار الزمن).

أثناء الصيف تفشى وباء (التيفوس) في القرية حاصداً معه عشرات الضحايا ومما زاد الطين بلة تفشي وباء آخر في الحيوانات مما أدى إلى نفقتها بالجملة ولم تنج عائلة أحمد آغا من الوباء إذا توفت أولاً زوجته ثم حفيده ابن فائق أفندي ولم يفد العائلة وجود طبيب بين أعضائها إذ في هذه الفترة بالذات كان الطبيب أمين في خاربيرت يزاول مهنته في المستشفى المركزي إلاّ أن إعجابه بممرضة أرمنية أدى إلى منافسة حمقاء مع طبيب تركي آخر الذي استطاع بمكر ودهاء إلصاق تهمة كاذبة بالطبيب أمين مدعياً بأنه على علاقة شائنة مع إحدى الممرضات أثناء

الدوام الرسمي مما أدى إلى تدخل رئيس المستشفى بالذات وعقاب الطبيب أمين بإرساله شهرين إلى مستشفى آخر في قرية بعيدة ولهذا لم يستطع السهر على مرض أمه أو ابن أخيه.

غداة أحد الأيام وبينما كنا نعمل أنا وأحمد آغا في الحقل كعادتنا طلب مني أن أهتم بالحقل الآخر إذ بعد رحيل الأرمن استملك الأتراك الكثير من الأراضي وبالنتيجة زادت مهامي واتجهت نحو الحقل الآخر تاركاً إياه يتابع أعماله وبعد فترة جاءت حفيدته تطلبه فأشرت لها إلى مكان وجوده وعدت إلى المنزل لآكل لقمة أسد بها رمقي ثم أعود إلى الحقل وعادت الصبية مكررة بأنها لم تجده فأكدت لها بأنني تركته يعمل هناك وذهبت معها للتأكد بنفسي ولدهشتي لم يكن في المكان الذي تركته فيه عندها سمعت مصطفى يناديني قائلاً: محمد محمد تعال فإن معلمك ميت هنا قرب الصخرة:

هرعت إليه ووجدت أحمد آغا جالساً على الأرض وكأنه نائم وخلال لحظات تجمع أهل القرية حولنا وسمعت أحدهم يقول:

ـ انظروا إلى هذا الخادم الأرمني يتظاهر بأنه لايعلم شيئاً على الأقل وجب عليه أن يخبرنا!

وأردف آخر:

ـ هذا هو طبع الأرمن يصبون حقدهم على الضعفاء صحيح أنهم كفاراً وليسوا أهلاً للثقة

وتتابعت هذه الهمهمات متهمة إياي بقتل أحمد آغا إلى أن جاء أخيه (نامق أفندي) ليهتم بالجثة فصاح أحدهم:

ـ ربما سرق هذا الخادم حلي العجوز وماله وبينما هم يتبادلون الآراء حول كيفية قتلي إياه جاء شاب من الحقل المجاور وأسكتهم قائلاً:

ـ كنت أعمل في حقل البطيخ عندما ترك هذا الخادم معلمه وذهب إلى الحقل الآخر ثم شاهدت أحمد آغا يأتي قرب الصخرة ليرتاح قليلاً واعتقدت بأنه قد نام.

وهكذا أنقذتني شهادة هذا الشاب من تهمة حاول إلصاقها بي أهل القرية

ليس سوى لأنني أرمني. ونقلنا أنا و(نامق أفندي) جثة أخيه إلى المنزل وأعلنا الحداد مرة أخرى.

ووجب علي السفر ليلاً لإعلام ابنيه فائق وأمين وارسل معي (نامق أفندي) صبياً تركياً كرفيق طريق.

ووصلت باكراً إلى الثكنة التي يبقى بها فائق أفندي وبصعوبة استطعت أن أتصل به وكم كان حزنه عميقاً عندما أخبرته وقرر العودة فوراً إلى القرية مع الصبي أما أنا فتابعت طريقي نحو مستشفى (سلطانيا) للقاء الطبيب أمين وبعد لأي استطعت العثور عليه وأتى للقائي مسرعاً:

ـ آه هذا أنت يامحمد! ماالذي أتى بك! أرجو ألا يكون خبراً مزعجاً!

وتملكني صمت رهيب عندما رأيته بهذه البهجة لرؤيتي وكأنه أحس بحالي فسألني بجدية:

ـ ماالأمر يامحمد؟ تكلم

عندما أخبرته بوفاة أبيه امتقع وجهه وبقي صامتاً للحظات وكأنه يكرّم أبيه بهذا الصمت، أشحت ببصري حتى لاأزعج تأمله لكنه سرعان ماالتفت إلي مستفهماً من التفاصيل وعن آخر اللحظات التي عاشها قبل موته فرويت له كل شيء دون أن أنسى كيف اتهمني أهل القرية بقتل العجوز فاحتج الطبيب قائلاً:

ـ هراء، فأنت أهل للثقة تماماً وتأكد بأننا نعتبرك فرداً من عائلتنا ولن نجبرك على أي شيء بالعكس نحن نحاول أن نثبت بأننا نستطيع أن نتعايش دون أية مشاعر عدائية، ثم تمهل وكأنه يبلغني خبراً خطيراً، الآن وبعد وفاة أبي أعتقد بأنك مدرك تماماً بأن الواجبات المنزلية أصبحت ضمن مسؤوليتك الكاملة بما أننا أنا وأخي مرتبطان بأعمالنا الشخصية سوف نعتمد عليك بأن تكون حارس منزلنا وراعيه.

ثم اصطحبني للقاء الدكتور (خورين) وهو طبيب أرمني مايزال يحتل مرتبة عالية في المستشفى رغم أحداث السنتين الأخيرتين، وعند رؤيته بادره أمين قائلاً:

ـ خورين سأطلب منك خدمة، توفي أبي وعلي أن أذهب حالاً إلى القرية

لحضور مراسم دفنه هل تستطيع أن تؤمن لي إجازة لبضعة أيام؟ هذا محمد خادم عائلتنا شاب أرمني سيعيد عليك ماقاله لي.

ثم التفت لي قائلاً هيا يامحمد استغل الفرصة وتكلم مع الطبيب خورين بالأرمنية.

بدأت روايتي بكلمات مضطربة وكأنني أحاول أن أتذكر لغتي ومالبثت أن بدأت أخلط كلمات تركية في حديثي وأنهيت كلامي مستخدماً التركية فقط وكم شعرت بالخجل يعتريني إذ فوجئت بأنني وبعد سنتين فقط من عدم استخدامي لغتي الأم نسيت مفرداتها وأدركت بأنني خلال سنوات قادمة ربما أنسى تاريخي وثقافتي الأرمنية تماماً.

بعد ساعة انطلقنا نحو القرية وكانت قدماي لاتقويان على حملي فأنا خلال ٢٤ ساعة قطعت المسافة بين (بيرتاغ) و(خاربيرت) ذهاباً وإياباً ولهذا وضعني الطبيب أمين خلفه على الحصان مدركاً تعبي.

جرت مراسم الدفن في اليوم التالي وكان المنزل مليئاً بالمشيعين وأحسست بأنني قريب منهم وغريب عنهم تماماً ولكن الشقيقان كانا يعتمدان علي في كل شيء وكان هذا مدعاة للفخز ولكن في نفس الوقت شعرت بأنهما يطلبان الكثير مني لأن الأعمال كانت متراكمة وليس هناك من يساعدني. رغم أن أحمد أغا لم يكن من النوع المتسلط إلا أنني كنت مسروراً للقيام بالأعمال على طريقتي وكان علي أن أذهب إلى (تشارزانجار) بين حين وآخر لأقدم تقريراً (لفائق أفندي) عن الأعمال والمحاصيل وأخبار العائلة مما جعلني أن أكون دائماً في تنقل مستمر بين القرى وكنا أنا وفائق على اتفاق مستمر ولم أكن أتخيل بأنه سيأتي يوم سيتغير فيه كل هذا.

عودة إلى الخلف

توقفت أمطار الخريف وقصرت الأيام معلنة قدوم الشتاء، فاجأني الليل المعتم على طريق العودة إلى القرية ولم أجد بداً من قرع أبواب المنازل حتى ألتجئ إلى أحدها بانتظار النهار وطبعاً لم يفتح لي أحد إلاّ أنه في النهاية استقبلني أحدهم في منزله المتواضع، كانت العائلة تتأهب لتناول الطعام الذي بدا لي هزيلاً جداً وخطر لي بأنني ربما أحرجتهم بقدومي المفاجئ فقلت لهم لأطمئنهم أشكركم لاستقبالي بينكم، أرجوكم تناولوا طعامكم فأنا لدي ماآكله وإذا أردتم أستطيع أن أنام في المكان الذي تضعوني فيه».

ارتاحت قسمات مضيفي لكلماتي ثم دعاني بابتسامة إلى مشاركتهم الطاولة ودبت الحياة بقدومي إلى هذا المنزل الكئيب وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث وفهمت بأنهم أكراد لكنهم عانوا كثيراً من الأحداث الماضية وخصوصاً بعد الثورة الكردية التي أودت بممتلكاتهم. وعلقت بدوري على مجريات الأمور وشرحت لهم فلسفتي قائلاً:

«أعتقد بأن كل واحد عانى من هذه المجازر وأخذ نصيبه من البؤس ولكن فضلاً عن الخسائر المادية التي برأيي بالإمكان تعويضها أرى بأنها لاشيء أمام هذه الأعداد الهائلة من القتلى الذين ذبحوا دون سبب» ثم أفصحت بأنني أرمني، هم بدورهم قالوا بأنهم أكراد وبأن لديهم الكثير

من الأصدقاء الأرمن حتى أن إحدى كناتهم أرمنية من عائلة (حالاجيان) وبأنها في الغرفة الأخرى مع نساء المنزل.

استيقظت باكراً صباح اليوم التالي وودعت مضيفي شاكراً حسن استقباله قبل أن آخذ طريق العودة دفعتني رغبة عارمة أن أتجول في شوارع القرية فقد كنت أحتفظ فيها بذكريات جميلة إذ لطالما أتيت هنا قبل أن تنفجر قنبلة المأساة قبل ثلاثة أعوام وغمرني حزن عارم وأنا أمشي في طرقاتها المهجورة ومنازلها المهدمة أين هي تلك القرية المأهولة بالسكان حيث كان يختلط الأرمن مع الأكراد دون تفرقة! أذكر جيداً كيف كان أهل هذا الحي يشوون عجلاً كل سبت ويدعون الجيران والأصدقاء لمشاركتهم الطعام في جو من الفرح والبهجة، كل هذه الحيوية ضاعت من أجل إطفاء شعلة الحقد والكراهية في قلوب الأتراك!

وقادتني قدماي نحوالمدرسة الأرمنية حيث كنا طلاباً نعقد اجتماعات متبادلة ونمارس النشاطات المختلفة وراعني منظرها المهدم الحزين وبجانبها حطام كنيسة كانت تشع نوراً في زمن سابق.

وتابعت طريقي نحو الحي التركي حيث عاث فيه الأكراد خراباً وقلت في نفسي: هذه الخسائر لم تصب الأتراك بشيء ومعاناتهم لاشيء أمام معاناة شعبي الذي خسر كل شيء أما الأتراك فهم ربما الآن ينعمون بالدفء في منازل كانت ملكاً للأرمن بانتظار أن يعيدوا كل شيء إلى مكانه.

لم يبق أمامي سوى أن أسدل الستارة على ذكريات حزينة وأعود إلىواقعي الأليم وأتابع مسيري نحو قرية (بيري).

أنجزت أعمالي في القرية ثم أخذت طريق العودة إلى (بيرتاغ) مصطحباً معي صبياً يافعاً وخادمة عُهِدَ بهما إلي وطلب مني معلمهما أن أسلك طريقاً مختلفاً الأمر الذي ضايقني لأنني كنت معتاداً على الطرقات المعهودة وكنت حراً في أن أغير طريقي متى شئت خاصة أثناء تقلبات الطقس أما الآن فكان على أن أطيع لأنه إن حصل شيء فسوف أكون مسؤولاً عن مخالفة الأوامر. كان مسير المرأة البطيء يعيق تقدمنا وخشيت أن يداهمنا الليل خاصة وأنه كنا في منطقة غير مأهولة بالسكان

وبدأت فعلاً أقلق عندما تراءت لعيني من بعيد أنوار قرية صغيرة ولكن ماإن اقتربنا حتى فوجئت بأن هذه القرية لم تكن سوى منزلين متجاورين ذي منظر غير مشجع أبداً. مع ذلك اقتربنا من المنزل الثاني المضاء بخفوت وبصعوبة عثرت على الباب الخشبي وقرعت الباب دون أن أجاب لكنني أحسست بحركة داخل المنزل فناديت قائلاً:

«نحن مسافرون داهمنا الليل وبيننا امرأة متعبة هل تستطيعون إيواءنا حتى الصباح؟»

وعندما لم أسمع جواباً تابعت بصوت عال:

«لن نطلب منكم طعاماً فمعنا مايكفينا فقط نريد إمضاء الليل» وهذه المرة أجابني صوت غاضب:

«قل ماتريد فنحن لن نفتح لك الباب»

أحسست بقلبي يغوص في قلق عظيم فأنا لم أعبأ لحالي لكنني كنت أفكر بهذين الخادمين فهما لن يناما بالطبع بالعراء، ماذا إذا اشتكيا لمعلمهما قائلين بأنني لم أهتم بهما؟، سوف أتهم بسوء المعاملة وخطرت لي فكرة فناديت مرة أخرى أهل المنزل «اسمعوا المرأة التي ترافقني تخدم في بيت موظف حكومي كبير في برتاغ وإن لم تأووها فسوف تذهب وتشكو لسيدها»

وهنا أجابني الصوت «إذا كان كلامك صحيح فلتؤكده لنا الخادمة»

أخيراً وبعد توسطها فُتح الباب بحذر في البداية واستقبلنا المضيف ببندقية مصوبة وعندما اطمأن لمنظرنا اعتذر قائلاً بأنه هوجم مرتين من قبل قطاع طرق بحجة أنهم مسافرون تائهون لهذا توخى الحذر من ناحيتنا.

في صباح اليوم التالي استأنفنا طريقنا وحرصت أن أسلك الطريق الذي حُدد لي ألا وهو محاذاة النهر لكن على علو مرتفع أي يجب أن نسلك الطريق الجبلي وبعد أن قطعنا مسافة طويلة انتبهت بأن الطريق بدأ يضيق شيئاً فشيئاً وأحسست بأن هناك خطأ ما، ألا يعرف من دلني هذه الطريق بأنه مسدود؟ ومرّ بخاطري فجأة فكرة أنه ربما في الأمر فخ أو امتحان ولكن لماذا؟ مرة أخرى أدركت بأنه علي أن أتخلص من هذا المأزق مهما كان الثمن وحافظت على هدوئي حتى لايقلق مرافقاي واستندت على الجدار الجبلي

وبكل ثقة قلت لهما بأنه علينا آن نجتاز هذا الممر بهذه الطريقة وبدأنا خطوة فخطوة ممسكين يداً بيد نعبر متفادين المنظر إلى الأسفل خوفاً من الدوار وبعد دقائق أحسستها دهوراً وصلت إلى الجهة الأخرى وكان صوت الشلالات أسفل المنحدر يهدر في أذني ولم أدع هذا الضجيج يؤثر على برودة أعصابي وأمسكت بيد المرأة بقوة وسحبتها إلى ناحيتي ثم جاء دور الصبي بعدها تنفست بعمق وشعرت بفخر عظيم يداهمني لشعوري بأنني أتغلب على الصعاب مما جعلني أن أعطي لنفسي دقائق طويلة أتأمل فيها هذه الطبيعة المتوحشة والرائعة في وقت واحد ونسيت وضعي وأحزاني واردت أن أشبع عيني بهذا المنظر الصافي والسحري ولكن كان علي أن أصل إلى القرية فتابعت طريقي واعداً نفسي بأنه من الآن وصاعداً سأنتبه أكثر للطبيعة من حولي لأنني كنت متأكداً بأنها ستعلمني أشياءً كثيرة وفي الطريق تذكرت كتابات الأديب الكبير (رافي) وهو يصف الطبيعة المتوحشة متحدثاً عن أسرار جمالها وقلت لنفسي ربما هو أيضاً كان متأثراً مثلي لمنظرها حتى استطاع أن يكتب عنها بهذه الدقة والروعة. وبسبب تنقلي الدائم إلى مزيريه تعرفت على امرأة أرمنية التي ما إن عرفت اسمي حتى أخبرتني بأن خالتي وابنتيها مازلن على قيد الحياة وبأنهن يعشن من جديد في (يريركه) في نفس منزلهن القديم لم أصدق هذا الخبر العظيم وتحينت الفرصة المناسبة حتى أقوم بزيارتهن وكم كان لقائي بهن سعيداً خاصة بعدما علمت بالمصاعب التي لاقتها خالتي أثناء الترحيل وكيف أنها رُميت من عائلة إلى عائلة أخرى وعوملت بأقسى المعاملة لكنها وبعد أن وجدت نفسها حرة صممت على العودة إلى القرية والعثور على بناتها وفعلاً وبعد لأي عظيم استطاعت اللقاء بهن وتحنن عليهن أهل القرية وجعلنهن يشغلن منزلهم القديم مقابل أن تقمن بخدمتهم.

أصبحت زياراتي لهن متكررة وكنت في كل مرة أقضي ساعات معهن نتحدث مستذكرين العائلة والأيام الماضية وكن بدورهن يقمن بإطعامي بأشهى طريقة ممكنة وكنت متأكداً بأنهن يحرمن أنفسهن من مآكل كثيرة ويخبؤونها لي يوم زيارتي لهن وبسبب وضعي المتميز وحريتي كنت أقضي الليل عندهن فكن يستغلن الفرصة لغسل ثيابي ويجعلنني أستحم لأن الطفيليات كانت معششة في شعري وجسمي نتيجة الشروط الصحية الفقيرة.

كانت خالتي تتحرق لاستلام رسالة من زوجها الذي رحل إلى الولايات المتحدة قبل المجازر وأخبرها البعض بأن البريد بدأ بالوصول إلى بعض القرى عن طريق الميتم الأمريكي وبدأت تعيش على أمل سماع خبر منه. وعلمت منها بأن شبه حياة بدأت من جديد في (مورينيغ) حيث شغلت العائلات التركية منازلها كما أنه جاءت بعض النسوة والأطفال الأرمن للعيش فيها بشرط أن يخدمن النساء التركيات وكان (محمود آغا) دائماً هناك حتى أنه اعتبر نفسه رئيس القرية بعد أن استولى على ذهب النجار (زاكار) وجعل بناته يعملن عنده أما أمهن الخالة فارتير التي نجت من حادثة الفدائيين فقد كانت تعيش في منزلهم القديم لوحدها.

ويوماً قالت لي خالتي:

«عليك أن تزور أختك آنا في (موريه)، فالكردي الذي كانت تعمل عنده تزوجها أخيراً لكن هذا لايمنع من أن تذهب لرؤيتها وهي تسر بالتأكيد لرؤيتك سالماً معافى».

فكرت بأنها على حق فأنا أتحرق لرؤية أختي ولكن كونها تزوجت كردي جعلني أقلق قليلاً ومرّ بخاطري كيف أنه قيل لي بأن الكردي يضع السكين قرب وسادته ليلة العرس ليستخدمها في حال لم تكن العروس عذراء!

في الصباح الباكر سافرت مع تركيين متجهين إلى نفس القرية وعثرت على المنزل بسهولة ووقفت طويلاً أمام الباب متردداً أأقرع أم أعود أدراجي؟ فهذا المنزل الغريب والمتواضع هو نفس العالم المألوف لأختي (آنا) ولكن شوقي العارم للقائها دفعني إلى الأمام وكم كان اللقاء مؤثراً ودامعاً فأختي لم تصدق عينيها بأنني بين ذراعيها وتأملتني مطولاً محاولة أن تتذكر كيف كنت وكيف أصبحت فبعد سنتين غياب لم أعد ذلك المراهق الصغير بل رجلاً ذو مسؤولية عليه أن يصارع من أجل البقاء.

أما أنا فقد كنت حائراً أمام شقيقتي هي أيضاً لم تعد تلك الفتاة الصغيرة ذات النظرة البريئة بل أصبحت امرأة ممتلئة القوام كونها تنتظر مولوداً. واحتفلت بي احتفالاً كبيراً وأطعمتني أشهى الطعام ثم نادت قريبتي (هيرنيه) و(فلور) اللتين كانتا تعملان كخادمتين في المنزل المجاور وقضينا ساعات طوال

نتحدث ونضحك وكأننا في منزلنا القديم نقضي ساعة سمر وتساءلت ماالذي يدفع الأكراد والأتراك للاقتران بامرأة أرمنية؟ ألأنهن أجمل وأعذب من غيرهن من النساء؟ ألأنهن نشيطات ولايعرفن الكسل والملل؟ أم أنها خطة لصهر الأرمن في بوتقة الأتراك فالذي لم ينجح مع الرجال ربما ينفع مع النساء وهكذا يضيع الشعب الأرمني في إناء تركي.

أمضيت ليلة قلقة في هذا المنزل وفي الصباح الباكر غادرت دون حتى أن أودع أختي فقد أحسست بأنني مرتبك وعواطفي مختلطة، لم أعلم إذا كنت سأراها مرة أخرى ولكنني في وضعي الراهن علمت بأنني أفعل الصواب فالهروب أفضل من مواجهة واقع صعب لاتستطيع أن تتقبله، والأفضل من ذلك هو العيش تحت ستار مجهول في عالم من الأغراب حتى تنسى حالة الحرمان والخضوع وتعزي نفسك قائلاً «لاحقاً سيكون وضعي أحسن عندها أستطيع أن أقرر بشكل أفضل».

وشاءت الصدفة أن ألتقي على الطريق بنفس التركيين اللذين رافقاني أثناء الذهاب وشاءت الصدفة أيضاً أن يعرجا على (مورينيغ) قبل العودة إلى (مزيريه)وتردت قليلاً في البداية لكنني تبعتهما آلياً وأحسست بقلبي يهوي بين ضلوعي لحظة وصولنا التلة المشرفة على القرية ياترى في أي حال سأجدها؟ كيف سأتحمل رؤية منزلنا الذي قضيت في كنفه أياماً سعيدة خلتها لاتنتهي.

وبينما كنا نعبر الشارع الرئيسي حاولت أن أتذكر أين يقع منزلنا فبين كل هذه الأنقاض وأشباه المنازل كان من الصعب تحديد موقع منزلنا ولحسن حظي كان منزل النجار (زاكار) موجوداً اتخذته كنقطة علام لأستهدي على بيتي وعندما اتجهت إلى هناك لم أجد سوى أرض مسطحة عليها بقايا جدران ووقفت لحظات بارداً كالجليد بين مصدق وغير مصدق أمن المعقول بأن يختصر تاريخ أجيال بكاملها إلى هذه الأنقاض؟ وبينما كنت أفتش الأرض بعيني انتبهت إلى قطعة خشبية كنا نستخدمها لإغلاق نوافذ المنزل وانحنيت لأنتشلها وتذكرت بأن أبي هو الذي صنعها ووقف رفيقاي صامتين محترمين هذه اللحظات المؤلمة وليدعاني أتغلب على هذه العاطفة القوية التي اجتاحتني أمام تلك المناظر الحزينة التي لم يبق منها سوى قطعة خشب آخذها معي

كذكرى لأيام غابرة.

وفجأة سمعت صوتاً يناديني:

«غازاروس! غازاروس!».

وقفزت من مكاني غير مصدق بأن أحداً ينادي باسمي ورأيت فتاة تتجه نحوي:

«غازاروس ياللمفاجأة! هل تذكرتني؟ أنا أزنيف ازميريان تعال أصطحبك إلى منزلنا»

استأذنت من مرافقي وذهبت معها إلى منزل لايزال منتصباً. ألا وهو منزل (هارتيون ديرادوريان) تحتله الآن عائلة تركية حيث (آزنيف) تعمل عندهم هي وأختها التي جاءت للقائي هي أيضاً واستغلت الأختان فرصة غياب أهل المنزل للاحتفال بي إذ أطعمتاني وملأتا جيوبي بالخبز واللحم المجفف وتحدثنا عن القرية وماذا حلّ بمعارفنا وأقربائنا ثم آن أوان رحيلي لأن أهل المنزل كانوا على وشك القدوم.

وبينما كنت أمرُّ مرة أخرى بجانب منزل النجار (زاكار) رأيت الخالة (فارتير) واقفة على عتبة الباب واقتربت لأحييها سعيداً لهذه الفرصة المفاجئة وأعرف منها أخبار ابنتها (نفارت) وعرفتني من بعيد ونادتني قائلة: «ياللصدفة السعيدة يابني؟ ولكن بأية أعجوبة نجوت؟ ومالذي أتى بك إلى هنا؟

فرويت لها باختصار ماحل بي وسألتها بنفاذ صبر:

«وأنت خالة (فارتير) رغم كل هذه الأحداث كيف استطعت العودة والبقاء في منزلك؟

فتنهدت وأجابت بحزن:

«لم يكفيهم موت زوجي وابني بل أخذوا أيضاً بناتي، أفرغوا منزلي وأجبروا زوجة ابني على إخبارهم على مكان الذهب وهكذا إن بقيت حية فذلك مقابل ثروتنا» ثم تابعت بحزن أكبر:

«لاتكفيني هذه المصائب وهاهو الآن محمود آغا يريد تزويج صغيرتي (نفارت) لابن أخيه مأمون الذي أرسله إلى (بوليس) ليتابع دراسته»

ولم أمنع نفسي من مقاطعتها: «وأين هي نفارت الآن ومارأيها بالموضوع؟»

وانفجرت بالبكاء لسؤالي منتحبة:

«ياصغيري غازاروس، ليت يأخذ الله بناتي الثلاث إلى جنته قبل أن يتم المشروع فثلاثتهن موجودات في الداخل بعد أن أصابهن (التيفوئيد) ونفارت للأسف حالتها أشد من الأخريات، أنا أعلم بأنكم كنتم قريبين قبل أن تلم بنا هذه المصائب، إذا أردت ادخل فبالتأكيد ستسر برؤيتك».

صعدت إلى الطابق العلوي وكان المنزل رغم خلوه يبدو أكبر وأوسع ورأيت في إحدى الغرف ثلاثة مفارش على الأرض واقتربت بهدوء كانت (ساتينيك) البنت الكبرى في أحدها والتي ماإن رأتني حتى حيتني بابتسامة شاحبة ونصحتني بعدم الاقتراب خوفاً من العدوى. وحاولت (ماريسا) البنت الصغرى أن تجلس حتى تراني بشكل أفضل ولكن الحمى أضعفت قواها ولم تقوَ سوى أن تومئ لي برأسها. أما نفارت فكانت جالسة مسندة ظهره على الحائط ولكنها كانت تهذي وتلفظ كلمات غير مفهومة وكانت جميلة كما عهدتها وكأن البلوغ أضفى عليها قسمات أجمل وأشهى واجتاحتني عاطفة عارمة نعم كم هي جميلة في مرضها كانت عيناها تبرقان وكان العرق المتصبب على جبينها يحدد بشعرها تقاسيم وجهها الناعم والشاحب وتذكرت رسم شفتيها المعبرتين وكم أردت أن أكلمها ولكنني خفت أن أزيد بصوتي هذيانها رغم رغبتي الجارفة بأن أنطق باسمها بصوت عال وأقول ببساطة «نفارت» وأجعل اسمها فقط يحوي كل حناني وحبي الذي يملأ قلبي، نعم نفارت التي تسكن أحلامي وافكاري! كم أردت أن أبوح لها بكل هذا ولكن لا، البارحة لم أقوَ على الاعتراف بذلك لأننا كنا أطفالاً وكانت هي ابنة العائلة الغنية وأنا ابن العائلةالفقيرة أما اليوم اليوم أيضاً لا حق لي أن أعترف لها بحبي لأن المستقبل لم يعد ملكاً لنا.

وكأن نفارت أحست بوجودي وقرأت أفكاري تأملتني مطولاً وبدأت عيناها تلمعان بشدة وتفتشان عن عيني وانفرجت أسارير وجهها وابتسمت لي ابتسامة مضيئة ومدّت لي يدها وكأنها تود مصافحتي ولكن الألم عصف بحركاتها وعادت إلى وضعها السابق وبقيت أمامها مضطرباً في أعماقي

وكنت أبتسم لها آملاً في أن تسحب من ابتسامتي قوة تملؤها حياة وشجاعة وأخيراً غادرت الغرفة وأنا مثبت نظري عليها ولكن دائماً دون أن أنطق كلمة واحدة وفكرت بأن الموت ربما سيحصدها وأحسست بغم عميق يجتاحني وابتسمت بسخرية حينما تذكرت حلمي بأننا يوماً ما سنلتقي ونتابع طريق حياتنا سوياً.

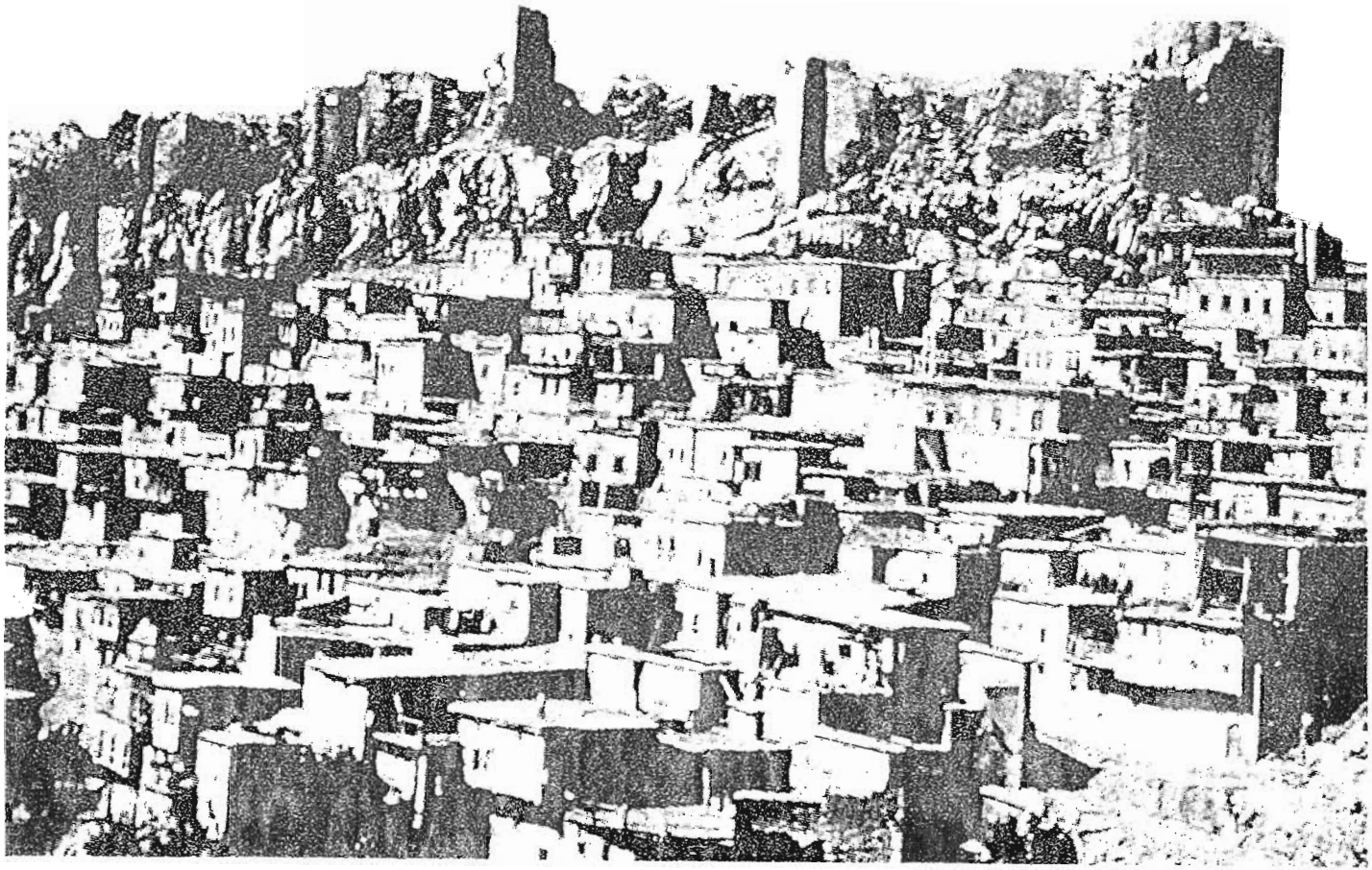

● مشهد عام لمدينة خاربيرت عام ١٩١٥

موقوفاً من جديد

ـ ١٩١٨ ـ

ما إن وقعت مدينة (إرزنفا) في يد الأتراك حتى توقفت أصوات المدافع وكان النصر تقريباً حليف الأرمن إلا أن انشغال الروس بثورتهم جعلهم يتخلون عن حلفائهم وهكذا ضاعت آمال الأقليات أدراج الرياح وبدأت الآن خطة (التجنس التركي) وجعل الأرمن والأكراد مواطنين أتراك وقد حاول الأرمن أن يصبحوا أصدقاء مع الروس وحتى مساعدتهم ضد أعدائهم.

واستقر علي حسان باشا في منطقة (درزيم) لمطاردة الأرمن الناجين والذين التجأوا قرب الأكراد وفي الواقع كان يوجد في المنطقة عدد كبير من الأرمن الذين بدأوا حياة جديدة بعد أن جمعوا شمل عائلاتهم قدر المستطاع، ومنهم (أرميناك تشيلفيريان) الذي استقر قرب منطقة (كوزات) مع زوجته وأطفاله الثلاثة وابن عمه (قره بيت أندويان) واكتشف علي حسان أغا مخبأهم وقرر ترحيلهم وكالعادة أعدم بعضهم على الطريق ولكن (قره بيت) استطاع الفرار.

وسرت إشاعة في كل القرى بأن هناك خططاً أخرى مهيأة للأرمن مما زاد غمهم غماً فقد كان من الواضح بأن مصيرهم لم يحدد بعد.

وبينما كنت يوماً أزرع الحقل مستغلاً فرصةالطقس الجميل اقترب مني كاتب القرية مسرعاً يتبعه جندي وناداني قائلاً:

«محمد، محمد تعال بسرعة مدير المنطقة يريد رؤيتك»:

قلقت لهذا الطلب فالمدير يعرفني جيداً لماذا أرسل في طلبي؟ ربما هذا مدير جديد ويريد رؤيتي؟

أجبت كاتب القرية «لحظة واحدة دعني أعيد الأبقار إلى حظيرة والي آغا ثم أتبعكم».

وكأنه كان يخشى أن أهرب اقترب مني قائلاً:

«لا، لا سوف أهتم شخصياً بإرسال الأبقار أما أنت فاتبعني حالاً».

وتدخل الشرطي قائلاً:

«إذا أردت أستطيع أن أرافق محمد إلى والي آغا ثم اصطحبه إلى دار المدير».

لكن الكاتب رفض بشدة مصمماً أن يصحبني بنفسه وفكرت وأنا أسير بجانبه بأن الأمر لابد وأنه خطير وإلاّ لم كل هذا الإصرار؟ وقادني بصمت إلى مجموعة من الأبنية في طرف القرية ومررنا بسرعة أمام البناء الأول (دار البريد) ثم أمام منزل جميل كان ملكاً لـ «هاكوب سمرجيان» لكن مدرس القرية التركي احتل المنزل وسكن فيه وأخيراً توقفنا قرب السجن وتوقف قلبي من الخوف كنت أتخيل كل شيء باستثناء أن أقاد مباشرة إلى السجن دون أن يُسمح لي بإخبار أهل المنزل حتى لا يقلقوا من أجلي ولكن ماإن دخلت حتى اكتشفت بأن كل أرمن القرية كانوا مجتمعين هنا ويبدو بأنني كنت آخر الناس الموقوفين وعلمت بأن نظام التجميع هذا تضمن كل الأرمن حتى أولئك الذين أقسموا بأن يصبحوا أتراكاً فقط النساء اللواتي تزوجن من أتراك أعفين من التوقيف. وكان بين هذا الحشد طفل صغير لم يتجاوز الخامسة يبكي وينادي بالكردية أباه وأمه أو بالأحرى اللذين كان يعتبرهما والديه إذ أثناء المجازر لقي أهله الحقيقيين حتفهم وعثر عليه رجل كردي وتبناه ورعاه إلى أن أعلن الأتراك نظام التجميع هذا وخوفاً من اكتشاف الحقيقة اعتبر الكردي بأن هذا الطفل من أبوين أرمنيين وأقسم بأن تربيته مسلمة لو دعوه قربه لكنهم انتزعوا الطفل بوحشية ورموه مع باقي الموقوفين وكان أسيادنا يأتون دائماً لزيارتنا وتشجيعنا بكلمات مطمئنة قائلين بأن هذه الأزمة ستزول كغيرها من

الأزمات وبأن هذه الإجراءات ليست إلاّ روتينية ولاتحمل أية نتائج خطيرة، لكننا في العمق كنا نعلم بأن هذه الكلمات كانت وسيلة لتخديرنا إذ تعلمنا عبر السنين عدم الثقة بالتركي فهو إن قال اليوم أبيض فليس من المستبعد أن يكون الأبيض أسود في اليوم التالي.

وعلى مر الأيام تتالت الزيارات وكان أسيادنا يحضرون لنا الطعام وكانت هذه الزيارات وسيلة الاتصال الوحيدة بالعالم الخارجي وكانوا يرددون نفس عبارات التطمين والتي بدأت تأخذ معنى تافهاً لأنهم هم أيضاً بدأوا يشكون بعودتنا وفي اليوم الخامس زارني أخيراً. معلمي فائق الذي كان غائباً عن القرية وتوجه نحوي وكأنه يكلم فرداً من عائلته «هيه محمد أؤكد لك بألا تقلق أقسم بحياة ابني بأن حياتك غير مهددة فقد توسطت لدى القائد العام من أجل أن تُرسل إلى مزيريه وليس إلى (بالو) لأنني علمت بأن من سيرسل إلى هناك سيعدم أما أنت فتذكر جيداً بأنك ستخدم العسكرية في (مزيريه) كأي مواطن تركي».

اعتدت منذ ثلاث سنوات أن أعيش مع فكرة الموت والخوف من الغد لهذا ومع الزمن عوّدت نفسي أن أكون متحفظاً أمام الأخبار جيدة كانت أم سيئة خوفاً من الصدمة إن تركت نفسي أشتاط مع الخيال ولكن الآن صدقت كلام معلمي لأنني أحسست بأنها نابعة من صميم أعماقه وشكرته على جهوده التي بذلها من أجلي ولكن مرة أخرى شعرت بالضيق يجتاحني لأنني هذه المرة سأبقى حياً ولكن بشرط أن أكون جندياً وهكذا لي أخسر فقط حريتي التي كنت أتمتع بها قبل أيام عديدة ولكن أن تصبح جندياً دون عائلة ولامال ولاحتى توصية وفوق كل هذا أن تكون كافراً فهذا معناه جندياً سجيناً أو بالأحرى عبداً دون التأكد بأنك ستخرج من الجندية سالماً. وفي اليوم التالي جاءت أفواج جديدة من الأرمن من منطقة (بيري) إلى السجن ثم كما قال لي فائق جمع أولئك الذين سيرسلون إلى مزيريه وكنت واحداً من المجموعة ولكنني شككت بأن في الأمر توصية لأننا كنا مجموعة كبيرة وبيننا أطفال ونساءً ووزع لكل منا أربع أرغفة من الخبز من أجل رحلة اليومين هذه وبما أن آخر القادمين لم يحصلوا على نصيبهم اقتسم الجميع الخبز فيما بينهم وتوجه نحوي أحدهم قائلاً: «لم محاولة الرؤيا للبعيد؟ ربما لن نصل أبداً إلى مزيريه

وسينتهي بنا المطاف في مياه الفرات!» ثم اصطف الجميع في طابور واحد ليسجل كل واحد منا اسمه ومكان ولادته واستثني الأطفال من هذه العملية وجمعت النساء في مجموعة واحدة أما نحن الشباب فقد جمعنا في طرف وربطنا كل أربعة معاً وأحاط بنا العسكر حتى لانهرب.

اتجهت الفرقة بأكملها نحو النهر وكان كل واحد منا يفكر كيف الآلاف من مواطنينا ربطوا هكذا كعناقيد بشرية ثم أعدموا ورمي بجثثهم في النهر الذي كان يبعد عنا الآن مسافة ساعتين وكان الخوف يملأ قلوبنا إذ كنا نتخيل بأننا نحن أيضاً نعيش ساعاتنا الأخيرة قبل أن نصل إلى مثوانا الأخير ولكننا وصلنا النهر وعبرناه بهدوء دون حادثة تذكر وتنفسنا الصعداء لنجاتنا وعندما حلّ المساء كنا قد وصلنا إلى قرية (هارسيك) وأدخلنا إلى منزل مهجور واقترح واحد منا أن نتبادل الحراسة خاصة وأنه كان بيننا نساءً أو أفراد لديهم المال واتفقنا أن نضع النساء والأطفال في منتصف الغرفة وإحاطتهن بالرجال وهكذا تبادلنا الحراسة ونحن نتجاذب أطراف الحديث تحت أنظار الجنود الأتراك الذين لم يسعدوا مطلقاً بفكرتنا هذه.

في الصباح تابعنا الطريق ببطء وأثناء مسيرنا اتجهت نحونا مجموعة من الخيالة وعند اقترابهم أدركنا من زيهم بأنهم ليسوا أتراكاً وإنما ألماناً كانوا قد عسكروا في مناطقنا وخاطب الشاويش عبدالله قائدهم قائلاً بأنهم يجمعون الخونة الأرمن بأمر من الباشا علي حسان وذلك لمساعدتهم جيش العدو وقصد بذلك الروس.

وسمعت في تلك اللحظة بعض الأرمن في مجموعتي يقولون بأن هذا القائد الألماني معروف جيداً واسمه (إيمان) بمساعدته للأرمن وبأنه تعاطفاً مع ديننا كوننا مسيحيين فقد استقبل في الميتم الألماني في خاربيرت الكثير من النساء والأطفال الأرمن ولكن مع تغير أحداث الحرب تغير موقفهم نحونا وهكذا لم أدهش حينما سمعته يقول للشاويش:

«تفعل جيداً بتخلصكم من هؤلاء الخونة والناكرين للجميل وبما أنكم الآن في هذه المهمة لاتنسوا أن تعبثوا مع نسائهم»!

صدمنا لاقتراحه ثم مالبثنا أن فهمنا بأن تغير موقفهم ليس سوى تصديقهم

لدعاية الكذب والنفاق التي نشرها الأتراك حتى يلوثوا سمعتنا ويجعلوننا محتقرين أمام الشعوب الأخرى.

تابعت القافلة رحلتها حتى وصلنا إلى «خاربيرت» وهنا أمرنا الشاويش بالتوقف وطلب منا أن نشكل صفاً واحداً حتى ندخل (مزيريه) وهددنا بأن من يخالف أمره أو يخرج عن الصف فسوف يعاقب بشدة.

دخلنا المدينة واتجهنا نحو السجن وانتشر في صفوف السكان خبر وصول قافلة أرمنية من (برتاغ) وهرع الأرمن القاطنون في هذه المدينة نحونا علّ أحدهم يجد قريباً أو صديقاً أو حتى معرفة قديمة إذ لم يزل العثور على أحد من أهلهم أو أقربائهم هاجساً يدور في مخيلتهم.

طلب منا أن ننتظر قرب السجن بينما عقد وجهاء المدينة وبعض العساكر اجتماعاً يقررون فيه مصيرنا وبقينا لحظات طويلة نصلي ونطلب من الله أن ينزل بعض الرحمة بقلوبهم وفكرت بأن معلمي لم يكذب عليّ ولكن ربما هم كذبوا عليه إذ ابتزوا منه أموالاً قائلين بأنهم سيهتمون بي بينما في الحقيقة كان في نيتهم تطبيق نفس القانون على كل منا.

انتهى الاجتماع وأعلن القرار التالي: على الشبان البالغين الثامنة عشرة أن يتجمعوا في طرف وكنا نحو عشرين فرداً وبالطبع أنا واحد منهم أما النساء والأطفال فقد كانوا أحراراً يستطيعون الذهاب أينما شاءوا وسعدت النسوة بهذه الفرصة للعيش والبدء من جديد وذهبت كل واحدة من طرف محاولة العثور على قريب أو صديق وبقي في المنتصف الكثير من الأطفال الذين كانوا يجهلون أين يذهبون وبعد تفكير انتهى المطاف بالجنود أن يصطحبوهم إلى ميتم مستشفى (سلطانيا) ولكن هناك ونتيجة الشروط الصحية السيئة داهمت الأمراض الكثير منهم وانتهى الأمر بهم إلى الموت.

جندي تركي

بدأت الاستجوابات من جديد في ساحة سجن (بوليس دايراس) ولكن هذه المرة بجدية أكثر حيث كان في نيتهم جعلنا مجندين وكانت السلطات العسكرية تعمل جاهدة على إيجاد آثارنا في الملفات والتي ضاعت أغلبيتها نتيجة الحرائق التي سببها الأكراد أثناء ثورتهم وأحضروا لهذه المهمة موظفين من جميع القرى ليفتحوا ملفات جديدة ويسجلوا تواريخ ميلادنا ولم يكن صعباً إيجاد آثارنا بدءاً من عام ١٩١٥ وكأننا قبل هذه التاريخ لم نكن موجودين وكان هدف هذه التحقيقات إعطاءنا وجوداً إدارياً وعمراً لايعتمد فقط على أقوالنا.

وأخيراً احتفظوا بسبعة عشر فرداً منا لنجند في الجيش وكنا أنا وماردیروس بينهم أما الخمسة الباقين فقد اعتبروا أحداثاً واختيروا لمهمات أكثر إفادة ألا وهي خدمة الرؤوساء ثم اقتادونا عبر المدينة إلى البناء اللاتيني الذي كان كنيسة كاثوليكية واختلطنا هناك مع شبان آخرين أرمناً وأتراكاً جندوهم أيضاً في العسكرية. وبالطبع كنت قد استهلكت حصتي في الخبز وعلى العكس من الكثير من رفاقي لم أكن أملك لاخبزاً ولامالاً وكان الجوع ينهش جسدي لأنني لم أكل شيئاً منذ قدومي إلى (خاربيرت) وكنت قد سمعت بالتأكيد عن مصاعب العسكرية وخاصة الطعام البائس لهذا حاولت أن أتصل بمعارف

في المدينة ربما يمررون لي بعض الغذاء والمال حتى أستطيع مواجهة المصاعب الأولية. وكنت قد تعرفت على دركي تركي رافقنا منذ بداية تنقلنا من (برتاغ) حتى وصولنا إلى السجن وكان الشاويش فائق هو الذي قادني إليه وأوصاه بي مما سمح لي أن أطلب منه أن يذهب إلى بعض معارفي ليحضر لي المؤونة لكنه ظل لامبالياً لرجائي حتى فقدت الأمل في أن يساعدني.

إلا أنه كان هناك بعض الأرمن المحظوظين إذ كان أسيادهم يزورنهم ويحضرون لهم ليس فقط المال والطعام إنما حتى شراء حريتهم أما البقية وأنا منهم فقد بقينا معزولين منسيين من قبل أسيادنا معتمدين فقط على حظنا بأن نبقى أحياء. أين هو إذاً معلمي (فائق) ذو السلطة والهيبة والذي وعدني بالمساعدة؟ أنا الذي كنت أحتل مكانة عالية في قلوبهم ومنزلهم، أممن الممكن أن يخذلوني وينسوا وعدهم بعدم التخلي عني مهما كان الثمن؟ ولكن ربما أنا المخطئ بظنوني ربما الظروف لم تساعدهم على الاهتمام بشؤوني أو ربما مشاغلهم كثيرة لدرجة أنه ليس لديهم الوقت الكافي ليتذكروا قضيتي...وهكذا حاولت شتى الوسائل أن أجد عذراً لتصرفهم حتى لاأفقد آخر ثقة في قلبي تجاههم.

كنت أقف من الصباح حى المساء أمام النافذة علني أرى شخصاً أعرفه يمر حتى يحضر لي بعض المساعدة إن لم تكن مادية على الأقل معنوية ولكن انتظاري دام دون فائدة مرجوة.

ولم نعد نفكر بما سيحل بنا غداً إذ صار هاجسنا الوحيد هو الحصول على بعض الطعام لإسكات جوعنا فقد كنا نمضي يومنا بأكمله دون أن نأكل سوى حساء فقير وقطعة خبز صغيرة، تشبعنا لمدة ساعة فقط وانتهى بنا الأمر إلى التفكير بوسائل تجعلنا نحصل على قوت أفضل حيث مرض عدد كبير منا مما أدى إلى نقلهم إلى المستشفى.

نقلت فرقتنا بأكملها إلى إحدى الثكنات في خاربيرت لمدة مؤقتة قبل أن نصنف وننقل إلى مناطق خدمتنا وأمضينا هذه المدة في تلقي اللقاحات اللازمة ضد الأمراض المألوفة وكان طبيب الثكنة طبيباً أرمنياً اسمه (كريكور) اعتنى بنا عناية فائقة وعاملنا معاملة طيبة متفهماً وضعنا

ولكن حتى هذه العناية الطبية لم تكن كافية لإعطائنا القوة اللازمة لمواجهة المحنة الصعبة التي كانت تنتظرنا.

عندما جمعت كل الفرق في باحة الثكنة الكبيرة كان منظرنا بائساً رغم وقوفنا بانتظام في الصفوف. كنا جنوداً بالاسم فقط إذ كنا لانزال نرتدي نفس ثيابنا التي أوقفنا بها أي ثياب الزراعة والفلاحة فهم لم يعطونا أي زي رسمي أو حتى بعض الأدوات اللازمة أثناء خدمتنا وعندما التفت إلى جهة الأتراك رأيت أن حالهم ليس أفضل من حالنا فهم أيضاً كانوا يعانون من نفس البؤس والحرمان الذي عانيناه وشعرت ولأول مرة في حياتي بالمساواة بيننا وبينهم.

وفكرت بأنه لو خطر لسيدي بأن يأتي لزيارتي لكنت أنا أيضاً نعمت بوضع أفضل كهذا الأرمني الآتي من (كارين) كان اسمه (أرشاك) لكنهم كانوا ينادونه بـ (حسان) قدم إلى الثكنة بصحبة اسياده الذين أوصيا به ضابط الثكنة بعد أن دفعوا له مبلغاً محترماً ـ إذ كان (حسان) سيصبح صهرهم لهذا كان يعامل معاملة استثنائية. وكان هناك أرمنياً آخر من الميتم الألماني قد أتى مرتدياً ثياباً أنيقة وقبعة أجنبية مما جعل الجميع يتأملونه طوال الوقت حتى الجنود الأتراك كانوا يلحون عليه بإعطائهم قبعته لأنها لن تفيده أثناء الخدمة إلاّ أنه كان يرفض بإصرار واثقاً بأنه لن يبقى في هذه المكان لفترة طويلة وبالفعل وقبل يوم من ترحيلنا أتوا وأخرجوه من صفوفنا وعلمنا بأنه حصل على توصية.

كنا خمسة وثلاثين أرمنياً بينهم أنا ومارديروس في فرقة مكونة من مئتي فرد بعضهم يونان والبعض الآخر يهود أما الأغلبية فكانوا أتراكاً وأكراداً وتوجهت فرقتنا نحو مدينة (ديار بكر) وقبل وصولنا مدينة (كاسيريغ) أوقفنا ضابط الفرقة وألقى علينا خطاباً طويلاً يشرح فيها مدى أهمية العسكرية للرجال وبأن من يحاول الهرب منها سيلقى أقسى أنواع العقاب وبعد هذه الخطبة تابعنا طريقنا إلى أن هبط الليل وكان علينا المبيت في جامع صغيرة دخلناه واحداً تلو الآخر وكان المكان من الضيق بحيث كان شبه مستحيل أن يتمدد أحدنا دون أن يسند رجليه أو رأسه على زميله رأينا بأن الأتراك

والأكراد كانوا معتادين على هذه الوضعية بحيث ماإن وضعوا رؤوسهم على الأرض حتى غرقوا في سبات عميق.

ومرّ الليل هكذا دون حادثة تذكر، من ناحيتي أمضيت ساعاتي متيقظاً في الظلام وكأن الليل لاينتهي وكنت كلما أحاول أن أنام قليلاً كنت أستيقظ لحركة جسد فوقي أو شخير عال يصدر فجأة أو حتى رائحة مزعجة كانت تقلق نومي وكنت أغرق من جديد في كابوس ملئ بجثث بشر أجهل إن كانوا أحياء أم أمواتاً، وبتوجس، كنت اشعر بأنني أصارع هذياناً عميقاً. وفي الصباح أيقظونا بشكل وحشي وفتحت أبواب المسجد على مصراعيها والقى الجنود أوامر النهوض بعنف وجعلونا نخرج من المبنى والنوم لايزال في أعيننا.

كنت آخر من خرج ولكن الهواء البارد لفحني مما أفقدني توازني ومشيت مترنحاً فشاهدني العسكري من بعيد وأعتقد بأنني أتكاسل في مشيتي فهرع نحوي وضربني بكعب بندقيته ثم استعد ليهوي بقبضة يده على رأسي لكن ماردیروس الذي رأى المشهد من بدايته أسرع نحوي وحال دون ضربي بدأ يلطم وجهي حتى أعود إلى وعيي ثم اصطحبني إلى الصف مسنداً إياي على كتفه وبدأنا المسير من جديد دون أن نأكل لقمة واحدةً نجابه بها نهارنا الطويل. وبعد أن اجتزنا قرية (كيرفانك) كان علينا أن نعبر جبل (دافابونيو) الوعر وهكذا أمضينا النهار بأكمله نمشي دون أن نرتاح أو حتى نأكل بعض الطعام بعد هذه المشقة وعند المساء توقفنا أخيراً في قرية صغيرة واقعة في منتصف الجبال وكان معظم قاطني القرية أكراداًمعزولين عن باقي القرى وكانوا يعيشون بشكل شبه بدائي ورغم ذلك كان يوجد اصطبل من أجل الخيول وفندق صغير حوله الجنود إلى نقطة عسكرية وكان هذا التوقف أفضل بقليل من سابقه إذ وزع علينا فتات غذاء ابتلعناه على عجل وفي اليوم التالي تابعنا نفس المسير وهكذا دواليك بالنسبة لباقي الأيام وأخيراً وفي اليوم السابع لاحت جدران مدينة ديار بكر.

ولأول مرة رفعت عيني إلى الجدران الحجرية العالية والتي تحمل في طياتها ذكرى أعظم ملك الملك (ديكران) الذي بالطبع محا الأتراك اسمه وسلخوا عن المدينة هويتها الأرمنية وجعلوها (ديار بكر) التي كانت مدافعها تهددنا

وكأنها تستقبلنا وبذا انتهت مسيرتنا الطويلة أمام مسجد قديم، هذه المدة جُمع المسلمون في طرف وغير المسلمين في طرف آخر وفهمنا من ذلك بأن إقامتنا هنا ستطول، وجاء أهالي المدينة الأتراك لاختيار خدم من بيننا أو معلم حرفة لاستغلال مهارته في أعمالهم وهكذا فُرِق بيني وبين ماردیروس الذي اختير من قبل رجل تركي ليعمل في مشغله وافترقنا والدموع تملأ مقلتينا لذكرى الأيام الشقية التي أمضيناها معاً واحتملناها بصبر وشجاعة وكان الخوف يملأ قلبينا من المستقبل ومايحمله الغد لنا. وانخفض عددنا إلى النصف وكنت من بين غير المحظوظين الذين عليهم متابعة المسير نحو اتجاه غير معروف نجهل حتى إذا كان أرض معركة أو أعمال قسرية وبعد أسبوع قادونا باتجاه معاكس للذي سلكناه قبلاً أي نحو الشرق على طول نهر دجلة وعندما رأيت هذا النهر الذي يعتبر ثاني أكبر نهر في بلادي تساءلت إذا كنت سأرى الفرات مرة أخرى، هذه المياه أيضاً عرفت المذابح واحتوت آلاف الجثث وساهمت في التخلص منها دون أن تجد حتى قبراً تدفن فيها.

تم عبور النهر ببطء شديد نظراً لقلة الألواح التي كانت تقلنا من طرف لآخر واستطاع رجل أرمني ضمن هذه الظروف الفرار والاختفاء عن أنظار الجنود الأتراك رغم قامته الطويلة ولاحظ الجميع اختفاءه ولكن الجنود أظهروا لامبالاة تجاه هذه الحادثة وكأن الأمر لايهمهم.

ووصلت الفرقة أخيراً تحت الأمطار إلى القرية حيث قضينا الليل فيها بأكمله تفكر في عملية فرار قائلين لأنفسنا:

أولاً يجب أن نحاول نحن أيضاً النجاة بجلدنا عند أقرب فرصة وكأن الجنود قرأوا أفكارنا فأمضوا الليل بمراقبتنا والانتباه لأقل حركة نقوم بها وكأنهم يلعبون لعبة القط والفأر مما جعلنا نرمي فكرة الهروب جانباً.

إلا أنه وبينما كنا أنا وأربعة من زملائي نتحادث جاءنا جندي واقترح علينا أن نهرب لقاء مجيدية وبهتنا لهذا الاقتراح ولكن المسألة سويت في لحظة لأبسط سبب وذلك أنه لم نكن نملك نحن الأربعة ولاحتى قرشاً واحداً ولكن بعد أن فكرنا سررنا لعدم قبول اقتراحه لأنه كان من المتوقع أن يشي بنا بعد أن يأخذ المبلغ وفوق ذلك يستحق ثناء رؤسائه. وتساءلنا إذا كان هناك البعض

هرب تحت هذه الظروف القاسية وأكد لنا الصباح شكوكنا إذ كان سبعة من زملائنا غائبين ولكن مرة أخرى لمسنا لامبالاة الجنود وكأن كل التهديدات التي سمعناها قبل مسيرتنا ذهبت أدراج الرياح.

وفقدت بدوري زميلين من (برتاغ) (طوروس) و(قره بيت) وبقيت الأرمني الوحيد في فرقتنا. ووصلنا مدينة (سيلفان) بعد مسيرة ثلاثة أيام، هذه المرة كان علينا المبيت في مبنى عسكري حيث خصص قسم منه لنا وعلمنا أخيراً بالمهمة التي من أجلها جئنا فقد كان علينا إعادة فتح الطرقات المهدمة والخربة وكان الضابط المكلف بحراستنا معروف بقساوته البالغة وبأسه الشديد على الأرمن والأتراك على حد سواء.

وزع على كل واحد منا مايشبه اللباس العسكري وكلفنا بتكسير ونقل حجارة الطرقات من الصباح حتىالمساء، تحت الشمس أو المطر. وبقي الطعام هاجسنا الوحيد فرغم عملنا الشاق لم يزل غذاؤنا فقيراً وعبارة عن وجبتي حساء وقطعة خبز نخالة لاتكفي لإشباع جوع حيوان صغير. وتحت هذه الظروف غالباً ماكنا نفكر بهؤلاء الذين استطاعوا الفرار وأصبحت هذه الفكرة منقذنا الوحيد للخلاص وكانت ثكنتنا تقع في منتصف المدينة ولهذا كان لابد أن توجد في الحراسة بعض الثغرات وخصوصاً أثناء عودتنا كنا نمر بطرقات جانبية يمكن الهروب منها بسهولة، بعض الأحيان.

لذا حاولت يوماً أن أكتشف إلى أي مدى كانت مراقبة الحراس قوية انزلقنا أنا ورفيقي في شارع جانبي واختلطنا مع الناس بينما تابعت الفرقة طريقها نحن الثكنة واعتقدنا بأن الحظ ابتسم لنا عندما استطعنا الانسلال من مدخل أحد المنازل وإذ بثلاثة حراس فاجأونا بحركة مباغتة وعاقبونا في مكاننا قبل أن يصطحبونا بقسوة نحو الثكنة.

طرحت فكرة الهرب مشكلة كبيرة في صفوفنا ووصل الأمر إلى حارس فرقتنا الذي بدأ يخاف عقوبة رؤوسائه وحاول بمساعدة بعض الدرك أن ينشر الخوف في قلوبنا حتى نبعد فكرة الهرب جانباً، كذلك استغل فرصة وجود الطبيب (كريكور) في المبنى الذي جاء ليقنعنا بعدم الإقدام على أية خطوة خاطئة قائلاً:

«ابقوا في مكانكم واصبروا فكل نهاية جيدة تحتم الصبر والانتظار أنا أعلم مدى معاناتكم في هذا العمل الشاق ولكن ما باليد حيلة واعلموا بأنه منذ الآن وصاعداً أية محاولة للهرب عقابها الضرب حتى الموت!» ثم أضاف بالأرمنية:

«لاأعلم إذا كنت استطعت اقناعكم ولكنني حاولت فقط أن أحذركم وأقول لكم ألا تيأسوا».

وأعربنا بصمت عن شكرنا العميق لكلماته مدركين بأن ماقاله هو الصواب لكننا عدنا وفكرنا لمَ نولي ثقتنا لهذا الضابط وهذا الجيش وهم بالأصل أساس شقائنا!.

صدر قرار بأن على فرقتنا متابعة عملنا في مدينة (تفليس) وفي اليوم الثالث لمسيرنا وصلنا إلى قرية (رازالان) بعد أن عبرنا نهر دجلة عن طريق جسر قديم وماإن وصلنا إلى النقطة العسكرية التابعة لهذه القرية حتى أمرنا جميعاً بأنه علينا أن نستحم دون استثناء في الهواء الطلق حماماً جماعياً واعترض الجميع على هذا القرار متذرعين بالطقس البارد، إذ كنا في شهر نيسان والمطر منهمر وفكرنا بأنهم يفعلون أي شيء لإهانتنا والتلاعب بأعصابنا وبالطبع لم ينفع أي احتجاج أو اعتراض وأجبرنا على خلع ملابسنا وتكويمها واعطائها لهم بغية تنظيفها أما نحن فكنا عراة كالديدان كان علينا أن ننتظر تحت المطر إلى حين إعادتها لنا وكانت هذه الأجساد البيضاء التي لم تر في حياتها الشمس متقوقعة على بعضها خجلاً من النظرات المهينة وكان البعض يشتم ويلعن الجيش لهذه المعاملة الوحشية والآخر يبكي عائلته التي بحاجة إليه وأخيراً قرر الجميع عدم النزول إلى الماء لأن المطر كان قد غسلنا جيداً ووزعت علينا ثيابنا التي على الأقل إن لم تكن قد نظفت من القمل المعشش فيها كانت جافة وحارة فأسرعنا لارتدائها ثم جمعنا بأكملنا وقسمنا إلى فرق صغيرة بعد أن أعطي لكل منا «سيدارة» يضعها على رأسه ثم سلكنا من جديد طريق (تفليس) وهنا طلب منا الوقوف في صفوف وكأننا في مهرجان بحضور القائد العام وأتباعه وبعد حين مرت فرقة حراس الشرف للجيش العام وطلب منا

الوقوف جيدا لتحيتها وهنا فهمنا سر حمامنا المفاجئ إذ أراد قائدنا أن يقدم صورة جيش نظيف ومظهر لائق أمام كبار المسؤولين.

انتظرنا من جديد في أماكننا دون أن يسمح لنا بأية حركة تذكر ومرت ساعات قبل أن تلوح من بعيد غبار خيالة قادمة وكان عدد الفرسان أربعين مرتدين أبهى حلة ويحيطون بضيف الشرف المنتظر الباشا نفسه واقترب واحد من هؤلاء الفرسان يبدو أنه قائدهم ـ من ضابط فرقتنا فتبادلا التحية العسكرية، وبعض الآراء المقتضبة ثم تابعوا طريقهم ولم يتنازل الباشا أن يلقي نظرة عابرة على هذا الجمع الذي كان ينتظره وكأن الأمر لايعنيه.

من جديد تابعنا المسير نحو تفليس حيث سنستخدم كعمال طرق. أمضينا الفترة الأولى في المبنى الحكومي ثم خيمنا في مكان عملنا الذي كان عبارة عن مسلك جبلي يمر عبر طرقات وعرة خالية من أي عرق أخضر اللهم إلاّ عشيبات جافة متناثرة هنا وهناك وكان عددنا حوالي المئة تحت قيادة المشرف وبعض أعوانه.

الطريق التي علينا إصلاحها كانت في منتصف المنحدر الجبلي وعندما تفحصتها من بعيد اكتشفت تفاهة عملنا إذ مهما أصلحنا فيها فإن الثلج المتجمع في أعلى الجبل سيفسدها وهو يسيل إلى الأسفل خاصة أثناء ذوبانه ومع ذلك فقد أصر الجيش على اصلاح الطريق وكأنهم يريدون أفهامنا بأننا لسنا هنا لنلبي حاجة عسكرية وإنما لندفع ثمن خطأ لم نرتكبه.

كان العمل عادياً وكان بالإمكان احتماله لولا الجو الذي أنهكنا وأضعف جسدنا فقد أصبح الطعام هاجسنا الوحيد لدرجة أنه كان يحرمنا نوم الليل.

لم نكن نتكلم سوى عن الطعام ولم نكن نبحث سوى عن وسائل تجعلنا نكتشف من حولنا كل مايؤكل ويتمم طبق الحساء الذي كنا نتناوله ظهراً ومساءً والتي كانت عشرة أطباق منه لاتكفي لاشباع جوع معدة واحدة. كان الخبز يوزع علينا كل عدة أيام مرة واحدة وبكميات ضئيلة وأحياناً كانوا يعطوننا بدل الخبز بعض العنب المجفف الذي كان من الممكن أن يهبنا قليلاً من الحيوية لولا طعمه المالح والعفن الذي يغطي سطحه والذي بلا شك يعود إلى عدة سنين ماضية.

كان الضابط المشرف يتجاهل كل هذا ويتجول باستمرار بين صفوفنا وبيده عصا غليظة ويعاقب كل من بدا له لايعمل بهمة كافية وكانت شفتاه المزمومتان تعطيانه منظراً أبشع وكان يضرب العمال بوحشية وكنا نتساءل بخوف ماالجرم الذي ارتبكه حتى وضعوه في منصب حقير كهذا، ويصبّ جام غضبه علينا؟

أما نحن فكان الغذاء شغلنا الشاغل وكنا قد قضينا على كل الأعشاب الموجودة في المنطقة بعدما أضفنا عليها قليلاً من الملح الذي من حسن الحظ كان متوفراً بكثرة وهكذا كنا نضيفه على أي شيء يمضغ حتى نسكت جوع معداتنا ولكن دون جدوى. وكان كل صباح يوجد بعض الغائبين الذين لم يقووا على النهوض إما بسبب المرض أو بسبب الإعياء الشديد وكان المرض (هوني) يحتار من أين يبدأ المداواة ويوماً بعد يوم كان عدد المرضى يزداد وبدا واضحاً بأنه خلال فترة قصيرة ستصبح فرقتنا شلة من الرجال البائسين لاحول لها ولاقوة.

ذات صباح وزعت علينا قطع من الجلد القاسي حتى نصنع منها شبه صنادل نستبدل بها أحذيتنا البالية التي لم يبق منها شيئاً وكان علينا أن نحدد على هذه القطع شكل أقدامنا وندخل فيها حبالاً نرتديها وبينما كنا نعمل انتهى رفيقنا قبلنا وبدأ يجمع بقايا الجلد المتناثرة وعندما سألناه عما يريد أن يعمل بها طلب منا مراقبته حيث وضع بعضها على طرف غصن وأشعل ناراً وبدأ يشويها بعد أن غسلها بالماء وبعد أن انتهى من عملية الشواء نثر عليها بعضاً من الملح ثم اختار ركناً هادئاً وكأنه يريد أن يستمتع بغذائه المميز وفهمنا من تعابير وجهه بأن الطعم لابأس به وهكذا أسرعنا جميعنا وقلدناه وبالفعل لم يسأل أحد منا عن الطعم إذ ولأول مرة بعد عدة أسابيع نضع بين أسناننا شيئاً يمضغ دون الحاجة لبلعه لحظة دخوله أفواهنا.

كانت خيمة الضابط وأعوانه في الطرف الآخر من المخيم وكنا نعلم بأن هذه الخيمة ممتلئة بالمؤونة المخصصة للمعسكر بأكمله لكنهم كانوا يحتفظون بما لذى وطاب لأنفسهم ويوزعون علينا الفضلات وكنا نتخيلهم يحيطون

بطاولة مليئة بأشهى أنواع الطعام يأكلون ويضحكون ثم يأخذون القيلولة على وسائد مريحة أو يتسامرون وهم يبتلعون أنواع الحلوى.

كان للضابط خادم أرمني شاب لتلبية حاجاته الشخصية وكان يصطحبه دائماً معه أينما ذهب حتى أثناء تفقد المعسكر وأحياناً إلى مناطق أبعد ومرة ذهبا كالعادة إلى جولتهما الشخصية وفي المساء عاد الضابط لوحده دون الخادم وفهمنا بأنه ارتكب شيئاً ما وقضى على حياة المسكين. خاصة وأننا كنا نعلم بأن للضابط عادات غير طبيعية وربما حاول الضغط على الخادم للانصياع إلىرغباته المجنونة وعند رفض الأخير عاقبه وأجبره على الطاعة ثم أعدمه.

إذاً كان الخادم محسوداً حتى هذا اليوم من قبل أفراد المعسكر فبعد هذه الحادثة أصبح الكل يخشى أن يكون هو التالي وصارت فكرة الهرب خلاصنا الوحيد من هذا الكابوس، لم نكن فقط نتضور جوعاً والقمل والدود يغطي أجسادنا لا بل كان علينا أن نتحمل جنون هذا الضابط دون أن نعلم بأنه إذا كان يوم الخلاص آت أم ستكون نهايتنا هنا وأحياناً كان الموت يبدو لنا حلاً خلاصياً حتى لو كان الثمن حياتنا. لهذا كنا مستعدين أن نخاطر بأي شيء ونهرب وكنا نتفحص يوماً بعد يوم الطرقات وإمكانية النجاح وكان أمامنا خياران إما الهرب بمحاذاة الوادي والوصول إلى بحيرة (فان) خلال يومين أو الاتجاه نحو الجنوب وعبور الشلال لنصل مدينة (سرولت) في يوم واحد حيث كان مرضى المعسكر يسعفون هناك. حدث أن اتفقنا أنا وبعض الرفاق على خطة للهرب، كنا خمسة، أربعة أرمن وواحد تركي وكان كل منهم حاول الهرب بمفرده لكنه لم ينجح ومع ذلك فقد استطاع إلى الآن عشرة جنود الفرار من المعسكر وأصبح عددنا بأكمله أربعة وعشرين.

في المساء وبينما كنا جالسين كالعادة ننتظر حساءنا اليومي أطل علينا الضابط بخطى عصبية ودار بين صفوفنا عدة مرات وفي ظنه أنه سيؤثر علينا ثم صرخ بصوت حاول أن يضع فيه كل قوته:

«قررت من الآن وصاعداً وحالما ينتصب العشاء أن تدخلوا خيمكم وألا تخرجوا منها حتى نداء الصباح، ممنوع منعاً باتاً الخروج من الخيمة مهما كان السبب حتى لحاجاتكم الشخصية «افعلوها في الداخل ومن يعصى هذه

الأوامر سيصبح مثلاً لزملائه ويذبح أمام أعينكم جميعاً» كان يتكلم بلهجة مهددة متوعدة لم يستخدمها قبلاً لكنه كان متأكداً بأنه لم يؤثر علينا التأثير المرجو. ثم التفت نحو أعوانه وخاطبهم قائلاً:

«بعد اليوم إذا هرب فرد واحد ستكونون مسؤولين وأنتم أيضاً ستعاقبون عقاباً شديداً، هذه المرة قراري نهائي ولن أتراجع مهما كان السبب.

وبالفعل تجاهلنا المحاضرة تماماً وكأنها لم تحصل لأن قرارنا كان نهائياً ولم يعد لدينا أي شيء نخسره ولكن هذه المرة كانت وجوه أعوان الضابط شاحبة تماماً. وكانوا يتساءلون ماذا يستطيعون أن يفعلوا ليمنعوا هروبنا حتى وإن نصبوا حارساً أمام كل خيمة فإن ذلك ليس بكافٍ، لأن الخروج منها ممكن في كل الجهات كانوا يعرفون بأن هذه المشكلة لاحل لها، وأن الضابط حاول فقط أن يزرع الخوف في قلوبنا.

أتممنا عشاءنا الهزيل على مهل، ربما لو أضافوا لهذا الماء العكر قطعة من اللحم مرفقة بقطعة من الخبز لكنا قد عدلنا عن قرارنا ولكن بالتأكيد ليست الكلمات التي أطربنا بها ستمنعنا من تنفيذ فكرتنا ونظرت إلى أعين رفاقي وعلمت بأنهم يفكرون نفس الشيء.

الهـروب

رحت أركض بذعر فاغراً فاهي إلى أقصى حد ربما من الخوف أو ربما لأسترد أنفاسي، وكنت كل قواي دون أن أتقدم خطوة واحدة ربما بسبب قامتي القصيرة التي تعجز عن منافسة الأشداء البرابرة الذين كانوا يتبعونني، كانت خطوتي تصدر أصواتاً عالية على الحصى بينما الذين يلاحقونني وصلوا إليّ بهدوء وصمت وفجأة أمسكوني من كتفي وبيدهم خنجر كبير وفقدت أملي بالنجاة ولم أقو سوى على ترديد صلاة قصيرة وأحسست بألم عظيم ينخر كتفي.

استيقظت والعرق يتصبب مني وأنا ألهث بشدة وادركت بأنني كنت أعيش كابوساً مفزعاً وشكرت الله على أنني لاأزال حياً وقلت لنفسي ربما لأنني كنت في سبات عميق داهمني هذا الكابوس وجلست على مفرشي وأنا أفكر بخطة أفضل للهرب، والتفت حولي ورويداً رويداً عيناي اعتداتا الظلام وبدأتا بتميز الأشياء وشاهدت بعض الأسرة فارغة فقلت لنفسي «أمن المعقول أنهم فرّوا!» وشخصت نظري على أقرب فراش لي فرأيت صديقي التركي مستلقياً هناك وعندما أمعنت النظر استغربت بأنه مستيقظ هو أيضاً وكان يراقبني بصمت وأدركت بأنه علي أن أقرر ربما هذه الليلة هي فرصتي أو بالأحرى فرصتنا جميعاً، نهضت

من مكاني مثبتاً نظري على صديقي التركي وبصمت توجهت نحو مخرج الخيمة متظاهراً المرض ولكن عندما ألقيت نظرة على الخارج رايت ظلين يخرجان من الخيمة المجاورة منسلين بهدوء نحو الظلام دون تفكير أو تردد تبعث خطاهما ولحقني التركي وتتابعت الظلال واحداً تلو الآخر، كنت هادئاً جداً ومتيقظاً لأقصى درجة أتقدم بثبات دون أن أشعر بأي مصدر للخطر.

عندما وصلنا حدود المعسكر لحقنا ظل آخر وأصبحنا ستة ولم ينبس أحدنا ببنت شفة ولكن نوعاً من التفاهم كان يحيطنا بصمت.

لم نتوقف إلا بعد أن اجتزنا عدة مئات من الأمتار ومكثنا برهة فقط لنتأكد من أن هروبنا لم ينكشف بعد وبأن فرداً جديداً لم ينضم لفريقنا ثم تفحص أحدنا الآخر واكتشفت بأنني الأرمني الوحيد في المجموعة ولكنني لم أشعر بالخوف إذ أدركت بأن القدر أراد ذلك فبعد ثلاثة أشهر من العذاب والقهر المشترك، نسينا الفرق في الجنسيات وجمعنا نوع من التضامن.

قبل أن نحدد اتجاهنا أردنا أن نجتاز الجبل إلى الطرف الآخر حيث الغابات الكثيفة إذ من الصعب العثور علينا هناك وكان علينا أن نحذر الاقتراب من القرى القريبة حيث النقط العسكرية موزعة هنا وهناك، من حسن الحظ استطعنا تميز قرية قريبة عن مسافة كافية وهكذا ابتعدنا عن الأضواء قدر المستطاع وبعد ساعات من المسير اعتادت أعيننا الظلام لدرجة أن الليل تحول إلى شعاع قمري وأصبحت خطواتنا واثقة أكثر وكنا نتبادل كلمات قليلةوبصوت خافت إذا احتجنا لتغيير اتجاهنا فقد كان همنا الوحيد وضع أكبر مسافة بيننا وبين المعسكر. ودون أن نفكر بما ينتظرنا كنت أجد كل هذه الأحداث غريبة ومثيرة للعجب.

وبما أننا أصبحنا بأمان عن مرأى الحراس والعساكر توقفنا أخيراً لنستريح ونتخذ قراراً جماعياً.

حتى الفجر كان لدينا الوقت الكافي لنتفحص كل احتمال وتوقع أية مشكلة قد تصادفنا مبدئياً اتفقنا أن نبقى معاً طالما طريقنا واحدة. وكنا

في حيرة من أمرنا أنسير ليلاً أم نهاراً ثم قررنا أن نسير في الليل وفي ساعات الصباح الأولى نتوقف ونقتات مما نجد من نباتات حولنا ولكن في اليوم التالي وجدنا بأنه من المستحيل أن نجد طريقنا في الليل فكل العوائق الطبيعية كانت تعرقل تقدمنا لذا قررنا التوقف ومتابعة المسير في الفجر، عند المساء وعند اقترابنا من قرية رأيناها من بعيد أحسسنا بالإرهاق ينهكنا كما أن الجوع أفقدنا قوانا إذ أن القلق من كل الأخطار التي يمكن أن تصادفنا أنسانا حاجتنا إلى الأكل وطبعاً الفواكه والنباتات التي كنا نأكلها لم تسد رمقنا ولو حتى قليلاً. كان بيننا سليمان الأقل إثارة للشبهات لذا قرر أن ينزل القرية ويحاول أن يجد شيئاً وبالفعل بعد ساعات عاد دون سترته ولكن مع خمس أرغفة خبز تقاسمناها بحماس قال لنا سليمان بأن هذه القرية تقع على مفترق طرق وفي غربها توجد بحيرة يعبرها الناس.

قررنا في نفس اللحظة الذهاب إلى القرية وعدم الانتظار حتى الصباح وعندما وصلنا الضفة كان الليل قد خيم وبعد لحظة تردد قفزنا إلى الماء دون أن ننزع ثيابنا أو أحذيتنا، وعبرنا النصف الأول دون أية صعوبة ولكن الظلام كان شديداً والماء وصل إلى أعلى خواصرنا والشيء الوحيد الذي كان يطمئننا هو أننا فرقة متوحدة وكان بيننا (هاجي) الشاب الوحيد الذي كان يجيد السباحة لذا قرر أن يتقدم قليلاً في الماء حتى يقرر إذا كنا نستطيع المتابعة أم لا وعاد بعد دقائق يعلمنا بأنه من المستحيل أن نتابع في هذا العمق خاصة وأن التيار كان شديداً. واحترنا في أمرنا ماذا نفعل ونحن تائهين وسط الماء مبلولين إلى أعناقنا كان من المهم أن نحافظ على برودة أعصابنا ولم نجد حلاً إلا أن نعود أدراجنا ونضع أقدامنا على الأرض الصلبة ولكن التعب وخيبة الأمل جعلا العودة أكثر صعوبة، كانت خطانا متعثرة على الحصى وخشينا من أن نقع في حفرة أعمق والأسوأ من ذلك كان ضوء القمر ينير سطح الماء كمرآة واضحة تجعل رؤيتنا سهلة من بعيد. أخيراً وصلنا الضفة نرتعش من البرد ووجب علينا أن نتحسس الأرض ونفتش عن أعواد خشبية نشعلها علناً نتدفأ ولكن كل ماعثرنا عليه بضعة أعواد رطبة لاتفيد بشيء وهكذا

أمضينا الليل في ركن مظلم ملتصقين أحدنا بالآخر يقرصنا البرد من جميع الجهات، في الصباح الباكر استيقظنا وكأننا ولدنا من جديد ولكننا كنا خائري القوى ببطوننا الخاوية. فقط إرادتنا كانت لاتتزعزع.

اتجهنا من جديد نحو النهر نتفحصه محاولين اكتشاف عمقه هذه المرة أخذ حسان على عاتقه محاولةعبور النهر وتبعناه دون أن ننزل إلىالماء وكنا متأهبين لإنقاذه إن لزم الأمر ووصل حسان إلى مكان توقفنا ليلة الأمس ثم تابع بشجاعة فبلغ الماء صدره ثم تغلغل أكثر وبدأ جسمه يظهر من جديد وبعد خطوات قليلة أصبح بمحاذاة الضفة الأخرى والتفت نحونا ولوح بيده إشارة النصر طالباً منا أن نتبعه ونزلنا واحداً تلو الآخر إلى النهر وبالفعل استطعنا بسهولة دون أن نفقد توازننا الوصول بسلام إلى الضفة وجففنا أنفسنا تحت أشعة الشمس وتمددنا بارتياح على الأرض وكأننا عبرنا حدود بلاد أخرى واستطعنا عند وصولنا القرية المجاورة مقايضة سترة أخرى لقاء قليل من الجبن واللبن كنا نفضل خبزاً بالتأكيد لكن أهل القرية أنفسهم كانوا يعانون من نقصه وتابعنا طريقنا بعد أن هدأنا قليلاً من جوع بطوننا ولكننا كنا نتخذ دائماً جانب الحيطة والحذر إذ كان من الممكن أن يوقفنا الجنود في أية لحظة ويطلبون منا أوراقنا الشخصية التي لم نكن نملكها بالطبع أو ربما يشك بمنظرنا أهل القرية ويعتقدون بأننا قطاع طرق ويسلموننا للشرطة!

وصلنا إلى قرية بدت لنا في حالة من البؤس بحيث قطعنا الأمل في العثور على غذاء، صحيح بأن أشهر المعسكر عوّدت معداتنا الاكتفاء بالقليل ولكن منذ هروبنا إلى الآن لم نأكل سوى بعض الفاكهة البرية والأعشاب وقطعةالخبز الوحيدة ومن حسن الحظ أننا احتفظنا بنصيبنا من الملح الذي كان يجعل بعض النباتات صالحة للأكل.

في هذه القرية قايضنا أربع سترات دفعة واحدة لقاء حبوب خشنة كنا نقيت بها الطيور فيما مضى ولكن الآن لفقدان القمح أصبح الناس يستعملونها كبديل للطحين وصنع الخبز منه وهكذا أبدلنا آخر مانملك لقاء كيس من هذه الحبوب وتطوعت العجوز التي قدمته لنا بطحنه

وخبزه على نار موقدها وبدت لنا هذه العملية طويلة وكأنها دهر ونصحنا (عمر) الذي كان اكبرنا بعدم أكل جميع الأرغفة اليوم والاحتفاظ بها ليوم غد وبعد انتظار مرهق مدت لنا العجوز الأرغفة وانقضينا عليها كالجوارح وبدا لنا طعمها أحلى من العسل إذ ولأول مرة منذ شهور نبتلع لقمة ساخنة واستهلكنا الأرغفة واحداً تلو الآخر. وعند وصولنا إلى الرغيف الأخيرنظرنا إلى بعض وباتفاق جماعي أكلناه دون تردد قائلين «لندع هم غد ليوم غد». وفي الصباح الباكر تابعنا مسيرنا محاولين الوصول إلى الجسر الذي يفصل المنطقة الكردية عن التركية ولكنه كان مراقباً من قبل الجنود لذا قررنا الانتظار حتى الليل لنعبره وعند حلول الظلام وبعد فترة خيلت لنا دهراً بكامله وصلنا منتصفه وفكرنا بأمل مفرح أنه بعد دقائق نصل شاطئ الأمان ولكن فرحتنا لم تدم إذ انبثقت فجأة من الظلام ظلال أحاطت بنا وكان وقع المفاجأة من الشدة بحيث لم نقو على التلفظ بكلمة وأطعنا طاعة عمياء، كانوا جنوداً يحرسون الجسر ودون أن يتفوهوا هم أيضاً بكلمة قادونا إلى طرف الجسر ثم أدخلونا منزلاً صغيراً وأقفلوا علينا الباب، ومإن بقينا وحدنا حتى حاولنا أن نسترد تفكيرنا الصافي دون أن ننقاد نحو اليأس والهلع وفكرنا بأنه كان من الممكن أن يحدث الأسوأ إذ كان باستطاعتهم إطلاق النار علينا لحظة إمساكهم بنا أو حتى ضربنا بقسوة لكنهم بهدوء سجنوننا في هذه الغرفة مما أتاح لنا الفرصة للعثور على حل مناسب للخروج من هذه الورطة إذا طلبوا منا أوراقاً ثبوتية. حاول (هاجي) أن يتفحص النافذة ويرى إن كان بإمكانه فتحها ولكن الجنود هرعوا على صوت القضبان ولقنوه درساً بصفعه بقوة وبعد أن هدأوا قليلاً التفت أحدهم وقال:

«قولوا لنا مسقط رأسكم، هل من الممكن بأن يكون أحدكم من (تشنكوش)

أجاب سليمان آلياً: «أنا من تشنكوش» وسأله الجندي إن كان يعرف الشاويش فلان وهز سليمان رأسه بقوة وبصوت واثق:

«بالطبع فهو زوج أختي».

حسناً أجاب الجندي ثم خرج مع زميله، واكتشف سليمان ثقباً في الحائط وبدأ ينظر منه وينقل لنا مايحصل في الغرفة، فجأة أدخل فلاحان ورمي بهما على الأرض وبعد تفتيشهما وأخذ كل مافي جيوبهما أرسلا إلى الخارج وفهمنا بأننا نتعامل مع جنود همهم نهب المسافرين وليس حراسة الجسر أو إمساك الفارين وبعد فترة، دخلوا مرة أخرى الغرفة وخاطبوا سليمان: أنت من تشنكوش تستطيع الذهاب بسلام أما أنتم بالتأكيد فارين من الخدمة العسكرية ولهذا سنسلمكم إلى أقرب نقطة وتدخل سليمان قائلاً أرجوكم قطعت هذه الرحلة معهم وإن وصلت إلى هنا فبفضل مساعدتهم لذا لتترأف قلوبكم بنا ودعونا نذهب معاً وهنا بدأنا جميعاً نتضرع ونستجدي وهم يسمعوننا بابتسامة هازئة وكأنهم يتسلون ثم قالوا لنا»:

بالطبع لن ندعكم تذهبون هكذا، هيا أرونا مافي جيوبكم! ولعب منظرنا البائس دوراً مقنعاً جعلهم يصدقون بأننا بالفعل مجموعة يائسة لاحول لها ولاقوة سوى ثيابنا المهلهلة التي كنا مستعدين لخلعها إن تطلب الأمر وحين تعبوا من النقاش طلبوا منا الذهاب والخروج بسرعة من المكان وبعد أن أمطرناهم بوابل من الشكر والعرفان أسلمنا أرجلنا للريح دون أن نلتفت إلى الوراء شاكرين حظنا والنعمة الإلهية على هذه الفرصة الذهبية للنجاة.

أصبحنا الآن على طريق مدينة (سيلفان) الذي بدوره كان على المحور الذي ينتهي بديار بكر وسررنا لكوننا في الاتجاه الصحيح، وعاد (راسوم) بعد أن تفحص المنطقة يخبرنا بأنه عثر على حقل مزروع بأرضي شوكي بري وركضنا نحو الحقل الملئ وطبخنا النبات على النار وأكلناه بنهم حتى امتلأت بطوننا، وبعد أن سوينا مشكلة الطعام بقي علينا أن ننتظر المساء حتى نتابع مسيرنا وكان هدفنا عبور مدينة (سيلفان) أثناء الليل ولكن النهار جاء دون أن نقطع ربع المسافة إذ كانت المدينة أكبر مما نتصور ووجدنا أنفسنا في وضح النهار خائفين من أن يكشف أمرنا

خاصة وأن منظرنا البائس ملفت للأنظار وأكد ظنوننا رجل مرّ قريباً منا وتوقف قائلاً: «هل أنتم مجانين لتتجولوا هكذا؟ بالطبع أنتم جنود فارين وإن أنا لاحظتكم وعرفت بأمركم فتأكدوا بأن العسكر أيضاً سينتبهون لكم خاصة على هذه الطريق التي تسيرون عليها».

شكرنا الرجل الطيب لملاحظته ودلنا على مكان آمن نستطيع أن نمضي نهارنا فيه بانتظار حلول الظلام ولكن هذا المساء كنا خائري القوى من الجوع والتعب ولأول مرة أحسسنا بالتردد يهيمن على مجموعتنا إذ كانت الطرقات الفرعية المنتشرة بشدة تحيرنا وتغيظنا وأخيراً اتفقنا أن ننام قليلاً ثم نتابع طريقنا في الفجر. واستيقظنا بعد نوم متقطع وسرنا بخطى متثاقلة على درب لانعرف أين يؤدي بنا. دليلنا الوحيد كانت الشمس وبعد أن وصلنا إلى أعلى الهضبة توقفنا لنسترد أنفاسنا، وتوجه نحونا مباشرة خيالان لم يكونا بالطبع سوى من الجنود الأتراك وبكل بساطة طلبا منا أوراقنا الثبوتية.

المفاجأة أقفلت أفواهنا ولكن سليمان تدبر الأمر بسرعة قائلاً: «للأسف لانستطيع أن نفيدكم فنحن فلاحون من تفليس متجهون نحو (خاربيرت) قريتنا ولكن قطاع طرق هاجمونا وسرقوا منا مواشينا وحتى أوراقنا وثيابنا» وتدخلنا جميعنا كل واحد منا يحاول بلهجته أن يقنعهما بصحةالرواية محددين أسماء عائلاتنا وأحياء القرية لكنهما لم يتأثرا بحالتنا المزرية ثم تطلع أحدهم بنا بدقة وسأل فجأة: أهناك أرمني بينكم؟» وأحسست بماء بارد صب على وجهي ولكنني حاولت أن أبدو عادياً وبدأ بتفحصنا واحداً تلو الآخر ثم أشار نحوي قائلاً: أنت ألست أرمنياً؟ فأجبت بحرارة «العياذ بالله أنا تركي واسمي محمد أورلي» وتدخل رفاقي يؤكدون صدق كلامي لكنهما لم يقتنعا وبدأا يشددان على أن أظهر هويتي الحقيقية وخوفاً من أن يلحقا الأذى برفاقي انتهيت إلى الاعتراف بأنني أرمني وأني أنتظر الأسوأ، ولكن لدهشتي الشديدة، ابتسم الجندي بود وقال: «هذا ممتاز إذاً أنت بالتأكيد صاحب مهنة، نجار، خياط، جوهرجي، أي حاجة! سنصطحبك معنا (إلى ليجة) وبالتأكيد سنؤمن لك مكاناً جيداً وحماية تامة بالمقابل سنستفيد من أعمالك»

ووجب علي الآن الخروج من هذا المأزق وقول الحقيقة البسيطة: «للأسف كان بودي إرضاءكم ولكنني أجهل أي مهنة لأنني ببساطة فلاح» ولم يصدقاني إذ كيف يصدقون بأن أرمني يهبط بين يديهم ولايمارس أي مهنة معينة وهنا تدخل رفاقي محاولين إقناعهم بأننا لسنا سوى فلاحين بائسين لافائدة منا. والحمد لله اقتنع أحدهم أخيراً وأقنع رفيقه بأنه حتى لو سلمونا إلى الدائرة لن يحصدوا أية فائدة وهكذا تركونا في حالنا، ومرة أخرى شكرنا النعمة الإلهية على حظنا الجيد وعلى مؤزارتنا لبعضنا.

بعد هذه الحادثة استعدنا ثقتنا بأنفسنا وفكرنا بأنه لو قلنا الكلام الصحيح فإن أحداً لن يشك بنا إذ بعد أن تركنا الجنود دون أن يشكوا بأمرنا نستطيع بعد الآن أن نتجول بحرية ونخترع قصصاً كلما وقعنا في مأزق ما.

شاهدنا على طرف الطريق بعض النباتات الصالحة للأكل وبما أننا كنا نتضور جوعاً قضينا عليها جميعاً. وعلى بعد مسافة كان النهر صافي المياه فاستغلينا الفرصة لنرتوي ونغتسل وعلى الضفة المقابلة رآنا بعض الفلاحين فحيونا بلطف قائلين: «هيه أيها الرفاق من أنتم وماالذي أتى بكم إلى هنا؟».

رددنا التحية بحرارة وقررنا أن نجيب بصراحة:

نحن جنود فارون من العسكرية إذ كانوا يعاملوننا معاملة قاسية جداً وبقينا أشهر نتضور جوعاً فضلاً عن الشروط البائسة التي عشنا فيها ووجدنا في الهرب حلاً وخلاصاً ولكننا جائعون جداً وصدقونا إذا قلنا بأننا نسينا منظر الخبز، هل تستطيعون أن تقدموا لنا بعضاً منه وسنكون لكم ممتنين:

تطلع فينا الفلاحون بدهشة وقالوا:

تريدون أن نؤمن لكم الخبز! هل أنتم مجانين ألا ترون حالة القرية والبؤس الذي تعاني منه إننا لانستطيع تأمين لقمة العيش لأطفالنا؟ لم نلح في طلبنا وتابعنا طريقنا ولكن دون فائدة إذ أن جميع القرى التي مرينا بها كانت تعاني من نفس البؤس والشقاء، الشوارع كانت خالية والأطفال

كانوا جالسين بلا حراك بعيون فاغرة لاحياة فيها أما الكبار كانوا يمشون بهزال أشبه بحيوانات متضورة لم تأكل منذ أشهر. وكانت هذه الحالة متشابهة في جميع القرى والسبب الرئيسي عدم وجود أيد عاملة في الأراضي إذ كان الجميع قد رحل إلى الخدمة العسكرية ولم يبقَ أحد يهتم بالزراعة وتأمين المؤونة للأهالي.

بينما كنا نجر خطانا في الحقول شاهدنا حقلاً مزروعاً بالتوت البري رغم أن الفواكه كانت لاتزال خضراء فقد كنا مستعدين لقطفها ومإإن مددنا أيدينا على الثمار حتى انبثق من بين الحشائش رجل كأنه الشيطان ركض نحونا مهدداً بآلة طويلة وكأنه يحمي كنوزه الهزيلة وجعلنا ننبطح على الأرض قائلاً أقسى الشتائم والسباب ملقياً اللوم على الكفار الأرمن بأنهم سبب هذا الشقاء الذي آلوا إليه وكنا نستطيع أن نتدبر أمره نحن الستة ولكننا تركناه يفعل مايريد مشفقين على حالته المزرية أخيراً وبعدما فجر مافي قلبه من غضب طردنا من الحقل متوعداً.

بينما كنا نجتاز الغابة اكتشفنا في طرفها مزرعة فيها بضعة منازل، ركضنا نحوها آملين العثور على شيء يؤكل ولكن كل منزل كان يخيب أملنا أما في المنزل الأخير فكانت مفاجأة رهيبة تنتظرنا إذ أن عائلة بأكملها كانت ممدة على الأرض دون حياة وربما ماتت من الجوع أو من المرض وفي أقصى الغرفة كان هناك شاب لايزال حياً ولكنه يئن بضعف وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة وبما أننا لانستطيع أن نفعل شيئاً أغلقنا الباب بهدوء. بقلوب ممزقة.

كان البرد القارس لايرحمنا حتى في نهاية شهر حزيران وكم من مرة تساءلنا إن كنا لن نتجمد من البرد وفي الصباح نصبح جثثاً هامدة مجلدة ولكن كان ينقذنا هو تضامننا كمجموعة موحدة إذ ماإن يأتي الليل حتى كنا نلتصق ببعض ليستفيد كل واحد منا من حرارة جسم الآخر وعلى مر الأيام أصبح تعلقنا ببعض من الشدة كقطيع حيوانات يتبع واحدنا الآخر وكأن حياته معلقة بالثاني والدي سهل علينا الأمور هو تفاهمنا الشديد وعدم الخوض في أية مناقشة لافائدة منها إذ كنا قليلي

الكلام وبنظرة واحدة كنا نعلم ماذا يجب أن نفعل وكانت هذه الأخوة التي جمعت بين أرمني تركي وكردي ذكرى عزيزة لن أنساها ماحييت.

بعد أن قطعنا مسافة طويلة منذ طلوع النهار قررنا أن نتوقف ونستريح فور اجتياز الهضبة التي أمامنا ولكن الأوان فات إذ ماإن نزلنا الهضبة حتى رأينا قافلة من الجنود متجهة مباشرة نحونا وطبعاً لم يعد بإمكاننا الاختباء وتجمدنا في مكاننا وقلنا لأنفسنا هذه المرة قضي علينا بالتأكيد وترجل فارسان عن جواديهما وتقدما نحونا وخاطبانا بقسوة. ماذا هل كنتم تعتقدون بأنكم ستعبرون هذه الطرقات دون أن تلفتوا الأنظار؟ إنكم بالتأكيد فارون من الخدمة العسكرية، هيا اقتربوا قليلاً ولنرَ إن كان لديكم أجوبة مقنعة»:

تقدم (عمر) أولاً وركع فجأة على ركبتيه وبدأ يتضرع ويبكي قائلاً «نعم نحن جنود فارون ولكن لو تدرون المعاملة القاسية التي عانينا منها لما عاتبتمونا على هربنا، على أية حال ماذا تستفيدون إن زجيتم بنا في السجن إذ لافائدة مرجوة منا ونحن في هذه الحالة البائسة باسم الله دعونا نعود إلى أهالينا فنحن في نهاية شهر رمضان والعيد على الأبواب أرجوكم اكسبوا ثواباً ودعونا نذهب إلى قرانا!»

هذه المرة أيضاً نجحت الخطة إذ جعلت لهجة عمر المقنعة الجنود يتطلعون إلينا بازدراء قائلين: «هيا، هيا ارحلوا من هنا كومة من الحمقى، بالتأكيد فقدتم عقلكم حتى أنكم تنتقلون هكذا في وضح النهار».

وأضاف الآخر: «هيا ارحلوا قبل أن نغير رأينا، فمدينة ليجه وسجنها ليست بعيدة».

من جديد تابعنا طريقنا مهنئين أنفسنا على الشجاعة التي نستحقها بجدارة ولكن إلى الآن كنا مجموعة متوحدة يدعم أحدنا الآخر وتساءلنا عما سيؤول إليه حالنا بعد أن نفترق إذ استطعنا التغلب على المصاعب كوننا سوية ولكن هاقد وصلنا إلى هدفنا ووجب علينا أن يتابع كل واحد منا طريقه نحو قريته. وحانت لحظة الفراق وكم كانت صعبة إذ بعد تسعة أيام قضيناها معاً وتحملنا الشدائد بفضل تآزرنا أصبح من

الصعب تقبل متابعة طريقنا بمفردنا وافترقنا في جو مشحون بالعواطف المؤثرة وتمنينا أن يجمعنا القدر مرة أخرى ولكن بالتأكيد سنحتفظ بهذه الذكرى إلى الأبد.

طلب مني (راسوم) زميلي في الخيمة أن يبقى معي إلى أن يبلغ أحدنا هدفه ووافقت مسروراً لوجوده بجانبي على الأقل ليوم آخر إذ غداً كنا سنبلغ بحيرة (غلجيغ) مسقط رأسه وفي صباح اليوم التالي استيقظ (راسوم) متحمساً ورغم فرحي من أجله أحسست بقلبي يغوص في داخلي إذ من الآن فصاعداً سأصبح وحيداً في مجابهة الأيام المقبلة وماتخبئه من مفاجآت. وبعد مسيرة دامت ساعات وصلنا أخيراً البحيرة هذه المرة لحظة الفراق كانت أقسى من سابقتها وتطلع كل واحد منا نحو الآخر بتأثر وارتمى (راسوم) بين ذراعي وعانقني بشدة وكأننا شقيقان ثم قال لي كلمات بسيطة «إذا كنت بحاجة إلى ملجأ أو أية مساعدة لاتنسى بأنك تستطيع أن تعتمد علي».

بين الحياة والموت

من أجل الوصول إلى (خاربيرت) كان علي أن أدور حول البحيرة من جهة الغرب والعبور بممرات خطرة في الجبل وقطع مسافة ليست بقصيرة وفجأة أحسست باليأس يجتاحني وشجاعتي تخونني، وفكرت بطول الطريق التي يجب أن أقطعها لوحدي، كانت قدماي المرهقتين لاتحملان وزن جسدي الهزيل، وكانت غشاوة تغطي عيني تمنعني من الرؤية أبعد من عشرين خطوة وكنت أسمع دوماً طنيناً في أذني أما ثيابي التي كنت أرتديها منذ مغادرتي (برتاغ) فقد أصبحت أسمالاً بالية لاتغطي شيئاً من جسدي المريض وكان منظري العام يجعلني أفكر إن صادفت ذئباً فمن منا سيخاف من الآخر؟ وأصبح الرعب الذي نسيته بينما كنت مختلطاً مع الأتراك صديقي بعدما أصبحت وحيداً وأرمنياً من جديد.

كان الهواء يهب على البحيرة مصطحباً معه قطرات المطر التي لاحت لي متجمدة وأصبح الوضع لايطاق ووجب علي أن أتحرك وأجد مأوى ولكن قدماي خذلتني وانهرت على الأرض بلا حراك متحملاً الأمطار وكان تنفسي البطيء يتوازن مع دقات قلبي ومرّت ساعات وأنا أفكر بأنه ربما الموت ليس سهلاً إذ ماأكبر درجة تحمل الجسد البشري وأخيراً استطعت أن أزحف كحيوان أجر جسدي نحو منفذ صغير حشرت

نفسي فيه في وضعية جنين وهكذا أمضيت أول ليلة وحيداً في مجابهة المحن والمصاعب.

في الصباح منحتني أشعة الشمس بعض القوة لأقف على قدمي وبعد أن وجدت الاتجاه الصحيح سرت نحو البحيرة آملاً العثور على مايؤكل ومن بعيد شممت رائحة سمك مشوي وشاهدت بعض الرجال يصطادونه وآخرون يشوونه على النار اقتربت أكثر متعشماً قطعة لكن نظراتهم المخيفة وشكلهم المريب جعلني أعود أدراجي وأهرب قدر المستطاع خوفاً من الوقوع أيديهم. وعدت أدراجي إلى القرية الأخيرة وصادفت مجموعة من الرجال يعملون في الأرض وشدني أحدهم طالباً مني أن أساعدهم احتجيت قائلاً بأنني لاأقوى حتى على حمل نفسي ولكن الآخر سحبني أكثر دون أن يصغي لاحتجاجي وهنا تدخل أحد الرجال يبدو أنه قائدهم قائلاً: ألا تراه بأية حالة مزرية دعه وشأنه حالاً ثم صفعه صفعتين حتى يؤدبه وتقدم نحوي وقادني من يدي نحو الطريق العام وبهدوء قال لي «لاأدري من أنت ولامن أين أنت قادم ولكن من الأفضل لك وأنت في هذه الحالة البائسة أن تجد أهلك فوراً، وإن كنت ذاهباً إلى (مزيريه) فأنت في الاتجاه الصحيح».

تلقيت اسم (مزيريه) وكانه أنبوبة أكسجين ضختني بالهواء اللازم وتقدمت كآلة مردداً في عقلي «مزيريه، مزيريه» وفجأة أحسست وكأنني سأطير نحوالقرية ولكن أمامي طريقاً طويلة فعاهدت نفسي أن أسير على يدي وقدمي إن تطلب مني الأمر ذلك.

عند المساء أحسست أن تقدمي كان البطء بحيث قطعت خلال ست عشر ساعة مسير مسافة أقطعها عادة في ثلاث ساعات وعندما أصبح الظلام حالكاً صار من المستحيل أن أتابع طريقي وبدأت أتحسس بيدي الأرض من حولي واستطعت أن أكتشف حفرة واسعة كافية بأن تسعني ورميت نفسي فيها علها تقيني البرد القارس أو أي مطر محتمل وبينما أنا ممدد هكذا دون أن أجرؤ على القيام بأية حركة خوفاً من أن أكون في وكر ثعابين أو أي حيوان آخر، أحسست بأن أعضائي تجمدت دفعة واحدة حتى دمي كنت أشعر أنه تجمد في أوردتي وقلت لنفسي: هل الموت آت؟ لكن كان علي أن أقاومةإذ من المستحيل أن أقطع

كل تلك المسافة لأموت هذه الميتة وبدأت أقنع نفسي بأن أقاوم أكثر وتراءت لي في هذه اللحظة صورة أمي بوجهها المبتسم وفجأة بدأت ملامح أختي (آنا) تأخذ محل وجه أمي ولوهلة صعقت للتشابه الكبير بين الاثنتين لكن نظرات أختي تعاتبني فتذكرت كيف قضيت الليلة عندها ثم غادرت في الصباح دون أن أودعها أو حتى أقول لها كلمة وبدأ الندم يغطي افكاري وأحسست بدموعي تنزل على خدي واحدة تلو الأخرى وانهرت في بكاء مرير أغسل به كل مامررت به منذ مغادرتي قريتي وأردت أن أوجه كلامي لأختي وأطلب منها الصفح على نسياني لها طوال الفترة الماضية وعاهدتها بأنني لن أموت هنا بل سأصمد وأعثر عليها وأراها مرة أخرى وشعرت بأنني قريب جداً منها، ربما عدة ساعات مسير تفصلنا، نعم سأعثر على القرية التي تقطن فيها وأصل إليها حتى زحفاً. ثم رفعت عيني إلى السماء وصليت قائلاً:

يارب سامحني إن لم أكن مخلصاً لك أو قريباً منك، لاتدعني يارب أموت هنا، أعطني الفرصة والقوة حتى أجد أختي ثم لتكن مشيئتك فأنا أودع حياتي بين يديك».

واسترحت أخيراً، مرهقاً ولكن في نوع من السلام وبقيت هكذا دوماً دون أن تغفو عيناي.

عند ساعات الصباح الأولى استطعت دون تردد أن أنهض مرتكزاً على عكازة جعلتها مسندي وبدأت أنزل الهضبة دون أن ألتفت إلى الوراء ومن بعيد لاحت لي المزارع الخضراء والمنازل المحيطة بها صحيح بأنني لم أكن متأكداً من اتجاهي لكن شيئاً واحداً كنت واثقاً منه هو أنني كنت في منطقة (خاربيرت) وبأنني سأجد ماآكله في قرية (خارساز) كما ظنت وبدأت أطرق الأبواب طالباً شيئاً يؤكل لكن منظري البائس لم يساعدني على طلب الشفقة وأخيراً قال لي أحدهم «إذا كنت جائعاً جداً إذهب وكل من شجرة التوت فهي لاتخص أحداً» اقتربت من الشجرة ولحسن الحظ كانت منخفضة واستطعت بصعوبة التقاط غصن محمل بالثمار ولكنها للأسف كانت لاتزال خضراء ورغم ذلك رميت بعضاً منها في فمي وندمت بعدها إذ أحسست بألم عظيم يجتاح معدتي ثم يصعد إلى رأسي وينتشر في جسمي كله ولم

أكد أخطو خطوتين حتى وقعت على الأرض فاقداً الوعي وبعد فترة أحسست بضربات على جنبي فتحت عيني ورأيت امرأة تحاول أن توقظني قائلة «من أنت؟ وماذا تفعل في منتصف الطريق بهذه الحالة المزرية؟» أجبتها بحذر «أنا بائع جوال من (موريه) هاجمني قطاع طرق وسرقوا كل ماأملك ومنذ ذلك اليوم وأنا جائع أرجوك أعطني قطعة خبز إذا لم يكن لديك مانع».

لكن المرأة لم تقتنع بكلامي بل تابعت باستهزاء «هراء، أراهن بأنك أرمني هارب من العسكرية؟» وهنا أجبتها بغضب: «نعم وكنا ستة هربنا من الخدمة لست بائعاً من (موريه) ولكن لدي أقرباء هناك على الأقل أرجو أن تدليني على الطريق المؤدية إليها» وهنا أشارت لي المرأة بيدها «عليك أن تأخذ هذا الاتجاه مباشرة فتصل إلى القرية».

وهكذا بدأت السير من جديد ووصلت إلى منطقة (هوريه) التي أذكرها محاطة بحقول خضراء لكن الآن لم يبق منها سوى مزارع مهجورة نبتت فيها الأعشاب حتى أنها تعيق المسير. فكرت بحرارة حتى لو وصلت إلى موريه هل سأجد طريق منزل أختي؟ أو بالأحرى هل لاتزال هناك ربما جدت أحداث كثيرة وأنا غائب طوال هذه المدة، انتبهت فجأة بأنني في منطقة مألوفة ولكي أتأكد من ذلك سألت صبياً يرعى بعض الخراف فأجابني «نعم، نعم إن موريه على بعد دقائق من هنا».

تلقيت هذه الإجابة كهدية من السماء وبدأ قلبي يطرق بسرعة لكن ضعفي الشديد كان يمنعني من التقدم بسرعة كافية وخشيت أن أسأل أهل القرية عن معلومات حول أختي إذ أن مظهري البائس كان مثيراً للشك والريبة ولكنهم لم يعيروني انتباهاً عندما كنت أمر من جانبهم ومن بعيد شاهدت خيال امرأة اعتقدتها أرمنية وتقدمت رويداً رويداً لأسألها وفي هذه اللحظة وقع عكازي ولم أقوى على أن ألتقطه ترنحت قليلاً ثم في ثانية كنت مغشياً على الأرض وأنا أنادي (أختاه، أختاه) وركضت المرأة لنجدتي وللحظة خيل لي أنني رأيت وجه أختي قبل أن أغيب عن الوعي.

في الواقع لم أكن أحلم إذ أن المرأة الأرمنية عرفتني ونادت أختي وحملتاني دون جهد إلى حديقة المنزل وسمعت صوت أختي الحنون ينادي:

«أواه ياغازاروس أخي الصغير، ياأخي الحبيب، منذ أن غبت عني وأنا لم أكف عن الصلاة من أجلك ياصغيري وهاأنت أمامي كهدية من السماء وكأن الله استجاب لدعائي كم خشيت من موتك أو حصول مكروه لك ولكنك الآن بقربي لن أدعك تغيب عن ناظري وسأهتم بك حتى تسترد عافيتك فأنا متأكدة بأنك عانيت الكثير وتحملت الشدائد حتى وصلت إلى هنا».

بجهد كبير استطعت أن أرسم ابتسامة صغيرة على شفتي فهوت علي (آنا) تقبلني وتحتضني بحنان طاغ، ثم أحضرت صديقتها جرة ماء عذب ورغيف خبز طازج واكتفيت أولاً بشرب جرعة صغيرة من الماء إذ بما أنني لم آكل منذ زمن طويل خشيت أن أتألم إذا أكلت بسرعة ولكنهما أقنعتاني بأكل الرغيف بأكمله الذي كنت قد نسيت طعمه وشكله وما إن قربته من أنفي حتى أدركت بأنني منذ أشهر لم أشم رائحة أطيب وألذ.

ثم حملتني أختي برقة وأحضرت ماءً ساخناً ولم أخجل من أن تحممني إذ كنت كطفل صغير أستمتع بأن تداعبني في الماء وتمسد جسدي لإزالة أوساخ الشهور الفائتة ثم ألبستني ثياباً نظيفة وقادتني نحو سرير مريح وأغلقت عيني فغرقت في سبات عميق لم أذقه منذ زمن طويل.

لعدة أيام عانيت من نوم مضطرب إذ كنت أصحو صارخاً أحياناً أو أرى كابوساً مخيفاً فأرتجف في سريري سهرت أختي عليَّ طوال هذه المدة تحدثني بهدوء وتحاول محو الذكريات المؤلمة وعلمت من خلال هذياني كل ماعانيت وقاسيت خلال فترة غيابي عنها، وعندما صحوت بعد عدة أيام وجدت قربي أولاد وبنات أعمامي الذين أتو لرؤيتي وكان اللقاء مؤثراً وتعانقنا محتفلين بهذه المناسبة النادرة ولكنني سررت أكثر لرؤية ابن عمي (أسادور) الذي تركته وحيداً في قرية كاسيريغ عندما رفض معلمي أن يحتضنه وأثبت (أسادور) شجاعة فائقة عندما استطاع أن يجد بمفرده قرية (خاربيرت) والعثور على أختي وبنات أعمامي صحيح أنه لاينطق بأية كلمة أرمنية إذ كان صغيراً عندما استقر في منزل عجوز كردية ليرعى قطيعها ومنذ ذلك الحين لم يستعمل لغته الأم ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف دوماً بأنه أرمني وبأنه لن ينسى ذلك

ماحيي وزاد كرهي في تلك اللحظة لما فعله بنا الأتراك والحالة التي وصلنا إليها.

وبينما كنا نتحدث دخل علينا زوج أختي، رجل ناضج ذو أصل كردي وبهدوء رحب بي وقال بأنني أستطيع المكوث في منزله ماشئت وبأنني دوماً على الرحب والسعة وتأثرت لكلماته وشكرته بعمق وبالفعل لم يخلف الرجل بوعده إذ طوال تلك الفترة استرحت في المنزل دون أن يزعجني أحد واطمأن بالي على أختي التي لم تتزوج أرمنياً ولكن على الأقل كان زوجها يعاملها معاملة لائقة.

وبالطبع كان من المستحيل أن أستغل كرم وطيبة مضيفي لفترة أطول إذ في مثل هذه الأيام كان تأمين المؤونة صعباً وكان الخوف من المجاعة يراود أذهان الجميع، وكانت ابنتا عمي (هيرنه) و(فلور) تساعدان أختي في إطعامي وتحضران بعض المأكولات الخاصة من أجلي والتي كانت تذكرني بالأيام الجميلة الماضية والمباركة عندما كانت أمي تهيء الطعام لجميع أفراد العائلة.

كنت أشعر أنني لن أكتفي من العناية التي كانت أختي توليني إياها وكان جسدي قد برؤ تقريباً من الجروح والكدمات التي تعرض لها وفي هذه الأثناء بدأ موسم جني محصول الشعير وكنوع من التعبير عن شكري اقترحت على زوج أختي مساعدتهم في الحقول وسررت بأنني لازالت أحتفظ بقواي ولكن بعد عدة ساعات من العمل أحسست بالانهاك وأدركت بأنني لاأزال أحتاج إلى وقت طويل لأستعيد قواي المفقودة ومع ذلك بقيت أعمل بجهد لأساعدهم في أعمالهم وكان بين العمال شاب أرمني اسمه (خاشادور) من قرية (قلقيلة) والذي ما إن بدأت بالعمل في الحقل حتى اتخذ موقفاً عدائياً مني معتقداً بأنني سأحتل مكانه وبأن زوج أختي سيطرده وبعد أيام أفهمته بأن إقامتي مؤقتة في هذا المكان وبالفعل كنت قد أرسلت رسالة إلى معلمي فائق افندي أخبره أنني بخير ومستعد للعودة إليهم إن كانوا لايزالون بحاجة إلي، صحيح أنه كان صعباً علي فراق أختي التي بالكاد عثرت عليها ولكن كان من الأفضل أن أترك المكان وأعود إلى منزل مستخدمي التركي حتى لاأسبب الإحراج لأي شخص كان. وبالفعل

جاءني رد سريع مع خادم تركي يطالبني فيه معلمي فائق بالعودة حالاً إليهم دون أن أنتظر يوماً واحداً.

أعلمت ـ آنا ـ بهذا الخبر وشرحت لها موقفي وتفهمت أختي الوضع تماماً وطلبت من الله أن يوفق خطاي واشترطت علي أن أعلمها دوماً بأخباري وأرسل لها رسائلاً لتطمئن علي ووعدتها بذلك، وأهداني صهري كعرفان لعملي في الحقل أربع مجيديات حتى أشتري زوج أحذية أتابع به طريقي وفي الصباح الباكر ودعت أهل البيت ورحلت مع الرسول التركي نحو (برتاغ)، ووصلنا إلى قرية (مزيريه) دون صعوبة تذكر وأردت أن أبتاع الأحذية لكن مرافقي منعني من ذلك قائلاً «وفر مالك لأيام ضيقة، لم يبق على وصولنا القرية مسافة طويلة، دعهم يشترون لك الأحذية فهذا واجب عليهم» اقتنعت بكلامه وكان علي متابعة المسير حافي القدمين، أحسست بفرحة غامرة وأنا أجتاز من جديد هذه الطرقات التي أحفظها عن ظهر قلب والتي اعتقدت بأنني لن أراها من جديد وعندما اقتربت من منزل معلمي ارتمى عليّ الأولاد صارخين «محمد عاد، محمد عاد» وخرج فائق أفندي ليستقبلني بحفاوته المعتادة ثم سلمت على أفراد العائلة، وكان الجميع مسرورين لعودتي وأجلسوني هذه المرة إلى مائدتهم لتناول العشاء وبدأت في اليوم التالي عملي اليومي وذهبت لقطاف المشمش لتجفيفه ولكن ما إن تسلقت الشجرة الأولى حتى أحسست أن جسدي كان من الضعف بحيث لن يقوى على حملي وحمدت الله بأنني كنت وحيداً ولم يرني أحد في هذا الموقف المهين وأدركت أنني سوف أحتاج إلى وقت حتى أنسى آلامي خاصة خوفي من الحيوانات، والبشر وبأنني مهما حاولت أن أنسى فإن المخاطر والأحداث التي مررت بها سوف تبقى مطبوعة في ذاكرتي حتى الأبد.

العلاقات المترابطة من جديد

١٩١٩

انتهت الحرب وخسر الأتراك ربما بسبب القادة الذين هربوا من المعارك ولكن السلام الداخلي كان لايزال مقلقاً وتساءل الأرمن الباقون عما سيؤول إليه حالهم، لكن الأوضاع بقيت على حالها ولم يستجد شيء. وبينما كنت أسير يوماً في شوارع مزيريه شد انتباهي لافتة على باب احد المحلات المغلقة التي كانت ملكاً للأرمن ورغم أنني كنت أقرأ التركية وجدت صعوبة في فك لغز هذا الاعلان المكتوب بلغة إدارية. وبهدوء أخذت البلاغ ووضعته في جيبي. في غرفتي وعلى ضوء شمعة استطعت ترجمة الكتابة بصعوبة وكان الآتي: أنتم أيها الشعب التركي المؤمن بالإسلام عليكم إظهار طاعتكم لقادتكم الذين قرروا مايلي:

منذ الآن فصاعداً جميع الأرمن الذين يخدمون لدى العائلات التركية، شباناً، نساءً، أو أطفالاً يعتبرون أحراراً ويستطيعون أن يفعلوا مايشاؤوا أو أن يعودوا إلى قراهم الأصلية.

توقيع الوالي «علي سيدي»

صعقت لهذا الأمر إذ لمَ لم يخبرني أحد عنه إلى الآن أو ربما كان فخاً جديداً يريدون به أن يجمعوا الأرمن من جديد لترحيلهم ولذا قررت

أن أتجاهل الإعلان وأنتظر الأحداث المقبلة.

مرت أشهر دون أن أسمع شيئاً وكنت أتابع أعمالي كالعادة ولكن أمراً ما في داخلي تغير. فقد أدركت بأنني أصبحت حراً وأن علي مواجهة معلمي برغبتي بالعودة إلى قريتي علني أعثر على آثار بعض أقربائي ها قد مرَّ أربع سنوات على خدمتي لهذه العائلة وأحسست بأنه آن الآوان كي أبدأ حياتي ومسؤوليتي لوحدي ولكن عندما أفصحت عن أفكاري لفائق أفندي اعترض بشدة وحاول أن يقنعني بالبقاء قائلاً إن حياتي هنيئة وآمنة بينهم وبأنه لاينقصني شيء ولكن كلامه لم يغير شيئاً من قراري مما جعله يطلب مساعدة أخيه أمين لاقناعي وقال الأخير بأنهم يعتمدون علي في موسم الحصاد الذي آن أوانه واضطر أخيراً أن يعترف بأن الوضع غير طبيعي في البلاد وبأنه من الأفضل لي أن أبقى عدة أشهر أخرى حتى يتأكد من حقيقة الأوضاع.

وبالفعل بقيت شهرين أعمل بجد وأنجز الأعمال المتراكمة وآن يوم رحيلي وحملني معلمي حاجات متنوعة وأعطاني حماراً يرافقني على الطريق وأهداني ثماني مجيديات وعانقني الدكتور أمين قائلاً: إلى اللقاء محمد وليكن الله معك أتمنى أن تجد حياة سعيدة بعيدة عن المخاطر ولكن تأكد بأن منزلنا دوماً مفتوح لك إن عانيت من المشاكل، أتمنى من الله أن يعيش الجميع في هذه البلاد حياة متآخية ولتنته هذه الصراعات إلى الأبد.

من جديد سلكت طريق مزيريه وأنا غير متأكد ماذا سأفعل، وصلت قرية خاربيرت وتركت أغراضي عند صديق تركي وبدأت أدور في الشوارع علني أهتدي على بعض المعارف بالصدفة وتوجهت نحو مبنى المدرسة الأميركية ولدهشتي الكبيرة رأيت قرب بابها ابن عمي (أسادور) وأخته (سارة) وتعانقنا بشدة والدموع تتساقط من مآقينا. وبسرعة أعطاني ثلاث رسائل في حالة يرثى لها، سلموها للتو إلى المدرسة وكانت مرسلة من أمريكا منذ فترة طويلة وعندما قرأت على المغلف اسم أخي (هوفانيس) كدت أقع مغشياً لو لم يسنداني، أمن المعقول بعد كل هذه السنين أن أعثر على آثار أخي؟ كانت الرسالة الأولى باسم زوجته (فارتانوش)، الثانية للعم (سركيس) أما الثالثة فكانت باسمي وأحسست بقلبي يتمزق لهذا المصير الذي وصلنا إليه والذي

يجب أن أكتبه لأخي، كيف أقول له بأنه لاأثر لزوجته وطفله أو حتى لبقية أفراد العائلة ولكن من واجبي أن أعلمه بكل ماحصل وذهبت لمقابلة المدرس الذي كان رجلاً أمريكياً تعاطف مع الأرمن وجعل مدرسته داراً للأيتام وأكد لي بأنه سيعمل شخصياً على تأمين وسيلة لايصال الرسالة إلى أمريكا وبالفعل وفي الخامس عشر من أوكتوبر عام ١٩١٩ وصلني رد من أخي على الرسالة التي بعثتها له مع ست قطع ذهبية وكتب أخي يقول بأن أموال العالم لاتكفي لتعويض المآسي والأهوال التي قاسيناها طوال الأعوام الماضية، على أية حال هو أيضاً قاسى الكثير حتى استطاع تأمين نفسه واستقرار حياته وكتب يروي اشتياقه لبلاده ولعائلته وكم كان يشتهي أن يجد نفسه ولو لدقائق في بيت العائلة محاطاً بأفرادها حول المائدة حتى لو أكل الخبز الجاف.

عملت أثناء الخريف هنا وهناك دون أن أجد عملاً محدداً أو مكاناً أستقر فيه وطوال هذه الفترة استقبلتني خالتي (مريم) أخت أمي ورغم اعتنائها بي إلا أنني قررت أن أجد منزلاً مستقلاً لكثرة ماأرهقتني بالحث على الزواج الذي كنت أجده غير وارد على الاطلاق في هذا الزمن، كيف أتزوج وأنا غير مستقر مادياً أو معنوياً أما هي فكانت ترى أنني تأخرت وبأنه آن الآوان لأكون عائلة وأخيراً ابتعدت عن هذا الموضوع عندما استقليت في منزل بمفردي ولكنني كنت أزورها من آن لآخر لأطمئن عليها فهي رغم كل شيء فرع من عائلتي التي أفتقدها.

● فتيات أرمنيات في ميتم الكلية الامريكية ، في مدينة خاربيرت «١٩١٦»
وتبدو ـ نقارت ـ بينهن .

وداعاً مورينيغ

١٩٢٠

في الربيع انتقلت إلى مزيريه وهناك وجدت صديق الطفولة (يريا كالاجيان) الذي وجد لي عملاً في مبنى البعثة الأميركية ولأول مرة بدأت أقبض راتباً ثابتاً لقاء عملي وتحت رئاسة غير تركية وأحسست بأن الحظ بدأ يبتسم لي قليلاً قليلاً. للأسف مع اقتراب الربيع بدأ عدد أفراد عائلتنا يتقلص فقد ماتت زوجة عمي المرحوم غازاروس واهتميت أنا بمراسم الدفن إذ في هذا الوقت كان من الصعب العثور على رجل دين للقيام بالمهمة. ثم لحقتها (فلور) ابنتها الكبرى التي توفيت بعد صراع مع المرض دام فترة من الزمن وكان عزائي الوحيد أنني استطعت تحقيق أمنيتها بنقلها من بيت زوجها التركي إلى مستشفى ملئ بالأرمن ليتسنى لها العيش مابقي لها من أيام بين أبناء شعبها وسماع لغتها الأم.

في نهاية الصيف انتشر نبأ بأن الشباب الأرمن مطلوبون للخدمة العسكرية مرة أخرى وفكرت بأنه من المستحيل أن أعيش في تلك اللحظات الجحيمية من جديد ولهذا اتفقت مع ابن عمي (كربيت) أن يراقب الطريق بينما أعمل في الحقل وإخطاري حال رؤيته أي جندي تركي لأختبئ ومرت الأيام والخطة تسير على مايرام إلى أن جاء يوم وقادتني خطاي نحو (مورينيغ) قريتي الأم، وبينما رحت أتأمل بتأثر

البيوت التي كانت مليئة بأحبائي رأيت من بعيد (محمود أفندي) ذلك الرحل المقيت الذي كان سبباً لكثير من المتاعب في القرية، اختبأت في ركن أحد المنازل منتظراً أن يبتعد لكنه كالعادة لم يزل يحب الثرثرة واستغليت فرصة اعطائه ظهره لي ووليت هارباً لكنه انتبه لحركتي وركض خلفي منادياً (هيه أنت إلى أين تركض هكذا؟) وأخيراً لحق بي وأمسكني بكتفي وعندما رأى وجهي عرفني للحال وصرخ: ها أنت كنت من سكان القرية الأرمن، إن على الشباب من عمرك أن يكونوا في الخدمة ماذا تفعل متجولاً في هذه الأمكنة؟ وببراءة تطلعت عليه قائلاً: ماتقوله صحيح ولكنني تحت أمرة الدكتور أمين أفندي وهو الذي أعفاني من الخدمة وجعلني في خدمة أحد أقربائه وهو ملازم في الجيش وسوف يأتي غداً لاصطحابي إن أردت سوف أعرفك عليه وهو يؤكد كلامي وتردد محمود آغا قبل أن يصرخ من جديد: إنك لمتحدث بارع وأنا لاأصدقك لذا سوف أسجنك في أحد هذه المنازل وسوف نرى غداً صباحاً من سيصحبك، ثم زج بي في المنزل المجاور وأقفل علي الباب لكنه كان يجهل بأنني أعرف عن ظهر قلب كل المنازل والأحياء والحدائق لذا كان من السهل جداً علي أن أهرب مع اقتراب المساء وشعرت بالفرح بأنني خدعت هذا الرجل الكريه الذي لم يشف غليله بعد من الأرمن ضارباً بعرض الحائط كل نداءات الضمير والوجدان. لكنني سررت لخبر بأن (نفارث) تعافت هي وأختها (مارتيزا) من مرضهما الخطير لأنني عندما رأيتهما آخر مرة شعرت بأنه لاأمل من شفائهما إلا أن الأخت الكبرى (ساتينيغ) لم تنج، كما أنني علمت بأن محمود آغا اصطحب الأختين إلى منزله وحاول جاهداً أن يزوج (نفارت) إلى ابن أخيه (مأمون) ولكنها رفضت رفضاً باتاً هذا الزواج واستطاعت بعد فترة الهرب من المنزل واللجوء إلى ميتم (خاربيرت) وكان هذا أسعد خبر أسمعه منذ سنوات إذ لم تزل تحتل (نفارت) ركناً هاماً في قلبي وأدركت الآن لماذا لايخفق قلبي لباقي الفتيات ولمجرد فكرة كونها بمأمن من خطر الأتراك جعلتني أقفز فرحاً وبدأت أصرخ بصوت عال:

«أيها الرجل الكريه استوليت على ثروات الأرمن، وعلى نسائهن وبناتهن وجعلتهن عبيداً لك، حاولت جعل (نفارت) تركية ولاتزال تبحث عن أي شاب أرمني لترسله للجندية ولكنني اليوم خدعتك وسيأتي الوقت الذي ستنال فيه جزاءك العادل، مورينيغ قريتي الحبيبة كم أنا مكره على مغادرتك ولكن تأكدي بأنك ستبقين في قلبي وذاكرتي. ومن جديد وجدت نفسي أعيش حياة تائهة دون مأوى ولاعمل، بل أطارد من قبل الأتراك وأتنقل من قرية لأخرى ومن منزل صديق لآخر دون أن أستقر في مكان. وأصبح الوضع لايطاق فقد كنت غير قادر على التجول بحرية خوفاً من أن يعرفني أحد ويشي بي وكنت أحياناً أذهب إلى المدينة وأضيع بين الزحام ولكن الخوف من أن يراني أحد المعارف كان دوماً يلازمني وكان لابد من العثور على حل نهائي. كنا أحياناً نجتمع مع بعض الشباب الأرمن الفارين مثلي ونناقش وضعنا وأخيراً وصلنا إلى قرار خطر على بالنا لأول مرة ألا وهو الهروب نهائياً من هذه البلاد والخلاص من هذا السجن القسري وكانت حدود سورية أقرب حدود نعرفها ونستطيع من خلالها الخروج من هنا ولكن رحلة كهذه كانت بحاجة إلى مساعدة من يعرف الطرقات جيداً وكان رجل تركي اسمه (عثمان) يقوم بهذه الرحلة مصطحباً معه مجموعة من خمسة إلى ستة أشخاص لقاء خمس قطع ذهبية ولكننا علمنا بأنه مرة وشى بالناس الذين يقودهم بعد أن قبض أجره ولذا كان من المستحيل أن نثق به وهكذا بدأنا نبحث عن خطة أخرى، حيث اقترح علينا صديقنا (هاروت، الهرب ليس نحو الجنوب بل نحو الشرق لأن الطريق هناك أقل حراسة والدليل الذي سيقودنا كردي وليس تركياً وتحمس الجميع لهذه الفكرة سواي إذ من المستحيل أن أثق بشخص ليس أرمنياً يقودني نحو النجاة وحاول الكل إقناعي ولكنني كنت مصمماً على رأيي كنت أتفهم موقفهم لأنهم متزوجون ولديهم عائلات ويودون الهرب اليوم قبل الغد أما أنا فليس هناك مايحثني على رمي نفسي هكذا وحاولت بدوري إقناعهم على العدول عن فكرتهم لكنهم في اليوم التالي رحلوا مع نسائهم مع الدليل الكردي.

كان يوم سفرهم ممطراً لكنهم وصلوا النهر بسلام وبما أن منسوب المياه كان منخفضاً استطاعوا عبوره بسهولة وبينما كان رفاقي يحاولون تجفيف أنفسهم على الضفة الأخرى شهر الدليلان الكرديان أسلحتهما عليهم وانتزعا منهم ماتبقى من مال ومتاع وبصعوبة استطاع المساكين الفرار منهما وعادوا بعد يومين إلى القرية خجلين من أنفسهم نادمين لعدم سماع نصيحتي.

دبّ اليأس في قلوبنا وبتنا نفكر حائرين ماهو مصيرنا؟ ماذا يريدون أن يفعلوا بنا؟ ألا يكفيهم لحل كل العذاب الذي أذاقوناه؟ هل ضمائرهم متحجرة إلى هذه الدرجة؟ وبدأ أعضاء فريقنا يعزي واحدنا الآخر باعثين قليلاً من الأمل في القلوب. متأملين فرجاً قريباً، صحيح أني بدأت الآن أراسل أخي بانتظام وكان يبعث لي مالاً بين الحين والآخر ولكن لا المال ولا الكلمات تعوض وجوده قربي وكنت أقول لنفسي هل سيأتي اليوم الذي ساراه فيه مرة أخرى؟ أم هل سأجد نفس في اميركا وأحقق حلم طفولتي؟ وكنت بين فترة وأخرى ألتقي بأحد أفراد عائلة معملي القديم في برتاغ وكانوا دوماً يؤكدون بأنهم لم يتخلوا عني وبأنني على الرحب والسعة متى شئت. وفكرت جدياً بالأمر وأدركت أنني إن أردت العيش بسلام علي أن أعود إلى (برتاغ) وأصبح تركياً واسمي (محمد) من جديد.

الطبيب أمين أفندي.

١٩٢١

في منتصف شهر شباط وبالتحديد يوم عيد (القديس سركيس) ذهبت إلى مدينة برتاع بعد أن ملأت حقائبي بالهدايا لجميع أفراد العائلة وكان اجتياز الفرات بالقارب سهلاً وطوال الرحلة لم أعان من أية صعوبة وبتأثر اقتربت من البيت الذي احتواني وطرقت الباب ودخلت بهدوء كانت العائلة بأكملها مجتمعة في الداخل وهبّ الجميع عند رؤيتي وعانقني (فائق) مندهشاً لوجودي فقلت لهم أنني في إجازة ولاأعمل لذا استغليت الفرصة لزيارتهم وقدمت لهم الهدايا بفرح كبير خاصة لحرارة استقبالهم.

في المساء جاء أصدقاء (فائق) لقضاء السهرة وعلمت منهم أن فرقة عسكرية متجهة إلى (كوزات) ستغادر في اليوم التالي مهمة وكنت أعلم بأن الطبيب أمين قد استقر منذ فترة في هذه المدينة مع عائلته وخطرت على بالي فكرة رائعة نقلتها لفائق قائلاً: اسمح لي أن أغادر غداً صباحاً مع هذه الفرقة لزيارة الطبيب أمين فأنا في شوق لرؤيته ولاأريد أن أعود إلى (خاربيرت) دون أن أراه.

اندهش فائق لهذا القرار وحاول أن يثنيني عن عزمي لأن الطرقات متراكمة بالثلوج ومن الصعب علي الوصول إلى هناك، وإن كان للجنود

أسبابهم فأنا مجنون إن أردت الانضمام إليهم، شكرت فائق بحرارة على قلقه عليّ واهتمامه بشأني ولكنني قلت له بأنني غالباً ماقمت برحلات خطرة لذا ليس من الجديد علي أن أسافر في ظروف قاسية كهذه ضحك فائق في النهاية لإصراري والتفت إلى زوجته قائلاً: أرأيت بنفسك درجة عناد الأرمن ما إن يقرروا شيئاً من المستحيل أن يعودوا عن قرارهم حسناً إذاً بما أنك مصمم، ضعي هدايا أمين وعائلته في الكيس ليعطيهم هو نفسه لهم. وفي اليوم التالي جاء فائق لايقاظي ثم أعطاني رسالة مكتوبة بخط يده يطلب منها من قائد الفرقة أن يصطحبني معهم وأن يراعي ألا يزعجني أحد أثناء السفر.

قرأ قائد الفرقة هذه الأسطر وبدون أن يعلق عليها طلب مني الانضمام إلى فرقة المشاة إذ في المقدمة كانت فرقة الخيالة المؤلفة من عشرة يتبعهم عشرون جندياً مشاة وبصمت بدأنا سيرنا الذي بالطبع لم يكن سهلاً في هذه الظروف القاسية إذ كان الثلج أحياناً يغطي خواصرنا وكنت أحاول دوماً أن أبقى وراء الخيالة وكنت كلما التفت إلى الوراء أرى أن عدد المشاة كان ينقص وتظاهر الضابط باللامبالاة لهذه الظاهرة وفي نهاية المطاف وبعد أن أصبحنا في منتصف الطريق طلب بعضهم المبيت في القرية التي وصلنا إليها ليتابعوا المسير في الصباح التالي ووافق تقريباً الكل إلا أربعة فقد أصروا أن يصلو (كوزات) في نفس الليلة وفكرت ملياً وقررت أنا أيضاً أن أتابع مع هؤلاء لأن بقائي مع الآخرين في نفس المكان سيجرني إلى المناقشة وطرح أسئلة أنا بغنى عنها وهكذا قررت رغم تعبي الشديد أن أنضم إلى فرقة المتابعين. وسلكنا الطريق بصعوبة ولكن إصرارنا على الوصول كان يمدنا بقوة غريبة وكم من مرة أحسست بأنني لاأقوى على أن أخطو خطوة أخرى في هذا الثلج الكثيف ولكن مجرد تفكيري بأنني سأبقى وحيداً في الظلام وسط الثلوج كان يدفعني كي أمشي وراءهم دون أن أفكر بإرهاقي.

بعد عناء وصلنا حدود (كوزات) وكان علي أن أجد منزل الطبيب أمين، وبقيت وحيداً أفكر بأي اتجاه أسلك خاصة وأنني لاأتذكر المنطقة وبدأت أسترجع المعلومات التي أعطاني إياها (فائق) وعلى ضوئها رحت

أفتش عن المنزل... وبعد لأي وبعد أن سألت العديد من الأشخاص طرقت أخيراً باب الطبيب وسمعت صوت ابنته ينادي «من هناك» وآلياً أجبت «إنه أنا هل تفتحين الباب» وبسرعة نادت «محمد هنا؟ محمد هنا!» وأحسست بسعادة فائقة لمعرفتها صوتي إذ بعد غياب سنتين لم تزل تتذكرني وبعد حين جاءت زوجة الطبيب وفتحت الباب وأدخلتني. وكان زوجها غائباً إذ من عادته أن يذهب بعد العشاء لزيارة مدير المدرسة مع بعض الموظفين للتسامر والتباحث بالشؤون الراهنة وأرسلت الزوجة ابنتها لتعلمه بقدومي فجاء قلقاً، متعجباً، متوقعاً حدوث مكروه ما لكنني طمأنته بأنني أتيت إلى هنا خوفاً من أن أمسك مرة أخرى وأزج في الخدمة العسكرية لهذا فكرت أن ألتجئ إليكم إذ ربما أصبحت بمأمن من الخطر على أية حال سأكون ممتناً جداً لو وجدت عملاً هنا في المدينة وأرجو ألا تقلق لأنني لن أثقل عليك بشيء إذ معي قليل من المال أستطيع أن أدبر أموري به، فقط أطلب منك أن تأويني بعض الوقت وتأكد بأنني لن أزعج أحداً هنا.

نظرت قلقاً إلى الطبيب متسائلاً هل أطلب الكثير منه لكنه بابتسامته المعهودة قال: اطمئن سنعالج هذا الأمر في حينه ولكن قبل كل شيء علينا الآن أن نطعمك ونأويك لترتاح من عناء السفر» وبينما أنا آكل قصصت عليه كل مامر عليّ من حوادث ومخاطر وعن أحوال المدن والقرى التي مررت بها. وبعد أن أنهينا طعام العشاء اصطحبني إلى المدرسة ناسياً بالتأكيد إرهاقي وتعبي لكنني لم أعترض بالعكس شعرت بالفخر لأنه سيعرفني إلى أصدقائه.

لم أنم إلا في ساعة متأخرة من الليل واستيقظت في اليوم التالي على طرقات الباب وكالعادة نبهتني حاستي السادسة بأن هناك شيء غير طبيعي وعندما تطلعت من الكوة رأيت جنديين ذي ملامح شريرة وفتح الطبيب أمين الباب بنفسه وسألهما عما يبغيان فقالوا له أن أخ زوجته كميل هرب من العسكرية وجاء إلى كوزات البارحة بصحبة جنود قادمين إليها في مهمة أجابهم أمين غاضباً بأنهم على خطأ لأنه لايعلم شيئاً عن مكان كميل ولاهروبه وبأن الذي أتى البارحة إلى هنا هو خادمه

محمد مرسلاً من قبل أخيه فائق ثم نادى قائلاً: محمد محمد، تعال إلى هنا» نزلت وسلمت على الجنديين قائلاً بأنني وصلت البارحة من طرف فائق أفندي وبعد أن سألاني عدة أسئلة انصرفا دون تعليق. ولكن بعد ساعات عادا واصطحباني إلى القسم العسكري قائلين أن الضابط بنفسه يود أن يراني فتوجهت معهما للقاء الضابط الذي حقق معي لمدة ساعة وهو يسالني كل أنواع الأسئلة وأخيراً وبعد أن اقتنع بأنني لست (كميل) تركني أعود إلى المنزل وأحسست بنوع من الراحة إذ بعد هذه الحادثة أصبحت نوعاً ما مواطناً شرعياً في هذه المدينة لأن السلطات اعترفت بي كخادم للطبيب أمين.

أثناء العشاء قلق الطبيب أمين بشأن موضوع (كميل) وقال: «ها نحن أمام مشكلة إضافية، أين من الممكن أن يكون؟» أجابته زوجته «إن استطاع الهرب ولم يعثروا عليه إلى الآن فهذا دليل بأنه لايزال حراً وأنه أحسن التصرف فقد كانوا يعاملونه بقسوة ويبدو أنه لم يعد يتحمل، على أية حال أتمنى أن يكون على قيد الحياة وعلى ذكر الموت يجب أن أذهب غداً لتعزية أهل خادم المدرسة الذي توفي».

وبينما كان الطبيب يفكر أجاب فجأة:

خطرت على بالي فكرة، لايزال مكان هذا الموظف شاغراً في المدرسة وإن تحدثت مع مديرها بالتأكيد سيقبل محمد بديلاً له وهكذا نكون قد أمنا وظيفة لك، مارأيك يامحمد؟»

عقدت المفاجأة لساني، أن أعمل كبواب للمدرسة هذا يعني معاشاً ثابتاً ومكاناً للمبيت وفوق ذلك كله سوف أعتبر موظفاً رسمياً لدى الحكومة وأحسست بأنني أحلم وفي الصباح التالي ذهب أمين لرؤية المدير وعاد ليقول أنني عينت في هذه الوظيفة فلم أعلم كيف أشكره على خدمته.

بعد أن اطمأن أمين على وضعي أعلن أنه سيهتم شخصياً بقضية (كميل) وبأنه سيذهب إلى (مزيريه) ليتكلم مع السلطات المعنية وحال إعلان رغبته بالسفر رجوته أن يصطحبني معه إذ لم أكن أود أن يسافر

لوحده وبعد نقاش طويل قبل عرضي وأخبر مدير المدرسة أنني سأستلم منصبي بعد عودتي من السفر وهكذا بدأنا طريقنا هو على حصانه وأنا أتبعه ماشياً.

وكما توقع الطبيب كان كميل مختبئاً في قرية (برتاغ) فاصطحبه معه إلى مدير الناحية وسوى المشكلة معه وتم تعيين كميل في دائرة الشرطة كجندي واثناء ذلك سمح لي بزيارة أهلي واقربائي فقمت بزيارة من تبقى منهم في المنطقة وابلغتهم بمكان وجودي وعنواني ليراسلوني في حال حدوث طارئ، وعدت مع أمين إلى كوزات راضين عن نتائج رحلتنا ولكن خبراً سيئاً كان ينتظرنا هناك إذ وظف مكاني رجل آخر بحجة أن مدير المدرسة اتخذ قراره لوحده لأني غائب وغضب أمين غضباً شديداً وعنفني قائلاً: أرأيت إلى ماذا أدى عنادك وتصميمك على المجيء معي، كنت ستعيش حياة هادئة بعيدة عن المشاكل أنى لي الآن أن أجد لك وظيفة مثل هذه» وأحسست بالندم والذل لضياع هذه الفرصة لكن اعتقدت أن الشقاء والعذاب مصيري.

بعد أيام تغير مجرى الأحداث مرة أخرى إذ أن المتسابق الثاني في القائمة اشتكى على الأول عله يأخذ مكانه وبالفعل طرد الناظر الجديد لاثبات تهمة السرقة عليه وزج في السجن لكن المدير لم يعين الثاني لعدم كفاءته إذ كان متزوجاً ولديه عائلة ولايستطيع أن يبقى في حرم المدرسة طوال الوقت وبسرعة وضع المدير اسمي قبل أن تختار اللجنة المعينة أحداً آخر وهكذا في نفس اليوم انتقلت إلى حرم المدرسة لأبدأ مهمامي ومنذ اللحظة الأولى بدأت أعمل بجدية وتكتم حتى أنال إعجاب المدير الذي اعتبرني تحت حماية الطبيب أمين كان الجميع يسهر في صالته كل مساء وكنت دائماً مدعواً وبما أن زوجة المدير كانت أرمنية ولكنها تعيش في قرية أخرى فكرت بأنه ربما لهذا السبب تعاطف معي ولم ينظر إلى نظرة محتقرة بالعكس كان يخاطبني بعطف وتهذيب وكان من بين المدعوين رجل في سني يخاطبني دون استعلاء ومن ناحيتي توددت إليه وعلمت منه بأنه موظف في البريد ومرة أفصحت له عن هويتي الأرمنية في حال وصول رسائل إلى قريتي ليعرف أنها موجهة لي وهكذا كنت

أستلم رسائل من عمتي ومن صديقي الوفي (جبريل أسادوريان) الذي كان يبعث لي بأخبار قرية (خاربيرت).

كان كل شيء يجري في سلام في المدرسة، وكنت أتقاسم العمل مع عجوز تركي يعمل منذ سنوات طويلة وكانت مهمتنا تتلخص في أن نفتح أبواب المدرسة في الصباح الباكر وننتظر الطلاب حتى يخلعوا نعالهم عند المصطبة ثم يتوجهوا نحو صفوفهم وأثناء حصصهم كان علينا أن نستقبل الزوار ونراقب الأروقة وفي المساء نفتح من جديد الأبواب ليغادرها الطلاب ثم ننظف الصفوف وكان العجوز يرحل باكراً أما أنا فكنت أتوجه نحو غرفتي.

اصطحبني (أمين) مرة لزيارة امرأة أرمنية وضحك قائلاً: ها هنا كافرين (كيافور) يتعرفان على بعضهما بفضل تركي أليس هذا مدهشاً؟ ثم التفت إلي قائلاً محمد أعرفك بالسيدة جوفار والآن أدعكما لوحدكما بعد أن فتحت لكما طريق اللقاء! وأصبحت أتردد على منزل هذه السيدة التي تعمل خياطة وخاصة للسيدات الثريات وتعرفت لأول مرة عن قرب على الأزياء النسائية وقد أدهشني ملمس الأقمشة الحريري وكان يداهمني شعور غريب كلما تطلعت لهذه الأزياء الزاهية وبدأ خيالي النائم يجمح في رغبات كنت أعتقد أني لاأشعر بها لكنني كنت أعلم حق المعرفة أنه علي أن أكبتها كغيرها من الرغبات التي لاأستطيع تحقيقها في الوقت الحالي.

صباح يوم جمعة وبينما كنت أقف على باب المدرسة تقدم مني صبيين تركيين قائلين أن هناك رجلاً كردياً يبحث عني وبعد أن استأذنت غادرت على عجل للقاء هذا الرجل متسائلاً عمن يكون عثرت عليه بسرعة وكان يتكلم التركية بصعوبة ورغم ذلك فهمت بأنه رسول من صديق وأعطاني رسالة قرأتها وكم دهشت عندما رأيت أنها من صديقي الأرمني (ماردیروس باكيسيان) من قريتي برتاغ، كتب في الرسالة يقول بأنه سيسر جداً إن سمع أخباري وأعدنا العلاقات من جديد بعد أن علم بأنني أخدم لدى الطبيب أمين المستقر في كوزات وروى كيف أنه هرب

من الخدمة العسكرية مع شاب كردي اصطحبه إلى قريته وعلمه مهنة (التبييض) وبعد ترحال استقر في قرية درزيم) وابدى رغبته في رؤيتي وأن أرد على رسالته وأبعث بالرد مع نفس الرسول الكردي وإن أمكن أن أرسل معه مسحوق ملمع يصعب العثور عليه في مناطقهم وبعد أن اشتريت له ماأراد سلمت الرسالة للكردي مرفقة بورقة بيضاء ليكتب الرد عليها لأن الورق كان صعب المنال في هذه الأيام وودعت الرسول ووقفت برهة أفكر هاقد مرَّ عامان على مأساتنا وهانحن صديقا طفولة من نفس القرية كل منا يعيش هوية مختلفة هو كردي بين الأكراد وأنا تركي بين الأتراك وتساءلت هل كان مكتوباً لنا هذا المصير؟

REGISTRE 680

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

Département des Bouches-du-Rhône

N° 323

ARRONDISSEMENT DE MARSEILLE - COMMUNE DE MARSEILLE

EXTRAIT DU REGISTRE D'IMMATRICULATION

Application de la loi du 8 Août 1893

En exécution de la loi du 8 Août 1893, par devant NOUS, Maire de la Commune de Marseille,

s'est présenté le nommé :

Nom et prénoms : Der-Alexanian Gazar

Lieu de naissance : Khanasor (Asie Mineure)

Date de la naissance : 20 Juin 1896

Nationalité : Arménienne

Fils de

et de

Marié à

Enfants

HAUT-COMMISSARIAT DE LA RÉPUBLIQUE FRANÇAISE EN SYRIE ET AU LIBAN

N° [redacted] G. L.

25

PASSEPORT A L'ETRANGER VALABLE POUR 1 AN

AU NOM DE LA REPUBLIQUE FRANÇAISE

MANDATÉE EN SYRIE ET AU LIBAN

Nous Général Weygand, Haut-Commissaire de la République Française requérons les Autorités Civiles et Militaires de la République Française de Syrie et du Liban et prions les Autorités Civiles et Militaires chargées de Maintenir l'ordre public dans tous les pays Amis ou Alliés de la République Française laisser passer librement

Le q[illegible] SIGNALEMENT M. Gazar Der-Alexanian

pour y exercer la profession de (3) Journaliste, 8, rue de la Cannebière

a justifié de son identité conformément aux dispositions de l'article 1er de la loi, en produisant

à l'appui de sa déclaration (4) Passeport et Certificat de Coucher

Fait à Marseille, le 14 Août 1924

Signature du Déclarant,

Pour le Maire :
Le Commissaire Central délégué,

COMMISSARIAT CENTRAL DE POLICE SERVICE DES ETRANGERS

NOTA. — Les visas pour cause de changements de résidence devront être inscrits au verso du présent extrait d'immatriculation, avec application du cachet de la Mairie.

(1) Nom, prénoms, âge et nationalité du conjoint.
(2) Nom, prénoms, sexe, âge et nationalité de chacun des enfants mineurs.

Documents d'entrée en France de Gazaros, en 1924, sous la signature du général Weygand, Haut-commissaire en Syrie et au Liban.

● صورة عن الوثيقة التي كانت فرنسا تمنحها للمهجرين الأرمن . وقد منحت لـ غازاروس في العام - ١٩٢٤ -

المقارنة المستحيلة

١٩٢٢

مع بداية العام الجديد تم استدعائي إلى مركز الشرطة لاستجوابي وبالطبع لم يساعدني عملي في وظيفة حكومية ولاهويتي التركية في إعفائي من هذا العمل الروتيني وعندما ذهبت إلى النقطة هذه المرة لم يستقبلني الضابطان المعهودان وإنما ضابط صغير السن يحيط به جنديين وعلمت فوراً أنه يحاول اثبات القيام بواجبه وكالمعتاد وجه لي السؤال المعروف:

«مااسمك، سنك ومسقط رأسك»

وبدأت أردد الجواب المعهود:

أنا من برتاغ واسمي عبدالله أورلي محمد

وببرود سألني:

«اطلب منك اسمك الحقيقي وهويتك الحقيقية» وأدركت بأن الأمر جدي وبأنه كشف عن هويتي الحقيقية ولابد لي أن أعترف وكان علي بالطبع أن أخفي عمري بالتحديد خوفاً من أن أساق مرة أخرى إلى الجندية وكان مظهري اليافع وقامتي القصيرة يساعداني في ذلك وبدأ الضابط يتفحص بعض الوثائق والسجلات الموضوعة أمامه محاولاً العثور على اسمي وببراءة مدهشة ووداعة قلت للضابط:

«اعذرني سيدي ولكن في حال عدم عثورك على اسمي في هذا الملف، ستجده بالتأكيد في ملف مدينة خاربيرت حيث أنني سكنت وعملت هناك فترة من الزمن، وعلى أية حال فور أبلغ السن القانونية للخدمة العسكرية سيحتفظ بي الطبيب أمين قربه».

طوال إجابتي لم يرف جفني ولم أقلق البتة مما جاء في أقوالي وحينما عدت إلى المدرسة انتشرت في القرية أنباء كوني أرمنياً مما دفع بالحاقدين وخاصة رجل اسمه «مصعب معموري» كان يطمع بالوظيفة أن يغذي نار الحقد ضدي لكن لحسن الحظ كانت حلقة الطبيب أمين المكونة من أناس لهم نفوذ هي الأقوى ولكن مع ذلك بقيت قلقاً على وضعي وكنت أتابع باهتمام بالغ كل الأحاديث وكلما سنحت لي الفرصة كنت أقرأ بعض الصحف التي تقع تحت يدي ولدهشتي البالغة لم أكن أجد أية إشارة عن الأرمن أو عن الأحداث التي دامت سبع سنوات ماذا هل اعتبروا أن القضية انتهت وعلى الجميع نسيانها؟ ومما كان يزيد الأمر طرافة أنهم كانوا أحياناً يذكرون بعض الشخصيات الأرمنية بأنها مدعاة للفخر كطبيب أرمني أجرى أبحاثاً مدهشة في حقله.. الخ

وكان هناك موضوع أصبح حديث جميع الأوساط وأثار الكثير من التساؤلات والاستنكار وهو موضوع شاب تركي أصبح أرمنياً بمحض ارادته وكنت حاضراً الجلسة التي نوقش فيها موضوعه وكنت أعرف هذا الشاب عندما كان صبياً في القرية مهملاً من قبل عائلته ذو هيئة بائسة وكان دوماً جائعاً لايجد مايأكله ولم يكن يعرف شيئاً سوى رعي الأغنام إلا أنه كان يرى كيف كان الأولاد الأرمن اليتامى يقبلون في الميتم الأرمني ويلبسون ثياباً نظيفة ويعيشون حياة لائقة لذا ذهب ذات يوم وطرق باب الميتم طالباً مقابلة المدير وعندما رآه بدأ يرجوه قائلاً: اقبلني في هذا الدار فأنا أعتبر يتيماً أيضا إذ عائلتي لاتقبل بي وأنا مستعد أن أصبح أرمنياً وأتعلم الأرمنية ومنذ ذلك اليوم أصبح اسمه (نيشان) بدلاً من (نشأت) وأثارت هذه المسألة سخط الأتراك وبينما كنت أروي قصة هذا الشاب أحسست بأن الجميع يصغون باهتمام بالغ وشعرت بالفخر وتابعت قائلاً: مانفهمه من هذه السيرة أن الأرمني وجب عليه أن يصبح

تركياً ومع ذلك لايزال يعتبر كافراً أما إن يصبح التركي أرمنياً فالكل يجد ذلك غير مسموح!»

بعد بضعة أيام سلمني ساعي البريد الشاب رسالة قادمة من (مزيريه) من صديقي (جبريل) معلناً فيها أن ثلاثة رسائل تنتظرني من أميركا في مقر الجمعية الأميركية مع مبلغ من المال واستفهمت إن كان هناك أية فرقة ذاهبة لمزيريه وبالفعل قيل لي أن مجموعة من الجنود متجهة إلى مزيريه وسيرافقها السكرتير المكلف بالمدرسة وكان هذا الأخير ينظر لي دوماً بريب ويلح علي بالأسئلة كلما رآني وحدث مرة أن قال لي «ألست محظوظاً بالعمل في المدرسة فأنت حر معظم الوقت وتسنح لك الفرص حتى لخدمة الطبيب أمين» وفوراً فهمت بأنه من الحاسدين وبأنه لاينوي الخير لي ولذا امتنعت عن السفر معه إذ أنني كنت متأكداً بأنه سيحاصرني بالأسئلة طوال الرحلة وكم كانت فرحتي كبيرة عندما أخبرني مدير المدرسة في اليوم التالي أنه تحق لي إجازة اثنتي عشرة يوماً بدءاً من اليوم وكانت فرحتي أكبر لعلمي أن ساعي البريد بنفسه متجه نحو مزيريه وهكذا شددت الرحال معه مطمئن البال.

وصلنا مزيريه مساء الاثنين وافترقنا بعدما اتفقنا على موعد اللقاء واتجهت بسرعة نحو الجمعية الأمريكية لاستلام رسائلي وكالعادة خبأتها في صدري إلى حين أختلي بنفسي في مكان هادىء أقرأ فيه الرسائل بتروي مرات ومرات حتى أحفظ كل كلمة فيها ثم أحرقها إذ من باب الحذر يجب أن أتخلص من كل أثر يمت للأرمنية بصلة كانت الرسالة الأولى من أختي (مريم) المستقرة في كاليفورنيا أما الاثنتين الباقيين من أخي هوفانس وقرأت العنوان الذي أصبحت أحفظه عن ظهر قلب «٧٧، شارع فيكتور، حديقة ديترويت، ميشيفان، الولايات المتحدةالأمريكية». وتعلمت أن أكتب العنوان بوضوح بعد أن حفظت شكل الأحرف وبفضل ذلك تعلمت الأبجدية اللاتينية.

كنت أبهر بشكل المغلفات ونوعية الورق غير المعروفة هنا بعد، وسلمتي المسؤول بعض الأوراق حتى أكتب الرد عليها ثم توجهت إلى بنك (أوتومان) واستلمت مبلغ خمس ليرات ذهبية بعد أربعة اشهر من إرسالها.

قضيت الليلة عند صديقي (جبريل) وسهرنا طويلاً نتحدث ونستذكر الأيام

الماضية وفي اليوم التالي زرت على التوالي أقربائي في (يريركيه) و(هوسينيغ) وأردت العودة بعدها إلى مزيريه إلا أن أصدقائي حذروني من خطورة الطريق حيث أن الجنود معسكرين على حدود (مزيريه) يفتشون هويات جميع المارة وقضيت يومين عند صديقي (كالاجيان) الذي وجد لي وظيفة في الجمعية الأمريكية وبعد ذلك خطرت له فكرة ذكية إذ بما أنني أشبه أخيه الصغير فقد اقترح علي أن أستعير بطاقته الشخصية التي يثبت فيها أنه لم يتم الثامنة عشرة وقدمها لي وهو يقول «علينا التعاون في هذه الظروف الصعبة وإلا مافائدة أن نكون من قوم واحدة»؟ وبفضل هذه الوثيقة عبرت الحدود بلا صعوبة ولكن حال وصولي مزيريه كانت أخبار سيئة تنتظرني إذ استغل أعدائي في (كوزات) فرصة غيابي وتذرعوا أنني لست أهلاً للوظيفة لذا كان علي العودة بسرعة إلى القرية وبما أن ساعي البريد كان قد غادر دون أن ينتظرني فقد قررت السفر لوحدي ولكن سرعان ماندمت على قراري ماإن سلكت الطريق بين الجبال حتى شاهدت جندياً مترجلاً عن حصانه يصطاد عصفوراً وكان قد فات الأوان لأعود أدراجي لأنه سيراني حتماً وقررت أن أتابع طريقي بهدوء محاولاً أن أمر من جانبه بشكل طبيعي وهكذا اقتربت منه دون ضجة وما إن أصبحت بمحاذاته حتى التفت مندهشاً من وجودي حييته بلا مبالاة وتابعت طريقي لكنه سرعان ماستفاق من دهشته وناداني قائلاً: «هيه إلى أين أنت ذاهب هكذا وحيداً؟ فأجبت بهدوء - إلى برتاغ.

- من أين أنت ولماذا أنت ذاهب إلى هناك.

- أنا من برتاغ وأعيش هناك؟

- ربما عليك أن تقدم لي بعض الاثباتات المفصلة وأدركت بأن العسكري قد غضب أن أحداً مارآه يصطاد الطيور أثناء قيامه بمهمته العسكرية لذا يحاول ان يسيطر على الموقف الآن وكان أمامي حلان إما أن أريه الوثيقة المزيفة والتي ستكشف عن هويتي الأرمنية وإما أن أتبع طريقتي المعتادة والتظاهر بالامبالاة والبراءة أثناء تقديمي التوضيحات فأجبته ببساطة إذا كنت تعرف برتاغ أستطيع أن أثبت بدقة بأنني من منطقة (سبتنيغ) وبأنني خادم الحج حسن أما هويتي فأستطيع بالتأكيد ابرازها لاثبات كلامي» ونظرت إليه نظرة لامبالية وتابعت

طريقي ببرود محاولاً أن أستجمع كل قواي لأبدو طبيعياً وبعد مسافة كافية أدركت بأنني بمأمن وتنفست الصعداء وأنا أتساءل إلام أبقى على هذه الحال فاقد الجنسية والهوية دائماً أعيش في هاجس أن يقبض علي وأن يزج بي في الخدمة الالزامية. وأخيراً وصلت برتاغ وقضيت الليل عند فائق أفندي وللأسف لم أجد أحداً في اليومين التاليين أسافر معه إلى كوزات وفي اليوم الثالث وبالصدفة عثرت على ساعي البريد الذي اعتذر لمغادرته الاضطرارية وأخيراً رحلنا معاً إلى (كوزات) وبما أن الأيام أصبحت أطول بلغنا القرية أثناء النهار، وحال وصولي أسرعت إلى المدرسة ومإن شاهدني أحد المدرسين حتى هرع قائلاً: هيا بسرعة إلى مكتب السكرتير وبرر غيابك لأنه كتب تقريراً باستبدالك وأعتقد بأنه لم يرسله بعد، ربما لاتزال أماك فرصة لإنقاذ عملك.

ركضت على عجل إلى غرفة أمين السر وبعناية كبرى قلت له: افندي لقد أعطاني المدير بنفسه إجازة لمدةاثنتي عشرة يوماً والآن أجد بأنكم رفعتم تقريراً ضدي.

أجابني بفظاظة: وماذا تتوقع مني أن أفعل هه؟ أن أنتظر عودتكم الحميدة؟ على أية حال أصبح التقرير الآن بين يدي مصطفى أفندي.

لكنني تابعت باصرار: إن غبت فذلك بمعرفة المدير الذي منحني اجازة ومع ذلك عدت قبل انتهاء المدة لذا لايمكن لأحد أن يلومني بالتقصير».

بدا أمين السر قلقاً وكأنه يتساءل إن كان تسرع بكتابة التقرير وطلب مني أن أنتظره ريثما يعود وبعد دقائق قال لي «بما أنك تدافع عن نفسك بشكل جيد لم لاتذهب تردد ماقتله لي لمصطفى أفندي إلا أنه في اجتماع الآن ولايجدر بي أن أزعجه».

وبصمت اتجهت نحو غرفة مصطفى أفندي ومن شق الباب رأيت رؤوساً مجتمعة حو ل الطاولة طرقت الباب بوضوح مرتين وبعد فترة كافية دفعته ودخلت الغرفة وانتظرت بهدوء حتى يلتفت إلي أحد وكان مصطفى أفندي بنفسه أول من انتبه لوجودي وسال أحدهم «ماذا يريد هذا الفتى»

بشجاعة وجهت كلامي نحوه دون أن أجرؤ على النظر في عينيه وأعدت عليه نفس ما قلته لأمين السر وعند نهاية كلامي تدخل أحدهم وهو الكردي

محمد أفندي مدير السجن وصديق أمين أفندي «أنا أعرف هذا الفتى وهو عامل مجد ورصين لذا أعتقد بأنه صادق».

سأل مصطفى الآخرين وكأنه يطلب مشورتهم وهمس له بعضهم بكلمات لم أفهمها لكنني لم أرتح لنظراتهم وكان لغياب حسين أفندي مدير المدرسة تأثير سيء على مجرى الأمور وفجأة خطرت لي فكرة أن في الأمر مؤامرة لأنهم استغلوا فرصة غيابنا نحن الاثنان ليحبكوا خطتهم كما أن أمين أيضاً كان غائباً وأدركت بأنني وقعت في فخ متين. وعاد الطبيب أمين في اليوم وماإن علم بالقصة حتى أسرع مستاء إلى غرفة أمين السر وعاتبه بقوة:

«من سمح لك بهذا التصرف؟»

أجابه بهدوء وكأنه يتحداه:

«لقد فعلت الصواب»

وبدون أن يتمالك نفسه رأيت الطبيب يوجه صفعة مدوية على خد الموظف الذي بعد أن ابتلع المفاجأة أخذ يصرخ وتوجه نحو مكتبه وبأنامل مرتجفة بدأ يكتب رسالة وهو يهدد سوف أوجه هذه الشكوى إلى أعلى السلطات وستنال عقابك الذي تستحق وأسرع باقي الزملاء محاولين تهدئة الموقف وأقناع أمين السر بعدم تنفيذ تهديده الذي إن طبقه فسوف تصل عقوبة أمين أفندي إلى الحبس لمدة شهر وغرامة قدرها ٥٠ ليرة ذهبية لأنه تطاول على موظف حكومي ثم التفت الجميع نحوي وكأنهم يتهمونني بأنني السبب وقال أحدهم: أتعرف ماذا عليك أن تفعل؟ إما أن تتنازل عن هذه الوظيفة وتنتهي القضية أو تتمسك بها ويدخل أمين السجن؟

بالطبع كان من غير المعقول أن أتشبث برأيي وأسمح بأي ضرر الطبيب فأنا مدين له بكل شيء أعلنت بوضوح أنني متنازل عن هذه الوظيفة شرط أن يسقط أمين السر دعوته بحق الطبيب. لكن أصدقاء الأخير اغتاظوا من هذه القضية وبدأوا يبحثون عن أي دليل صغير يعاقبون به الموظف وماعثروا عليه فاق توقعاتهم إذ أثبتت التحقيقات بأنه متورط في قضايا رشوة وابتزاز وسوء استخدام الأموال الحكومية وهكذا حكم عليه بالسجن في مدينة (خاربيرت) واستغلت زوجته التي تبين أنها ارمنية هذه الفرصة

للهروب مع مجموعة مسافرين أتراك إلى حلب بأوراق مزورة وهناك ستبدأ حياة جديدة تنسى خلالها أنها زوجت بالقوة إلى رجل تركي واصبحت عبدة بين يديه إلى أن جاء الفرج بدخوله السجن. وهكذا فقدت وظيفتي وبدأت أتجول في شوارع كوزات محاولاً العثور على عمل وكنت لاأزال أقطن في منزل الطبيب الذي وعدني أنه سيحاول من جديد إعادتي إلى لمدرسة. وكان الرجل الكردي الذي يحمل لي رسائل من صديقي (ماريروس) يأتي كل أسبوعين للتزود بالمادة المبيضة للأوعية ومرة ولدهشتي الكبيرة جاء (ماريروس) بنفسه لزيارتي وقضينا ليلة رائعة نتسامر ونتحادث وحاول أن يقنعني أن أذهب وأعيش معه لكنني رفضت لأنه من مبدأي الأساسي ألا أعود إلى الوراء أبداً.

مع قدوم شهر تموز اشتدت الحرارة وبينما كنت يوماً أمر قرب المبنى الحكومي ناداني الضابط المسؤول من الطابق العلوي ولدهشتي استقبلني بحرارة غير معهودة ثم قال لي: أرى بأنك لم تعثر على وظيفة بعد وبما أن موسم المحاصيل مارأيك أن تساعد عمالي في الجني؟ على فكرة من اية منطقة أنت؟» انتابني الحذر لسؤاله وكالعادة أجبت آليا: «أنا من خاربيرت من قرية مورينيع»

ثم تابع: آه... نحن إذاً من منطقة واحدة فأنا من (كاسيريغ) خادمي أيضاً ارمني والآخر يوناني لكنه استدعي للخدمة لبلوغه الثامنة عشر، قل لي كم عمرك أنت؟»

إذاً هذا هو بيت القصيد، كل هدفه معرفة سني وبصمت أخرجت الوثيقة المعلقة في عنقي وأعطيته إياها (طبعاً الوثيقة المزيفة الخاصة بصديقي ساهاك) وبدأ يتفحصها ويقرأ كل سطر فيها وبعد أن تأكد بأنني لم أبلغ الثامنة عشرة أعادها لي قائلاً «احتفظ بها جيداً ستحتاجها كثيراً من الآن فصاعدا» ولم يذكر أي شيء عن المحاصيل ولاعن حاجته لخدماتي وأسرعت إلى خارج المبنى وأنا أشعر أنني لم أعد أطيق هذا الوضع فأنا كالفريسة المطاردة أينما ذهبت يحاولون اصطيادي وزجي في العسكرية.

حتى في هذه المدينة التي اعتقدت أنها آمنة وبأنني أنعم لحماية رجل مهم

مثل أمين أفندي لم يدعونني وشأني ولن يهنأ لهم بال إلا بعد إيذائي كوني أرمنياً وتذكرت اقتراح (ماردیروس) بأن أعيش معه بين الأكراد، هذه المرة فكرت بالعرض جدياً ووجدت أنه من الأفضل لي أن أعيش هناك في مأمن من شر الأتراك وهكذا ومن جديد وضعت قدري بين يدي الله لأتجه نحو حياة جديدة.

عند الأكراد

في منتصف تموز استأذنت الطبيب بالسفر كما أرسلت رسالة إلى صديقي (جبريل) ليهتم بالبريد والمال القادم من أمريكا وأعلمته أنني سأعيش بين الأكراد فقد تعرفت خلال السنوات الماضية على الكثير منهم كما كنت أعرف عاداتهم وتقاليدهم عن طريق قراءاتي للأديب الأرمني (رافي) خاصة في أعماله (صموئيل) و(داوود بك) فقد كان قانونهم الأساسي هو (الحق للأقوى) ويتعاملون فيما بينهم على أساس النسب القبلي ويتفاخرون بأصل عشيرتهم وبالطبع الكثير منهم لايعرف القراءة والكتابة إذ كانوا يتوارثون قوانينهم شفهياً من جيل إلى جيل والويل لمن يعارض ويخرج عن التقاليد المتوارثة والشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي هو أنهم كانوا يسمون أبناءهم ليس فقط بالكردية بل بالتركية وحتى الأرمنية إلا اسم (عثمان) فهو ممنوع منعاً باتاً

ودعت الطبيب أمين وعائلته وأنا أشعر بالأسى لفراقهم كما ودعت مدير المدرسة وجميع من تعرفت عليهم في هذه المنطقة وأصبحت صديقه ثم سلكت الطريق نحو (كايابرلي) ورغم دهشته لوصولي المفاجئ استقبلني ماريروس بحفاوة كبيرة وأكد لي هو وشريكه الأرمني (كارو) بأنني أستطيع أن أتعلم مهنة التبييض وأعمل معهم شعرت

بالاطمئنان لترحيبهم بي كما سررت لإحضاري مادة التبييض من (كوزات) لأنها مطلوبة وقليلة.

لأول مرة شعرت بالأمان فقد كنت آكل وأشرب على راحتي وكان (كارو) يعتني بنا وأحياناً يغدق بالعناية لأنه كان يحضر الطعام بنفسه وفي كثير من الأحيان كنا ندعى إلى موائد أهل البلد مقابل أن نبيض بعضاً من أوانيهم.

وأخبرني ماردیروس أن أرمناً آخرين يعيشون في المنطقة حتى أنه هناك كنيسة أرمنية لايزال يخدم فيها راهبان عادا إليها عام ١٩١٩ علىأمل أن تعود الأمور كما كانت من قبل وكأنهما ينتظران معجزة ووعدت نفسي أن أزورها يوما ما ولكن وعدي لم يتحقق لأنني غادرت (كايابرلي) أسرع مما توقعت.

في نهاية شهر أكتوبر أحضر لي كردي رسالة من صديقي «كابريل» ينبئني فيها بخبر صعقني لم أصدقه إذ قال أن الحدود السورية مفتوحة وأن للأرمن حرية مغادرة البلاد إن أرادوا وبالطبع انتشر الخبر بين الجميع ولكنهم أجمعوا بأنه خبر كاذب حتى وإن كان صحيحاً بالتأكيد هي خطة جديدة يرسمها الأتراك لتجميع الأرمن في منطقة واحدة والتخلص منهم مرة واحدة وبقينا هكذا بين شك ويقين حتى جاءنا عجوز كردي عائد من السفر فأكدّ لنا بأنه رأى بأم عينه جماعات أرمن باعت مابقي لديها من حاجيات متجهة نحو الحدود السورية ولم أبق متشككاً طويلاً إذ جاءتني رسالة أخرى من (كابريل) يعلمني برحيله هو أيضاً وبأنه حينما أستلم الرسالة سيكون حتماً قد غادر البلدة وكتب يقول حرفياً:

عزيزي غازاروس الحدود مفتوحة وسورية تستقبلنا فهي لم تعد تحت حكم الأتراك وإنما بقيادة بعض البلاد الأجنبية، فلنرحل علنا نجد في هذا البلد الصديق مأوى لنا ونبدأ بداية جديدة».

تساءلت.. ترى هل رحل أقربائي ايضاً، وأختي آنا ماذا حل بها؟ فهي لاتزال متزوجة من الرجل الكردي، ولأول مرة يكتب لي (كابريل) رسالة قصيرة ربما كان متأكداً من لقائي قريباً، وبعد تفكير فتحت الموضوع مع (كارو) الذي كما توقعت عارض بشدة وأجابني بحدة:

«هل أنت مجنون؟ من المستحيل أن أترك هذه المنطقة وأهلها فأنا أدين لهم بحياتي ووجودي وسوف أموت بينهم مثلما مات أبي».

تأملته ملياً ووافقته فقد أصبح يشبه الأكراد إلى حد كبير وبفضلهم أنقذت عائلته من موت أكيد ثم تابع قائلاً: لقد اخترت أفضل الأمرين وهو البقاء ومتابعة حياتي هنا».

كان من العبث أن أقنع ماريروس بالرحيل معي لأنه كان يحب أخت (كارو) الصغرى وبالطبع كان من المستحيل أن يتركها ويرحل معي.

وجلست لوحدي أحلل جميع المعطيات والأحداث الراهنة وكنت أثق بقرار (كابريل) ثقة عمياء لأنه شاب مثقف وذكي ولايندفع وراء عواطفه وإن قرر الرحيل فبالتأكيد الأمر جدي وبين وضع (كارو) وتصميم (كابريل) أرسيت قراري على الأخير وأعلمت الجميع بأنني راحل أنا أيضاً وجن جنون صديقي لهذا القرار وحاولا انقاعي بشتى الوسائل ولكن دون فائدة فهما لايعرفان بعد أن صممت على شيء من المستحيل أن أعود عنه ثم فكرت بأنني لم أستطع الاختلاط كثيراً بالأكراد فإن عشت سبع سنين بين الأتراك ولم أصبح تركياً فلاأظن بعد الآن بأنني سأصبح أي شيء غير أرمني حتى لو كنت بعيداً عن وطني في أراض غريبة فأنا سأبقى ارمنياً أحافظ علىهويتي ولغتي.

ومإن أصبحت وحيداً في المنزل حتى جمعت القليل مما سيلزمني على الطريق وكتبت رسالة وداع على عجل لأصدقائي ورحلت بهدوء قبل أن يوقفني أحد.

لنزح الغبار..

كنت على الطريق في سفر ربما الأكبر في حياتي ومع ذلك لم أحمل معي سوى أغراضي الشخصية على أية حال لم أكن أملك سوى الأربع مجيديات التي استحققتها من العمل مع (كارو). ومع قدوم الليل وصلت (كوزات) وتلقائياً ذهبت إلى الطبيب أمين وللأسف كان غائباً واستأذنت زوجته بتمضية الليل وفي الصباح ودعتها وبلغتها سلامي للطبيب ولم أنس بالطبع أن أستعيد المال الذي خبأته في الحظيرة والمكون من قطعة ذهب وخمس مجيديات ومع مغادرتي المدينة أحسست بقلبي ينقبض لكن لم أود أن أخاطر بالانتظار أكثر لحين قدومه وبعد تردد ذهبت أخيراً لزيارة صديقي موظف البريد الذي كان يستعد للسفر إلى (برتاغ) مع مجموعة من الجنود وهكذا ولحظي السعيد سافرت معهم وبذا غادرت كوزات للمرة الأخيرة في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٢ وعند وصولنا (برتاغ) تبعثرت الفرقة وتابعت طريقي مع الموظف نحو (مزيريه) وهنا اقترح علي أن أقضي الليلة عنده، وفي الصباح الباكر ودعته الوداع الأخير ثم ترددت أأذهب لرؤية معلمي فائق وأودعه هو الآخر أم ألتحق بالقافلة الجاهزة للرحيل وبعد أن رجحت الأمرين في كفة الميزان قررت أن أتابع طريقي. وهكذا انطلق مسيرنا، وبعد أن وصلنا الضفة الأخرى من الفرات توقفنا لنستريح وبما أنه كان لدينا المتسع من الوقت أخذ كل واحد يتصرف

على مهل، بعضهم بدأ يتناول الطعام، وآخر غفا قليلاً أما أنا فقد تمددت مسترخياً أتساءل عما يمكن أن تجلبه لي الأيام المقبلة.

بعد هذه القيلولة تابعنا المسير لساعات طويلة حتى وصلنا (خاربيرت) وهناك تفرق أفراد القافلة كل نحو منزل صديق أو قريب يعرفه لتمضية الليل وبقينا أنا وشابين مترددين لانعرف أين نذهب ولاحظ أحد الأتراك (شريف بيرم آغا) حيرتنا فاقترح علينا أن نبيت عنده وتأثرنا لدعوته وبكل أدب قلت له: «بيرم آغا، أنا ممتن لضيافتك ولكن علي أن أغادر باكراً جداً ولاأريد أن أزعج نومك»

رفض الآغا عذري رفضنا باتاً واصطحبنا نحن الثلاثة إلى بيته ثم أراني أين يضع مفتاح الباب الخارجي في حال أردت أن المغادرة قبل الآخرين وما إن أصبح صديقي على فراشهما حتى راحا في نوم عميق أما أنا كالعادة فقد رفضت عيناي السبات وبدأت أتأمل في الظلام وأفكر بكل ماجرى محاولاً أن أجد نفسي في كل هذا ومضت الساعات ولم يغالبني النوم إلى أن بدأ النور يتسلل من النافذة نهضت بهدوء وتسللت خارج المنزل دون إحداث ضجة.

كانت المدينة غارقة في سبات عميق وتأملت وأنا أمشي حاراتها وقلت بصوت عال: «خاربيرت يامدينة الحجر لن أنساك ماحييت».

التقيت على الطريق بضعة فلاحين ذاهبين إلى (هوسينيغ) ورافقتهم لأنني كنت أود رؤية ابنة عمي (سارة) لحسن الحظ وجدتها تسكن نفس المنزل الذي أعرفه وما إن رأتني حتى ارتمت علي بفرح وبدأت تتكلم بحماس «غازاورس، أخيراً وجدناك كنا قلقين على مصيرك، بالتأكيد أنت تعرف أن الآن هو الوقت المناسب للرحيل، الكثير من أقربائنا رحلوا وأصبحوا في حلب حتى أنهم بعثوا لنا برسائل من هناك وبدأوا كل شيء على مايرام ولكن علينا أن نتحرك بسرعة فهناك شائعة بأنهم قريباً سيغلقون الحدود لذا عليك أن تتم معاملاتك الرسمية بأقصى سرعة» ثم توقفت لتسترد أنفاسها قائلة «أواه لم أدع لك فرصة حتى أن تجيبني! لابد بأنك جائع ومتعب هيا تعال إلى الداخل لترتاح» وبدوري سالتها:

«ماهي الإجراءات التي علي اتخاذها؟

«ببساطة عليك أن تحرر وثيقة إلى سوريا مثل البقية في مزيريه».

«وماسبب هذه التسهيلات الفجائية؟»

«لأنهم تلقوا أوامر من أجل هذا، على أية حال جميع جوازت السفر تحمل عنوان «دون عودة ممكنة» اي بكلمة واحدة يريدوننا أن نذهب ونختفي لكن هذا لايمنع أنهم أحياناً يفقدون الأمور ويعلقون إعطاء جواز سفر لو أرادوا ولتجنب ذلك لاتعط اسمك الحقيقي إنما أي اسم آخر وتوخى أن تذكر بأنك ولدت في مدينة (درزيم) أو (تشارسنجار) لأن المكاتب الرسمية احترقت في هاتين المدينتين واحترقت معها الوثائق التي تثبت صحة أو كذب كلامك ولذا فهم يتظاهرون بأنهم يصدقون».

ودعت سارة على أمل اللقاء بها في سورية واسرعت نحو (مزيريه) لإتمام معاملاتي وأعطيت الموظف المسؤول أول اسم خطر على بالي وهو (قره بيتيان) أما اسمي الصغير فقد تركته (غازار) وادعيت أنني مولود في (كايابرلي) في (درزيم) لم يسبب لي الموظف أي مشكلة وطلب مني أن أعود بعد يومين ليسلمني الوثيقة ورأيت في المكتب عسكرياً أعرفه فتحدثت معه قليلاً ثم غادرت المكان ولكن الوثيقة تأخرت عدة أيام ولم أستلمها خطر لي أنه ربما في الأمر قضية المال الذي له تأثير فعال ودسست في جيب العسكري مجيدتين وطلبت منه أن يسهل الأمور وبالفعل وصلت وثيقتي في نفس اليوم وتنفست الصعداء وبدأت أفتش عن مسافرين نحو الحدود وبعد أن تشكلت مجموعة من تسعة مهاجرين أرمن انطلقت قافلتنا بقيادة التركي علي نحو الحدود السورية في ٣ ديسمبر عام ١٩٢٢ خاوين الجعبة مليئين بالأمل.

في أول ليلة من الرحلة وعند وصولنا (كيرفانك) انضممنا إلى قوافل مهاجرة أخرى.

وتابعنا الطريق في اليوم التالي وكان علينا اجتياز جبل (دافا بويني) وهب جميع الرجال للمساعدة وجر القوافل أثناء الصعود، كان الطقس جميلاً لاينذر بالمطر وصلنا قرية (أرزينيا) ورأينا مجموعة من المجندين تعمل بمشقة وأدركت بأنهم مساجين يونان وارمن محكوم عليهم بالأعمال الشاقة. رأيت

الموت مرسوماً على وجوههم فتذكرت تجربتي الشخصية ورغم مرور أربع سنين على هروبي إلا أنني لم أنس ولا لحظة من معاناتي ولم أشعر الآن بأي ندم لمغادرتي البلاد لشدة ماعانيت من ذل وقهر، وأنا محروم من كل حقوق الإنسان.

بعد أربعة أيام من انطلاقنا وصلنا (ديار بكر) أو (ديكراناكيرت) التي تركت حصونها في نفسي الأثر الكبير وفي المساء اقترب منا عساكر يبيعون بعض الأشياء لقاء المال محاولين بذلك الاستيلاء على آخر القروش التي بقيت معنا وأمام تصميمنا على عدم الشراء ابتعدوا دون أن يلحوا أكثر.

وبعد يومين دخلنا مدينة (سيفيرك) التي ماإن بدأت قافلتنا باجتيازها حتى لحقنا بعض الشبان الأتراك وهم يلقون علينا أنواع السباب والشتائم وعندما رأونا صامتين بدأوا يرموننا بالحجارة وهنا تحركنا أنا ومجموعة من الرجال للهجوم عليهم لكنهم ماإن شاهدونا ننزل من عرباتنا حتى ولوا هاربين، وعند مخرج المدينة كان هناك سوق يحوي جميع أنواع البضائع فنزلنا وتسوقنا وبما أنني كنت جائعاً جداً اشتريت خبزاً وزبيباً وحاولت ألا أصرف كثيراً من المال وأدخر مامعي للأيام المقبلة.

تغير الطقس جذرياً وبدأت تمطر بغزارة وكان لابد لقافلتنا من التوقف، فالبرد بدأ ينخر عظامنا وقضينا ليلاً غير مريح على الإطلاق إذ لم نستطع النوم وفي الصباح فاجأنا منظر عربتنا غائصة في الوحل وكان علينا أن نجمع قوانا ونجرها وبعد ساعات من الإنهاك الطريق جف وسارعت العربة بمساعدة الأحصنة فقط وكنا قد وصلنا مدينة (أورفة) ومن شدة توقي لرؤيتها سبقت القافلة أنا مع عدة شبان لنتجول في هذه المدينة الشهيرة ولحقتنا العربة بعناء وقرر السائس أن نقضي النهار هنا لتصليح العجلة واغتنمت هذه الفرصة النادرة لزيارة المدينة ذات التاريخ العريق وكان الحصن المبني أيام الغزو الصليبي لايزال منتصباً بشموخ ومع ابراهيم يعود تاريخ هذه المدينة إلى أزمنة التوراة كانت أسماك الشبوط الكبيرة تملأ أحواض الحدائق وكان الجميع يطعمها بعناية وكان بقاؤها يثبت بقاء تاريخ المدينة وكان المسلمون يحترمون هذه المنطقة كالمسيحيين حتى أنهم بنوا جامعاً قريباً من الحصن.

كانت الكنيسة الأرمنية المدهشة ببنائها وحجمها لاتزال هنا تتحدى الزمن والعدوان لأن الأغلبية الأرمنية التي كانت تقطن في هذه المنطقة ذبحت وأحرقت المنازل والمدارس وكأنهم يريدون طمس هويتها وبالطبع استطعنا تخيل مدى المعاناة التي مررنا بها جميعاً في السنين الماضية وكم كان مدهشاً أنهم مهما حاولوا محو كل شيء أرمني فالحجارة لاتزال تثبت بعناد بأننا كنا هنا وسوف تظل دوماً هنا بأرواحنا.

تابعنا المسير في اليوم التالي وتوقفنا عند المساء في مدينة (سيروج) وكانت جميع الاستراحات مشغولة نظراً لكثرة القوافل المسافرة وأخيراً وجدنا غرفتين انحشر فريقنا المؤلف من ثلاثين شخصاً فيهما ولم يشكو أياً منا من ضيق المكان لأننا كنا معتادين على مواقف أسوأ من هذه المهم لنا كان النوم والراحة لمتابعة مسيرنا وعند منتصف الليل سمعنا طرقات عنيفة على أبوابنا وصوت يأمرنا في الخارج:

افتحوا، علينا تفتيش وثائقكم!

ودخل علينا شاويش برفقة عسكريين وبدأ يفتش الوثائق واحدة تلو الأخرى وفي نهاية الجولة احتفظ بخمس منها بينها وثيقتي. لم أستسلم لليأس بدأت أشرح له بتفاصيل دقيقة أنني خدمت العسكرية في منطقة كذا وأن رئيسي كان الضابط فلان أما هو فكان يسمع دون أن تظهر على وجهه أية ملامح متسامحة اللهم إلا من ابتسامة سخرية على زاوية شفتيه وفي نهاية كلامي رأيت أنه يحمل الأربع وثائق في يده اليمنى أما وثيقتي فكانت في يده اليسرى فاقتربت بهدوء وانتشلتها ببطء منه ولدهشتي لم يعارض ثم رفع يده اليمنى ملوحاً بالوثائق وهو يقول: «أصحاب هذه الجوازات يأتون غداً إلى النقطة العسكرية لشرح أوضاعهم».

جلس الجميع قلقين، متسائلين عن مصير المساكين الأربعة وقررنا بالإجماع أن نبقى معاً حتى نحل هذه المشكلة وتوجهنا في اليوم التالي نحو المركز وشرحنا للموظف المسؤول موقفنا فأجابنا مندهشاً بأنه لاتوجد عنده أية وثائق تخص رفاقنا الأربعة وأدركنا أن في الأمر مكيدة ما ولم يكن من الصعب العثور على الشاويش في هذه البلدة الصغيرة فقد وجدناه جالساً في قهوة عامة

يشرب الشاي فتوجهنا نحوه بوجوه واجمة وقال أحدنا بصرامة «لقد استوليت على وثائقنا دون أن نرتكب أية غلطة ولايعلم أحد عن هذه القصة في المركز أعدها علينا قبل أن نفضح الأمر للجهات المسؤولة» فتطلع إلينا بكسل وأجاب: إنها ليست معي تركتها مع الموظف المسؤول عن تدقيق الوثائق»

وهنا هدده رفيقنا: أمامك ساعة لاحضارها وسوف نعطيك لقاء ذلك مجيدية واحدة».

ابتعدنا وقلوبنا تخفق من الخوف والغضب معاً وخطرت لي فكرة «مارأيكم لو استشرنا الحكيم فاهان فهو رجل ذو خبرة ويستطيع إرشادنا إلى رأي سديد. وجدنا عربته بسهولة فاقتربنا منه وشرحنا له المشكلة ونهرنا بشدة:

لاتزالون ساذجين إلى الآن لاتعرفون من هم الأتراك أعطوهم مايريدون ولكن كما يعطي الغني لمستجدي لأنهم رغم كل مافعلوه بنا لايزالون فقراء بالروح والضمير أما نحن فبقينا أغنياء بالنفس والتفكير والتصميم والإيمان وبعد لحظة صمت تابع ولكن بلهجة ناعمة وهادئة ألم نطعمهم إلى الآن؟ لقد اعتادوا ذلك ولكن ماالفائدة؟ أمامكم ساعات قليلة وتصلون إلى الحرية ماالفرق إن وصلتم الحدود بدون القلة من القروش الباقية في جعبتكم فهي لاتساوي شيئاً أمام مستقبلكم».

تركنا الشيخ بعقل صاف وتصميم على الوصول إلى الهدف وتوجهنا من جديد نحو المقهى وكان الشاويش لايزال في مكانه لم يتحرك وانزلقت يد أحدنا جيبه قائلاً:

«هذه أربعة مجيديات لقاء الوثائق الأربعة»

وبدون أن ينظر إلينا أخرج الشاويش الجوازات من جيبه الداخلي ومدها لنا وكأنه لم يفعل شيئاً.

أخيراً غادرنا مدينة (سروج) متنفسين الصعداء وفي نفس الليلة وصلنا إلى محطتنا الأخيرة مدينة (بيريجيغ) التي قطعها الفرات ليفصلها عن الحدود السورية وكانت مدينة حقيقة ببيوتها الحجرية وكان الفرات فيها مختلفاً فقد كان صامتاً وهادئاً وتذكرت مناظر الجثث المتراكمة فيه والتي لابد وأن التيار قد حمل بعضها إلى هنا وبعد أن تفحص الموظفون جوازتنا سمحوا لنا

بالصعود إلى المركب الذي سينقلنا إلى الضفة الأخرى وأجلس الأطفال في المنتصف مع البضائع والحقائب أما نحن فقد تفرقنا في أنحاء المركب الذي كان يقوده ثلاثة بحارة أتراك كان النهر هادئاً لاينذر بالخطر إلا أن البحارة لم يكفوا عن إصدار أصوات وصرخات وكأنهم يتفادون عوائق ما وبعد فترة بداوا يلهثون ثم قال أحدهم «انتهبوا في جهة اليمين شجرة عالقة، حذار أن تصطدموا بها» وتظاهر الآخرون بأنهم يجذفون بأقصى قواهم ثم التفتوا نحونا «لاتخافوا لقد أنقذنا المركب من الاصطدام وهذا بالطبع بفضل مهارتنا ألا تعتقدون بأننا نستحق المكافأة ربما ليرة إضافية من كل واحد منكم» دفعنا بصمت متجنبين أي نقاش لأنه كان بلا فائدة وكدنا أن نصل الضفة الأخرى عندما سمعنا طلقات نارية لانعرف مصدرها وهنا اهتاج البحارة أكثر وبدأوا يكدسون البضائع في مقدمة المركب وبعد دقائق هدأ الوضع فقالوا أنهم أنقذونا من هجوم أكيد من قبل القراصنة ولكن بفضل شجاعتهم استطاعوا السيطرة على الموقف وبالطبع أحد منا لم يصدق هذه الروايات المصطنعة ولكنهم عندما طالبونا بليرة اضافية أخرى دفعناها دون احتجاج لأننا كنا نود الوصول إلى الضفة دون مشاكل وفكرت أن هدفهم ابتزازنا حتى اللحظة الأخيرة وتذكرت في هذه الدقيقة معلمي فائق افندي وأخيه الطبيب أمين وكل أفراد عائلتهم وتساءلت لم هم مختلفين عن الأغلبية من الأتراك؟ أليس من المفروض اتباع الديانة الاسلامية التي تدعو إلىالتسامح؟ كيف يستطيعون أن يكونوا بلا ضمير إلى هذه الدرجة؟ لم بعض المسلمين مدوا يد العون إلى إخوتهم المسيحيين وساعدوهم في محنتهم؟ اذن القضية ليست قضية دين وإنما قضية ضمير إنساني نسي ربه وتعاليمه وتلذذ بالتعذيب والقسوة.

تذكرت الطبيب أمين وندمت على عدم وداعي له لأنه يستحق مني كل احترام وامتنان لانقاذه حياتي ربما لن أراهم أبداً ولكن صورتهم ستبقى محفورة أبداً في قلبي.

اقترب المركب بهدوء من الضفة الأخرى وكانت الشمس تغيب في هذه اللحظة وكانت أخر أشعتها تتلاعب مع الغيوم المتراكمة معطية للسماء ألواناً خلابة وتطلعت إلى الوراء وأردت أن أوجه كلمة أخيرة لوطني، لأحبابي الذين بقوا هنا وخاصة أختي آنا التي لم وددت رؤيتها على أمل اللقاء بها في مكان ما

«في هذه اللحظة أفكر بكم ياأهلي، يا أصدقائي ياموطني في الفرح والشقاء، أنتم الذين بقيتم هنا في طرف جبل، على قارعة طريق، في منتصف الصحراء أو في قاع النهر، أنتم الذين لم تدفنوا بشكل لائق ياترى هل رقدت أرواحكم في سلام؟ إنكم هنا في ذاكرتنا، سنقدس دوماً ذكراكم ونذكركم في صلواتنا ولن ننسى تضحيتكم.

إنني أغادرك يابلدي دون أن أعلم أي اسم ستحمل بعد الآن ولكنني متأكد من شيء واحد بأنني سأرحل أرمنياً وسأبقى أرمنياً ماحييت».

ولاحت لنا مدينة (جرابلس) من بعيد ولم نصدق أعيننا عندما استقر المركب على ضفة النهر وما إن وضعنا ارجلنا على الأرض حتى تساءلنا «هل لانزال على أراض تركية أم وصلنا سورية أخيراً؟ كان هناك رجلان على الضفة أشارا لنا بكسل إلىمحطة سكة الحديد»

جمع كل منا أغراضه وتوجهنا نحو المحطة ولأول مرة كنا نرى سككاً حديدية ورجالاً لابسين بزة عسكرية غير تركية قيل لنا أنهم عساكر فرنسيين يسهرون على سلامة نقل المهاجرين من الحدود إلى حلب وأحسست بالحماس لرؤية جنود ليسوا أتراكاً وتجمع الكل في المحطة لتمضية الليل أما أنا فقد دفعني فضولي إلى تفحص المنطقة وكان العسكر منتشرين في كل مكان يتكلمون بهدوء ولاتبدو عليهم علائم الشر والقسوة التي اعتدنا رؤيتها على وجوه الأتراك وعلمت أننا أصبحنا أحراراً لاخوف يعكر صفونا ولاخطر يهدد حياتنا وشعرت بالحرية والأمان لأول مرة منذ سبع سنين وتوجهت نحو أحد المدنيين وتكلمت بالتركية كالعادة «هل وجود هؤلاء العساكر يدل على أننا لم نعد في الأرضي التركية»

وأجابني الرجل بالأرمنية: لاتخف نحن الآن في الأراضي السورية وتحت الحماية الفرنسية»

عدت إلى رفاقي أخبرهم بالأنباء السارة وكان كل واحد منهم مشغول بتذكر أسماء الأقارب الذين يعرفهم في حلب، أما أنا فقد تذكرت أن ابنة عمي (سارة) أخبرتني بأن فتيات الميتم الأميركي في خاربيرت قد وصلن إلى حلب وبينهم (نفارت) صديقة طفولتي ولاح لي صوتها عندما رأيتها آخر مرة

ممدة مريضة في فراشها وتذكرت شعرها الأسود ووجهها الصافي وعينها الدافئتين وداهمني شعور جميل لم أقاومه وعرفت بأن أول شيء سافعله عند وصولي إلى حلب هو البحث عنها والبوح لها أخيراً ودون خجل بأنني أحبها واريد قضاء عمري معها لنبدأ معاً بناء حياة جديدة.

في اليوم التالي تكدس الجميع في القطار منفعلين من الحماس والتأثر وهكذا مشى بنا نحو حلب في ١٨ ديسمبر عام ١٩٢٢ وكلنا أمل وترقب ببداية جديدة. وعلمت أن مصيرنا أصبح منذ الآن ملك أيدينا وحياتنا لنا نتصرف بها بمطلق الحرية وضحكت ومع ضحكاتي انطلقت صفارات القطار منذرة ببداية الرحلة.

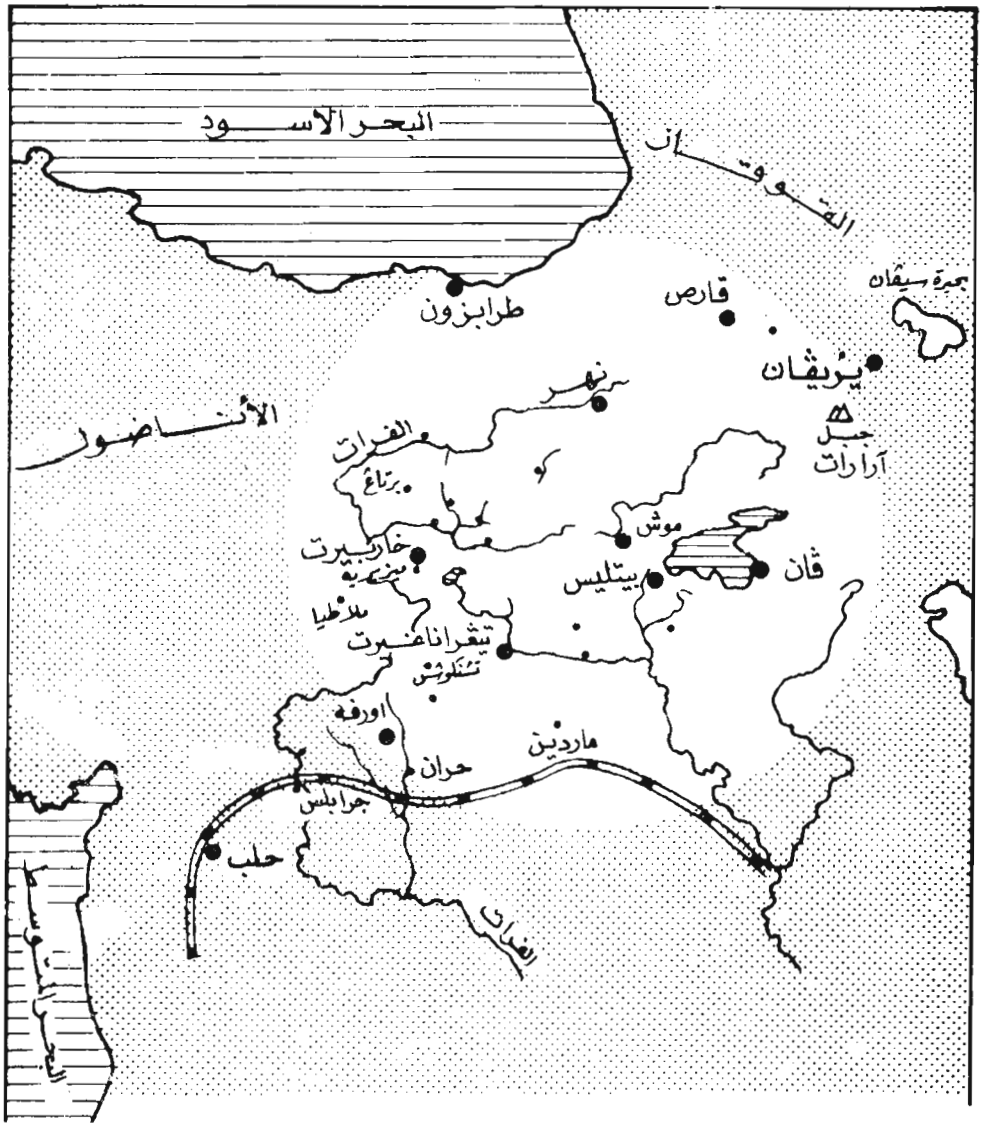

• ورثة البلاد المنسية :

يقال ان هذا المكان الذي كانت السماء قد باركته .. ألهم التاريخ احداثاً عديدة .

كان منارة للثقافة ، ومنه انبثقت جماليات أخاذة ..

أطفال هذا البلد المرمي في ظلام النسيان ، يتحدثون عن ارض يمكن ان تبقى لأمد طويل ، موضع جهل الله أو البشر ، ويقولون ... ان الضياء سيشع فوقها ذات يوم .

كلمة ختام

استقر غازاروس مع نفارت في (فالانس) فرنسا وأنجبا ثلاثة أولاد أحدهم (جاك) كاتب هذه النسخة. توفي غازاروس عن عمر يناهز الخامسة والسبعين محتفظاً في مكان سري بمذكراته إلى أن أخرجتها زوجته بعد موته وأعطت الصفحات المصفرة عبر ثلاثين عاماً إلى (جاك) الذي أخرج معاناة والده إلى النور وكتب الكتاب بالفرنسية لينقل للعالم الغربي صورة من آلاف الصور عن الشقاء الذي تكبده الشعب الأرمني وأنا بدوري نقلتها إلى العربية مراعية أصول الترجمة الأمينة محاولة نقل كل تعبير، كل آه، كل صرخة صدرت عن بطلنا الذي ليس إلا مثالاً لكل مهاجر أرمني طرد من بلده ليبدأ من جديد في بلاد أخرى ولكم أفخر أن تكون بلدي سورية هي أول من استقبلت القوافل المشردة من أرمينيا، كم أعتز بأنني ابنة (سورية) التي كانت ولاتزال تمد يد العون لكل من طلب المساعدة تناصر المظلومين وتساند المحتاجين، عشت ياسورية ودمت أبداً بلدي ووطني

الفهرس

ص

أرمينيا ـ أمريكا ـ ١٩٠٠ ..... ١٧
الجنة المفقودة ٢٣
نيسان ـ ١٩١٥ ..... ٣١
الجحيم ـ ٣٧
الهروب ـ ٥٣
شجعان مورينيغ ٦٣
تركي أم أرمني؟ ٦٩
الحرب دائماً ـ ١٩١٦ ..... ٧٣
ثورة الأكراد ـ ١٩١٧ ..... ٧٧
وتستمر الحياة ٨٧
عودة الى الخلف ٩٥
موقوفاً من جديد ـ ١٩١٨ ..... ١٠٥
جندي تركي ١١١
الهروب ١٢٣
بين الحياة والموت ١٣٥
العلاقات المترابطة من جديد ـ ١٩١٩ ..... ١٤٣
وداعاً مورينيغ ـ ١٩٢٠ ..... ١٤٧
الطبيب أمين أفندي ١٥١
المقارنة المستحيلة ـ ١٩٢٢ ..... ١٥٩
عند الأكراد ١٦٧
لنزح الغبار ١٧١

JACQUES der ALEXANIAN

LE CIEL ÉTAIT NOIR SUR L'EUPHRATE

La tragique histoire des Arméniens

coédition
ROBERT LAFFONT